فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسن ، صلاح

ثمانون عاما بحثا عن مخرج .- ط٢ .- الرياض.

٢٩٦ ص ، ١٤×٢٠ سم

ردمك : ٨ - ٤ - ٩٢٤٥ - ٩٩٦٠

١- القصة العربية - العصر الحديث أ - العنوان

ديوي ٨١٣,٣ ٢٠/٣٨٩٤

رقم الإيداع : ٢٠/٣٨٩٤
ردمك: ٨ - ٤ - ٩٢٤٥ - ٩٩٦٠

الطبعة الثانية ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة دار الأرقم

المملكة العربية السعودية

ص.ب : ١٠٢٧٤ - الرياض : ١١٤٣٣

هاتف: ٢٩٣٣٠٧١ _ ٠٥٥٢٩٣٢٢٤

ثمانون عاماً بحثاً عن مخرج

رواية رمزية هادفة

تأليف

الشهيد صلاح حسن

دار الارقم

مقدّمة

كنت معه وهو يكتب القصة ويحيا معانيها وقيمها .. وكان كلما كتب صفحة منها جلسنا لنقرأها معاً .. ونتابع سيرها في طريق الحق والخير والجمال.

وكان الهدف واضحاً أمام الشهيد صلاح حسن ـ عليه الرحمة والرضوان ـ وهو يكتب قصته الهادفة «ثمانون عاماً .. بحثاً عن مخرج».

إن الأجيال المسلمة الناشئة تعرضت لغزو تربوي واسع النطاق تناول ـ عمقاً ـ جذور النفس والفكر والعقيدة .. وشمل ـ امتداداً ـ العالم الإسلامي كله.

وهذا الغزو يستهدف عزل الجيل الحاضر والأجيال القادمة عن الإسلام، ويخرج شباباً غريب الفكر والعقيدة والنفس. غربيّ الوجهة والمسلك.

كان ذلك واضحاً في ذهنه وتفكيره .. وكان لا يفتأ يذكر هذا الغزو لفرط إحساسه بمخاطره وعواقبه .. ولا عجب !! فالشهيد رجل يعيش بالإسلام .. وله .. ويحيا واقعه وقضاياه .. وهو كذلك رجل اشتغل بتربية الشباب زمناً طويلاً وعرف ـ بالممارسة العملية ـ مشكلات الشباب والآثار النفسية والعقلية التي تركها

الغزو الأجنبي في نفسه وتفكيره وثقافته.

مقومات خاصة مكنت الشهيد صلاح حسن من إدراك مدى التخريب والمسخ الذي يحدثه الاحتلال التربوي والثقافي والفكري في أجيالنا .. وأورثته رؤية ـ تميزت بالعمق والجلاء والبعد ـ أبصر بها ما لم يبصره غيره.

● فهو رجل صاحب عقيدة حية جادة تريد أن تقوم حياة الناس على هدى الإسلام..

● وهو رجل مرب يتحدث عن تجربة .. ويصدر عن خبرة طويلة في مجال التربية.

● وهو صاحب نفس كبيرة ريانة بالفضل والبركة.. تحب الخير للناس.. وتتطلع دوماً إلى الأفضل.. والأرقى .. وتنزع إلى مواصلة السموّ.

انبعاثاً من هذه الخصائص الفاضلة الأصيلة بذل الشهيد من وقته .. ومن نفسه .. ومن عقله .. ومن كل ما يملك .. الجهود المتواصلة في سبيل نهضة جيل إسلامي يأخذ نفسه بالإسلام .. ويهدي الآخرين إلى سعة الإسلام ورحمته.

ومن فضائل الشهيد صلاح حسن أنه كان يقرن القول بالعمل .. والأمنية بالتطبيق .. ومن ثم شرع ـ وهو يتحدث عن مخاطر

الغزو التربوي ـ في كتابة هذه القصة التي تغرس في نفوس الناشئة وعقولهم ـ بأسلوب عصري جذاب ـ قيم الإسلام ومثله.

وهنا ينبغي توضيح حقيقة أخرى تربط بين القصة .. وبين استشهاد صاحبها الشهيد صلاح حسن.

كان يعتقد أن اليهود هم وراء إفساد أجيالنا .. هم الذين خططوا لهذا الهجوم التربوي والعقائدي والثقافي والفكري على عالمنا الإسلامي لكي يجردوا أمتنا من أقوى حصانات الثبات والدفاع .. من عقيدتها وفكرها .. ومن استعدادها النفسي للتضحية والبذل الغالي .. تمهيداً للغزو العسكري والسيطرة السياسية والاقتصادية من بعد.

- اقتناعه الحقيقي بهذه الحقيقة كان من أقوى الدوافع على كتابة القصة[١].

- واقتناعه اليقيني بهذه الحقيقة دفعه إلى حمل السلاح ضد العدو اليهودي.

- كتب القصة بقلمه ليدفع عن أمته الهجوم اليهودي في التربية

---

(١) لقد برز يقين الشهيد بهذه الحقيقة في فصل خاص من القصة هو فصل «القرد» الذي يرمز إلى طبيعة اليهود ومكرهم ووسائلهم في الإفساد والتدمير والتخريب.

والثقافة والفكر . . .

- وحمل السلاح بيده ليجاهد اليهود الذين يمثلون أكبر خطر في تاريخ أمتنا.

- كانت القصة مثالاً ناطقاً لضرورة الجهاد الفكري والتربوي ضد العدو.

- وكان استشهاد كاتبها مثالاً حياً لضرورة الجهاد المادي ضد أشرس الأعداء وأخطرهم.

فهل هناك من يكمل الأشواط . . هنا وهناك؟.

إن القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة فيقول: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾[سورة الأحزاب، الآية: ٢٣].

صدق الله العظيم.

زين العابدين الركابي

** . . ** . . ** . . **

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الأمين وكان صبياً متقد الذكاء لصاحبيه هشام وعامر: لقد حدثتني جدتي بالأمس حديثاً عجيباً:

روت لي قصة عن غرائب هذه الجيل الذي يقع شرق قريتنا . . ذكرت لي أن بيتاً مهجوراً يقع على قمة ذلك الجبل، خرج منه ذات يوم رجل عجوز ابيضَّ شعر رأسه، وطالت لحيته، فكادت تصل إلى بطنه، وانحنى ظهره واستند إلى عكازة من الخيزران الغليظ.

وما إن وصل إلى مشارف القرية، حتى تجمع حوله الصبيان وهم يتصايحون ويتدافعون، حتى توسط هذا الجمع الصاخب القرية، بجوار الدار العتيق، دار الشيخ عبدالرحمن.

وأخذ الرجل العجوز يسأل عن بعض الأسماء والدور. فتبين لأهل القرية أنها لآباء أجدادنا، وألحّ الشيخ عبدالرحمن على العجوز أن ينزل عنده ضيفاً، فاستجاب له ومكث عنده أياماً لا يتحدث كثيراً، ولكنه يخلو لنفسه، ويقضي وقته بين الصلاة والذكر، ويتأمل وجوه الزائرين في صمت عجب له الناس.

وطلب منه الشيخ عبدالرحمن ذات يوم، وكان عنده بعض زائريه، أن يقص عليه قصته، وكان الرجل لين الجانب. فأخذ يروي قصته على الحاضرين، وسرعان ما انتشر خبر العجوز في القرية كلها، وكان الناس كلهم رجالاً وأطفالاً ونساء يفدون إلى دار الشيخ عبدالرحمن عقب صلاة العصر، ينصتون كل يوم إلى حديث العجوز، وهم مستغرقون في تتبعه.

وتتلخص قصته في أنه خرج من هذه القرية وهو صبي، إلى ذلك

الجبل، ودخل البيت الذي يقع على قمته.. وبعد وقت قصير ضلّ طريقه داخل هذا البيت، ولم يهتد إلى مخرج وظل يبحث عن طريق للخروج، واستمر في بحثه طوال عمره، إلى أن صار عجوزاً، وأخيراً مَنَّ الله عليه بالخلاص، وخرج من ذلك البيت بعد أن قضى فيه ثمانين عاماً.

وظل حديث العجوز لأهل القرية مائة يوم، يجتمع الناس إليه عقب صلاة العصر ويستغرقون في الاستماع إلى عجائب ما يروي العجوز، وكانت جدتي وهي صغيرة تستمع إلى حديث الرجل وتعجب به أيما إعجاب.

أخذ الأمين يحدث صاحبيه عن عزمه للقيام برحلة إلى هذا الجبل ليرى ذلك البيت، فقد زادته قصص جدته شوقاً لرؤيته. وعرض على هشام وعامر أن يصحباه في هذه الرحلة، فأجابه هشام على الفور وتردد عامر.

قال هشام موجهاً حديثه للأمين:

«سنحتاج معنا إلى كثير من الحوائج التي سنستخدمها في هذه الرحلة».

فاتفقا معاً على تحضيرها وتواعدا أن يبدأ الرحلة صباح يوم الخميس وكان ذلك يوم الإثنين.. ولم يتمكن عامر من أن ينعم بنوم هادىء طوال هذه الأيام الثلاثة.

وكلما جاء الليل ساوره القلق، وظل يفكر طويلاً في أمر تخلفه عن رفيقيه الأمين وهشام...

والتقى الأمين وهشام عند بئر خارج القرية يقال لها النضاح.

وعند وصولهما غمرهما سرور عظيم، إذ فوجئا بوجود عامر في

انتظارهما وكان على علم بموعد اللقاء ومكانه . .

وبدأ الثلاثة رحلتهم . . .

نحو الجبل . . .

وكان الجبل الذي يبدو بعيداً عن القرية على علم بما عزم عليه الثلاثة :

الأمين وهشام وعامر.

وكانوا يسيرون نحوه بخطى ثابة ملؤها النشاط والعزم . . وما إن تجاوزوا حدود القرية حتى حدث شيء عجيب. لم يلحظوه ولم يفطنوا له.

فقد بدأ الجبل يتحرك نحوهم، ويدنو منهم في هدوء عجيب وسكون غامض، لم تضطرب الأرض!! بل ظل كل شيء كما هو: الصخر، والرمال، والحصى، والنبات المتناثر هنا وهناك. .

والثلاثة فرحون مغتبطون باقترابهم السريع من الجبل، ومعجبون بقدرتهم على قطع المسافة وسرعتهم في ذلك وكان هذا يغريهم بالمضي في رحلتهم دون تردد. .

وسرعان ما وجدوا أنفسهم واقفين عند سفح الجبل، يتطلعون إلى درب سهل يسلكونه إلى قمته.

وكان كل شيء أمامهم سهلاً. . خالياً من الصعاب يغريهم بمزيد من الإقدام والمغامرة.

وما هي إلا ساعة حتى وجدوا البيت المهجور أمامهم في مواجهتهم.

جدرانه قديمة، بلي بعض أحجارها وتهدم البعض الآخر ولكنها تبدو مرتفعة عالية.

وأخذ ثلاثتهم يدورون حوله، وقد بدا لهم كل شيء طبيعياً وهم يتصايحون وصدى أصواتهم يرتد إليهم في وضوح، وكان ذلك حافزاً لمزيد من إطلاق النداء والصياح لسماع الصدى. .

ها ها . ها ها .

هو هو . هو هو .

شام شام شام شام.

اقتربوا من جدران البيت، وكعادة الصبيان أخذوا يقذفون الحجارة على الجدران ويتبارون فيما بينهم على الرماية، وإصابة حجر بارز فوق باب المدخل القديم.

ولم يلحظوا الباب جيداً وهو يفتح بهدوء، وبقدر لا يسمح إلا بمرور شخص واحد . . وكان ذلك على أثر إصابة الحجر البارز عن البناء فوق الباب، بحجر صغير قذفه هشام . . وشغلهم صياحهم فرحاً، لتحية هشام الذي أصاب الهدف عن مراقبة الباب وهو يفتح.

وجلس الثلاثة يستريحون ويأكلون وهم سعداء، فقد كانت السماء صافية زرقاء جميلة تزينها كتل من السحاب الناصع البياض، الذي يتناثر هنا وهناك بغير نظام، وهو يسبح يدفع الهواء المنعش العليل. والأرض قد تناثرت عليها الأزهار البرية الجميلة تتخلل الأعشاب الخضراء هنا وهناك. والطيور المغردات تمر فوق المكان وتقع على الأرض طلباً للحب، وتشيع في الجو ألحاناً عذاباً تطرب سامعيها.

كان الثلاثة جالسين يستعيدون أطراف الحديث الذي سمعوه من الأمين . . وهم يقولون لعل ما سمعناه عن هذا المكان خرافة حملها العجوز إلى أهل القرية . . وها نحن قد جئنا ولم نجد في هذا المكان إلا الجمال يحيط بكل شيء، على الرغم من قدم البيت وتهدم بعض

جدرانه.

وأضاف الأمين: وها هو باب البيت لا ينبىء بأي غرابة في المكان - وأدار رأسه ينظر إلى باب البيت وخفض صوته ثم سكت.. وطال سكوته ونظره إلى الباب لا يتحول .. ثم نادى بصوت هامس .. هشام:

- ما بك يا أمين؟

- ألم يكن هذا الباب مقفلاً حينما كنا نتبارى في إصابة ذلك الحجر؟

- قال هشام: لم ألحظ حالة الباب التي كان عليها.

- وقال عامر: بل كان هكذا ولم يتغير !!!

- ورد الأمين : لقد كنت واثقاً أنه كان مغلقاً، وبدأت عيون الثلاثة تلتقي على الشك والخوف والاستفسار .. لا يتكلمون !! وأحداث القصة التي سمعوا عنها تمر في ذاكرتهم كومضة الضوء ترتفع ثم تخبو سريعاً ليعودوا إلى واقعهم..

وقام الأمين متجهاً إلى الباب بخطى وئيدة يقدم الحذر ويدقق النظر في كل ما حوله .. يتبعه صاحباه وهما على قدر أشد من الحذر والتخوف والتردد..

ووصل الأمين إلى الباب.

ونظر إلى ما يكون خلفه ثم وضع يده على مقبضه القديم ودفعه بهدوء ففتحه حتى آخره وهو يحدث صوتاً يذكرهم بصوت الساقية.

.. وانفتح الباب عن فناء للدار فسيحة .. تظلها السماء .. ليس بها شيء إلا أعشاب خضراء متناثرة مع زهور البر.

ووقف الثلاثة على عتبة الدار ينظرون ما بداخله، وأجالوا البصر

حول الفناء وقد لفه هدوء الدور المهجورة.

وولج الأمين يتحسس خطوه ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال، ومضى حتى توسط المكان، ولم يلحظ إلا غرفاً مهدمة تحيط بجانب منه، ولم يكن هناك ما يدعو إلى الريبة. ومضى يقترب من هذه الغرف وصاحباه يرقبانه وهما على عتبة الباب.

ثم صاح يناديهما. . .

عش !! عش عصفور . . ما أجمله . . فهرول إليه صاحباه ووقف الثلاثة يرقبون عصفوراً برياً ازدان ريشه بألوان زاهية خلابة، وقد رقد على بيضتين وأخذ ينظر إليهما دون أن يزعجه وجود الضيوف الوافدين الجدد. .

وأخذوا يعبرون عن إعجابهم بهذا العصفور الخلاب، وطلب منهم الأمين ألا يمسوه بسوء وأن يكتفوا بالنظر إليه.

ولاحظ هشام بين قدميه النمل يسير في مسار طويل، يحمل إلى بيته ما حصل عليه من رزق. . يغالب حمله مغالبة عنيدة، وشغلته مراقبة النمل، وشاركه في ذلك الأمين وعامر، وكان مسار النمل يصل بين حجرة مهدمة على جانب من جوانب البيت وبين مسكنه الذي انتهى قرب جدار الفناء. .

وشغلتهم مراقبة النمل وسلوكه وصبره وتعاونه على جلب قوته، مما لا يمله متأمل.

وهناك في الغرفة التي ينتهي إليها النمل كانت عينان براقتان نافذتان ترقبان تحرك الوافدين الثلاثة منذ دخولهم البيت.

امتدت يد في هدوء تلمس حجراً أسفل زاوية في الغرفة المهدمة . . . .

وأغلق باب الدار بمثل الهدوء الذي فتح به.

والثلاثة مشغولون بمراقبة النمل العجيب .. وأدواتهم وغذاؤهم الذي استحضروه معهم ليقتاتوه في رحلتهم بقي خارج البيت.

ويمشي هشام يتتبع النمل خطوة خطوة وهو لا يرفع عينه ليرى ما حوله .. واقترب من الغرفة رويداً رويداً ..

وصاحباه الأمين وعامر مشغولان عنه بمشاكسة النمل فقد عنَّ للأمين أن يضع بعض أعواد العشب الجاف في طريق النمل ليعرف كيف سيشق طريقه.

وشاركه عامر في هذه التسلية الممتعة، واستغرقتهما معاً هذه التسلية عن ملاحظة صاحبهما هشام الذي استدرجته الرغبة في تتبع طابور النمل في طريقه إلى الغرفة. والعين الثاقبة ترقب قدومه إليها صامتة إلى أن دخلها.

مسكين هشام !!

لم تعلم أمه بخروجه إلى هذا المكان، فما أخبرها ولا استأذنها بما عزم عليه.

ترى ماذا يصيبها لو علمت بما يحدث لابنها الوحيد الذي توفي عنه أبوه منذ نعومة أظفاره؟

... قام عامر يتمطى فقد أرهقه الانحناء وهو يتفحص النمل، وأخذ يلوي جسمه من جانب لآخر كأنه يهيء نفسه لفترة أخرى يقضيها في التسلي بمراقبة النمل ولم تقع عيناه على هشام، وجمد جسمه على لية متمطية وقد تنبه لغياب صاحبه وصاح:

هشام ..

ولم يسمع جواباً، وفزع الأمين واقفاً يتلفت في سرعة وينادي:

هشام .. ويأتيهما .. صدى النداء يرتد من الجدران التي أحاطت الفناء واندفع الأمين يبحث عن صاحبه في كل اتجاه في سرعة الملهوف.

كما اندفع عامر نحو الباب ظناً منه بخروج هشام.

وكم كانت المفاجأة ثقيلة الوطأة .. فقد تبين له أن الباب قد أغلق، وأحكم إغلاقه، ودارت يداه تعبث حول الباب عله يستطيع فتحه، ولكنه تبين أن الباب ليس كغيره من الأبواب، فقد أقفل بطريقة غير مفهومة.

وصاح يخبر الأمين بخبر الباب، وكان الأمين ما زال في اندفاعه منشغلاً يبحث عن هشام، حينما صدمه خبر انغلاق الباب.

والتقى الصديقان وسط الفناء بسرعة بعيداً عن الجدران، وأخذ كل منهما ينظر في عيني صاحبه وقد امتلأت عيونهما بالخوف والحيرة والتساؤل. وقد بدا للأمين أن انفتاح الباب أول الأمر لم يكن وهماً، وكان وثوقه حينما استفسر من صاحبيه أمراً يؤكده الآن انغلاق الباب واختفاء هشام. وإن وراء ذلك لأحداثاً لا يعلمها إلا الله . . .

وها قد بدت معالم من صدق حديث العجوز.

قال الأمين: يا عامر علينا أن نبحث عن هشام فالثلاثة أقدر على مواجهة الصعاب من اثنين .. لعل هشاماً الآن في ضيق يحتاج إلى من يعاونه في الخروج منه .. وعلينا أن نفكر بهدوء وروية في كل ما نقدم عليه، وقد خطر لي الآن أن أتتبع آثار قدميه لنرى أين اتجهت؛ فهيا بنا .. وذهب الأمين إلى حيث كانوا يراقبون النمل وتبعه عامر. وبدأ الإثنان يتعقبان الأثر، فإذا بهما يسيران في اتجاه مسار النمل.

وبدت آثار أقدام هشام واضحة على الأرض فزاد ذلك من

اطمئنانهما إلى طريقة بحثهما عن صاحبهما المفقود، وتعجل عامر خطوه وأسرع في تتبعه إلى أن أوصلته آثار الأقدام إلى الغرفة والأمين في قدومه أبطأ منه، فقد كان يدقق النظر في آثار الأقدام، كل ذلك يجري والعين ترقب!!

وما إن دخل عامر الغرفة حتى ارتد فزعاً وهو يصرخ ويعدو كالريح إلى باب المخرج يطرقه بشدة كالمجنون، ويبحث عن طريقة يفتح بها الباب..

وما إن فعل عامر هكذا حتى تبعه الأمين كالريح، وقد طار قلبه هلعاً دون أن يفهم ما الذي حدث!!

وأخذ الأمين يلح على عامر أن يذكر له ماذا رأى، وهو يحاول في نفس الوقت فتح الباب ولكن عامراً كان يلهث رعباً وفرقاً. والأمين يهدئه حتى يفهم الأمر.

وأخيراً ... قال عامر:

بينما كنت أهم بدخول الغرفة التي انتهت إليها آثار الأقدام لمحت .. ثم سكت.

- ماذا لمحت؟..

- جلباب هشام ...

- هل رأيت هشاماً ؟

- كلا لم أره، ولكني لمحت جلبابه وحذاءه على أرض الغرفة وقد تبعثرا بما يوحي إليّ أن صاحبنا قد أصابه مكروه.

وقد تصورت أنه ...

- ماذا ؟

- إنه ....

ـ أواثق أنك لم تره؟ . . .

ـ نعم أنا واثق ولكنه . . . ولكنه . . .

ألست معي في أن ملابسه بوضعها الذي رأيته تؤكد أن مكروهاً قد ألم به؟

ـ يساورنـــي يا عامــر خوف مما تقول . . . ولكنك لست على يقين !!

ـ لماذا؟

ـ لأنك لم تره بعينيك.

ـ وما دلالة الذي رأيت؟

ـ قد يكون الصواب إلى جوارك، يدعم شبهتك وقد لا يكون، ويجب أن نعرف الحقيقة ونرى بأعيننا.

ـ تعني أن ندخل الغرفة؟

ـ لنستيقن.

ـ لا أستطيع يا أمين، اذهب وحدك. .

ـ وأنت . . هل ستبقى وحدك؟؟

وفكر عامر في بقائه وحده، وقال:

ـ ليست لي قدرة يا أمين على دخول هذه الغرفة، وقلبي ما زال منقبضاً وصدري ضيق، وهنا الفناء واسع والشمس تملأ المكان ضياء ونفسي تأنس إلى الضياء. . .

ـ يا عامر . . علنا نستطيع أن نساعد هشاماً، والنهار ما زال يؤنسنا. . وإذا ذهبت وحدي فستبقى وحدك كذلك وهذا يزيد وحشتك ثم يأتي عليك الليل. . وأرى أن نكون سوياً يؤازر أحدنا الآخر وننقذ هشاماً فنكون حينئذ ثلاثة. . بدلاً من اثنين.

ـ وتردد عامر ولم يعد قادراً على أن يحسم رأيه هل يشارك الأمين ويدخل الغرفة، أم يبقى وحده.. وقد لا يعود إلى الليل؟

ثم تحرك الأمين نحو الغرفة وطلب من عامر أن يتبعه، فقام عامر وتبعه مستسلماً، وأخذ الأمين يغني بصوت مرتفع ليذهب عنه الخوف.

واقتربا من باب الغرفة، الأمين يسبق عامراً بخطوات قليلة.

وكان صوته المرتفع الذي يغني به ليذهب خوف نفسه ينخفض قليلاً قليلاً كلما اقترب، وعامر خلفه تتردد خطاه ويستجمع عزمه، لا للمضي قدماً ولكن للجري عند أول بادرة تنبيء بالنذير. وانخفض صوت الغناء ثم انقطع ولما يبقى على باب الغرفة إلا القليل، وقارب الأمين خطوه ثم سار على أمشاط قدميه.. ونظره نحو الغرفة.

بقي خطوتان عندما وقف الأمين، ووقف عامر خلفه يبعد عنه خطوات، وما زال الأمين واقفاً يستجمع شجاعته.. ثم مضى يقطع الخطوتين في حذر بالغ ـ ووقف أمام الباب يقلب الطرف في الغرفة ويدقق النظر في الأرض.

حقاً هذا هو جلباب هشام وهذا حذاؤه، ثم أطل برأسه قليلاً إلى الداخل.. رأى أثر قدميه الحافيتين تمضيان إلى الداخل إلى فتحة في نهاية الغرفة وعلى جانب منها. ولا شيء غير الذي رآه !!

نادى الأمين:

أقبل يا عامر. فأقبل عامر متردداً ووقف إلى جواره فأراه أثر قدمي هشام الحافيتين تمضيان إلى الفتحة الجانبية. وبدا لهما أن هناك غرفة أخرى دخل إليها هشام.. وكان عامر يتحدث إلى الأمين مؤيداً قوله حينما أشار إليه الأمين بالسكوت.. وأدار أذنه للداخل.. وكان صوتاً خفيفاً يأتيهما. وأرهف الأمين السمع..

آه . . إنه خرير الماء.

لعل نبعاً في الداخل يصدر عنه هذا الصوت، وقد خطرت على الفور الفكرة للأمين تكشف لهما ما غاب من تفسير الأمر.

فلعل هشاماً قد رأى الماء الذي نسمع صوته يأتينا من الداخل فخلع جلبابه وحذاءه ومضى إلى النبع يستحم.

ودخل الأمين متجهاً بهدوء المستطلع لخفايا المجهول ليرى الغرفة الداخلة والعين لم تتغفل عن تتبعهما.

ودخل الأمين . . وكان عامر ما زال بجوار الملابس التي تركها هشام في الغرفة الخارجية وحينئذ؛ أطلق الأمين صرخة تصخ الأذن قائلاً: «اهرب يا عامر» . . .

واندفع عامر بكل قواه مؤثراً النجاة بنفسه وخرج إلى الفناء الفسيح يعدو . . ويتلمس لنفسه مهرباً.

وكان أشبه شيء بالحيوان الذي وقع حبيساً وقد كان حراً طليقاً يعدو بغير هدى من جانب لجانب ويدور مع جدران الفناء . . .

ثم يذهب إلى الباب ويفتش عن وسيلة تسعفه في فتحه والخلاص مما هو فيه. وكان يبذل أقصى جهده بقوة لم يعهدها في نفسه من قبل. ولم يكن يقوى على الصياح لجهده الذي بلغ منتهاه التماساً لمخرج، وهو يلتفت التفاتة الفزع نحو الغرفة من حين لآخر مستطلعاً ما عساه يخرج إليه منه بين لحظة وأخرى.

ودخل الليل مسدلاً أستاره على الدنيا، وارتحل الضوء مع الأنس والطمأنينة اللتين تصاحبانه أبداً . . وعيناه وعينا عامر تزدادان اتساعاً كلما زاد الظلام . . وهو على حاله من الكد والجهد وعدم الاهتداء .

وغلبه الإعياء والإرهاق وأخذته إغماءة من شدة خوفه ـ وأمضى الليل

مفترشاً تراب الأرض.

وما وعى من إغفائه....

ولا أفاق من نومه إلا بعد أن لسعته أشعة الشمس صباح اليوم التالي.

فتح عينيه ينظر إلى الدنيا حوله وكأنه أفاق من أحلام ليل داهم الخطوب. وأخذ بصره يدور، فرأى جدران البيت حول الفناء عالية، وقد كان يظن أنه في بيته الذي ألف أن يرى سقفه عندما يفتح عينيه كل صباح...

وخاطب نفسه متسائلاً:

ما الذي غير دارنا.. لم تكن أبداً مثلما أراها الآن.

وسبحت عيناه في الفضاء وقد ملائهما دهشة المتسائل المستنكر.. يحاول أن يعي وأن يفهم.. وكلما هم بتحريك أطرافه ليرفع جسمه المسترخي على التراب.. لم تسعفه قواه لكثرة ما أنفق بالأمس من جهد..

وفجأة.. حضرته ذاكرته، وأدرك ما كان من يومه الفائت.

فانتفض على قدميه واقفاً، والتصق بالجدار وعينه لا تتحول عن باب الحجرة، وأفكاره تتوالى سراعاً.

وامتدت يد من وراء العين التي ترقبه بصمت وهدوء عجيبين مشيرة إلى فتحة صغيرة في الجدار الذي يواجه عامر...

والمسكين لا يرى ولا يدرك ما يدور حوله. ومضت لحظات.

ثم خرجت من هذه الفتحة جموع لا يحصيها عد، من النمل الأبيض الكبير الذي يأكل الإنسان حتى عظمه في لحظات. وازداد اندفاعها من هذه الفتحة الضيقة، كأن نبعاً من النمل الأبيض قد تفجر،

وخرجت سيوله دافقة تغرق المكان في موجات عاتية متلاحقة. . تندفع في كل اتجاه . . وتكدست موجات النمل، وركب بعضها بعضاً حتى علت مثل قامة الرجل الطويل وتدفق ذلك الموج نحو عامر وكاد يحيط به إحاطة السوار للمعصم . . ولم تترك له إلا فتحة ضيقة لينجو بنفسه من هذا الخطر الداهم. .

وعامر المسكين يرقب هذا الأمر العجيب دون أن تكون له فسحة للتفكير . . ويرفع يديه ليغمض عينيه من شدة الهلع، ثم يفتحهما ويفعل ذلك مراراً دون أن ينجيه قفل عينيه من هذا الخطر الداهم الذي أنساه ما كان فيه بالأمس من هم وكرب.

وما إن اكتملت الموجات حتى اندفع عامر من خلال الفتحة الضيقة التي تركت له، وأخذ يعدو منها، والنمل على جانبي هذه الفتحة تضيق رويداً رويداً وهو يسرع عدواً خلال هذه الفتحة لينجو قبل أن يطبق عليه النمل الأبيض.

وأسلمته هذه الفتحة للغرفة الأولى ثم الثانية التي دخلها الأمين بالأمس. وأطلق النمل بعضه على بعض بمجرد دخوله الغرفة الثانية التي لم يدخلها النمل ووقف لا يستطيع أن ينظر خلفه ليرى النمل وهو ينحسر سريعاً عن المكان ويعود إلى الفتحة التي خرج منها بمثل سرعته في الانتشار وكأن حدثاً عجيباً لم يحدث. .

وبقي عامر في الغرفة . . وقد جف حلقه من شدة الخوف. ووقع على الأرض يجهش بكاءً ويئن أنيناً. .

وبينما هو على حاله . . امتدت إليه من وراء العين التي ترقبه يد طويلة، أصابعها كثيرة، واقتربت نحوه من خلفه في هدوء الأفعى المخيفة ـ تتحسس الطريق إلى ظهر عامر وتنفتح الأصابع الطويلة

العديدة في كل اتجاه كأن كل إصبع له عمل محدد.

وعامر المسكين غير دار بما حوله .. والأصابع في رخاوة أذرع الأخطبوط ورطوبتها وقوتها.. ودنت راحة اليد العجيبة من ظهره .. ولما بقي بينهما وبين ظهر المسكين قدر إصبع، وفي مثل لمحة البصر الخاطف أطبقت راحة اليد فالتصقت بظهر عامر والتفت أصابعها، كل منها يعمل عمله فتغيرت رجلاه وذراعاه بما لا يقدر عامر على الإفلات منه، والتف إصبع حول فمه يسكته عن النحيب والبكاء.

وساد المكان صمت يحاكي صمت القبور وارتفعت اليد بفريستها وأخذت تطول رويداً وريداً..

واتجهت به نحو ركن الغرفة الداخلي، ووقفت به أمام حجر في الجدار داكن اللون، وامتدت إصبعان من هذه اليد العجيبة إلى الأمام نحو الحجر كأنهما قرنا استشعار طويلتين، وعالجا الأحجار المحيطة بالحجر الداكن في درية ومهارة عظيمتين .. ثم بدأت الإصبعان في دفع الحجر إلى الداخل فانزلق الحجر أمام الإصبعين وطالت اليد .. ثم طالت، وهي تمضي في فحيح الأفعى لفريستها في هذا الممر الضيق المظلم الطويل، الذي ينحسر عنه الحجر الداكن. ومضت لحظات ولحظات، واليد تمضي في الممر حتى تكشفت أرضه عن قبو كبير، يقع أسفل الممر - وتدلت اليد العجيبة من سقف القبو وهي مطبقة على فريستها، ثم أنزلت عامراً بهدوء إلى أرض القبو وعادت من حيث جاءت.

وأقفل سقف القبو بعودة الحجر الداكن خلف اليد العجيبة التي أخذت تنسحب رويداً رويداً. تاركة عامراً المسكين في غيبوبة ثانية.

أفاق عامر وهو يئن أنيناً متواصلاً.. والمكان كله يهتز لصدى

الصوت . . كأنه يشارك عامراً أنينه.

وعيناه تنظران إلى سقف القبو لا تتحولان عنه.

وعلى صدره أيد حانية تهدهده ليستجمع وعيه، ومال رأسه قليلاً فالتقت عيناه بعيني الأمين تنظران إليه بشوق وحنان عظيمين وسمع صوتاً يقول له:

لله الحمد على سلامتك يا عامر، وما كان هذا الصوت إلا صوت هشام ينبعث من الجانب الآخر وأدار رأسه فالتقت عيناه بعيني هشام منفرجاً ثغره عن ابتسامة دونها عذوبة الجمال.

فما صدق عينيه وقام برأسه وهو يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الحمد لله، الحمد لله، ثم أردف قائلاً: لقد كنت في حلم مزعج . فقال الأمين:

ـ أي حلم . .

قال عامر: لقد رأيت أشياء مخيفة في منامي !!

قال هشام : أي منام يا عامر؟. هدىء نفسك إنها حقيقة.

ـ الحقيقة؟

الأمين : نعم، وأنت بخير ولله الحمد، ونحن كذلك، فقم وهيا ننظر في أمرنا ونفكر في طريقة للخلاص مما نحن فيه.

تنبه عامر وقام فإذا هو بين رفيقيه في قبو مظلم إلا من خيط رفيع للضوء يتسلل خلسة من ثقب ضيق في سقف القبو.

ونهض يعانق صاحبيه الأمين وهشاماً ويملأ عينيه بالنظر إليهما، فعل الجائع الذي وجد الطعام بعد طول انقطاع.

وكان حقاً يشعر بجوع البطن وجفاف الحلق من العطش . . ولكن بقاءه وحده كان يخيفه ويشعر بوحشة ترهبه.

وأما الآن، فقد أنس للقيا صاحبيه وأنس صاحباه بلقياه. فكان ذلك في لحظته هذه أعظم من شهي الطعام وبارد الشراب.

قام الجميع يتحسسون جدران القبو ويفحصون أحجاره حجراً حجراً .. يطرقونه بأيديهم عسى أن ينفرج أحد هذه الأحجار عن مخرج، وكان هشام يفحص أرض القبو عندما لحظ ثقباً ضيقاً يشع تحته الضوء. فانكفأ على صدره ينظر في هذا الثقب وهو ينادي صاحبيه، وأخذ يهلل بألفاظ وكلمات تنم عن عجب شديد وهو ينظر من هذا الثقب .. وصاحباه يستحثانه على جلاء الأمر، وهو مكب لا يزيد على ألفاظ التعجب وكلمات الاستغراب ...

وأزاحه الأمين بيديه ليستجلي ما يكشف عنه هذا الثقب، وما إن وضع عينه ليرى، حتى كان عجبه أشد من عجب صاحبه وكلماته وألفاظه أعظم تعبيراً وأكثر استغراباً من صاحبه هشام.

الأمر الذي جعل عامراً يقفز في مكانه فرحاً بقرب الأمل في الخلاص ويتشوق إلى أن يرى ما يراه الأمين.

ودعا الأمين عامراً إلى رؤية ما يكشف عنه هذا الثقب. وما كاد عامر يضع عينه ليرى ما رأى صاحباه حتى تعالى صوته بالتهليل وصيحات التعجب وكلمات الاستغراب، ثم أزاحه الأمين دفعاً براحتيه، وبدأ ينظر ثم أشار إليهما بالسكوت .. وأخذ يصف ما يراه وصفاً دقيقاً .. فقال : إنها سوق كبيرة جداً، ميادينها فسيحة ويملأ شوارعها مخلوقات غريبة، كلها تروح وتغدو في همة وسرعة.

ها هو أحد هذه المخلوقات يمشي بين أقرانه ويربو عنهم جسماً وله ثلاثة أرجل فصاح هشام..

ـ تقول ثلاثة أرجل يا أمين؟

ـ نعم . . كلا . . كلا . . رجلان وذيل طويل حسبته رجلاً أول الأمـــر . . ها . . كل المخلوقات تحملها أمهاتها تماماً كما يفعل الناس . .

والأمهات لها ذيل قصير . .

عجباً ... إن هذه المخلوقات لها مشية غريبة . . كلها تتراقص وتتمايل ويحيي بعضها بعضاً، وألحظ أنه كلما تقابل اثنان وضع كل منهما يده في فم الآخر ثم يبدآن العض . . وبعد برهة يصرخان فتنفرج . . . !! ويسحب كل واحد منهما يده من فم صاحبه.

آه إنها تحيتهم . . وهي تكرر كثيراً مما يجعل السوق كله ضاحكاً لهذه التحية الطريفة.

آه . . لقد أقبل موكب عظيم من هذه المخلوقات متجهاً إلى الميدان الكبير، وكلما مر بقوم منهم لحقوا بالموكب . . حتى انتظم الحشد جميع المخلوقات، كلها وتوسط الجمع الميدان ووقفوا في قوس منتظم ثم تقدم كبيرهم حتى توسط الجمع وأشار لهم بيده . . فصدرت على الفور أنغام أطلقها جميع ما في الميدان من المخلوقات العجيبة.

ولشد ما كان العجب أن جاء النغم من أصوات عذبة رخيمة حلوة . . لم يكن كلامها مفهوماً. ولكن النشيد الذي ترنموا به انساب مزيجاً حياً من التعبير الجميل بلحن يدخل البهجة على نفوس المكروبين فيزيل ما بها ـ فعل البلسم الشافي في الجراح.

ما أعظم راحة النفس عند سماعها لأصوات هؤلاء في تغريدهم الرائع . .

كان لإنشادهم في نفس الأمين فعل السحر، وأدار أذنه يضعها على

الثقب كي يشجي أذنه بمزيد من عذوبة النغم.

ودارت عيناه .. فراعه أن رأى صاحبيه ملتصقين بالحائط في ذهول المفتون من الخوف وأدار رأسه إلى الناحية الأخرى !

فرأى حيواناً غريباً رأسه يشبه رأس الفهد المفترس .. وجسمه كجسم الطائر الكبير يرمي الأمين بشرر يتطاير من عينيه المتقدتين ويشير إليه بجناحه أن يقف بجوار رفيقيه في صمت وهدوء ... ووقف الحيوان بجوار فرجة واسعة فتحت من الجدار، ثم نشر جناحيه كأنه يؤكد سيطرته على الثلاثة .. وكشر عن أنيابه فبدت مخيفة.

ثم طوى جناحه أمام عينيه كأنه صحيفة رفعها للقراءة . وشد ما كان دهشة الثلاثة الأمين وهشام وعامر حين بدأ هذا الحيوان يقرأ .. وكان صوته مخيفاً، له رنين غير منتظم يبعث الرعب في نفوس سامعيه فضلاً عن مشاهديه ...

قال الحيوان الطائر:

«الأمير أمر بتقديمكم للمحاكمة، فقد اعتديتم على مملكته ودخلتم دون إذن فأنتم جواسيس وستحاكمون بهذه التهمة الخطيرة والمحكمة الآن منعقدة وجئت آخذكم للمثول أمامها».

وأشار بطرف جناحه إلى الثلاثة أن يمشوا أمامه في الفرجة المفتوحة في الجدار فساروا في ممر مظلم .. والحيوان الطائر يقودهم أمامه..

فإذا بهم يدخلون قاعة المحكمة، ولشد ما كانت دهشتهم أن رأوا...

قاعة فسيحة يتصدرها خنزير قبيح الشكل وعن يمينه فأر أشبه بفيران الغيط البرية وعن يساره ثعبان أسود أشبه ما يكون بثعبان (الكوبرا).

ثم جلست بعض الحيوانات الدميمة الشكل التي لا يعرف لها أصل

أو فصيلة يمكن أن تنسب إليها عن يمين الهيئة وشمالها . . .

ثم إن القاعة قد غصت بحشود كثيفة من حشرات ضخمة ضخامة الحيوانات.

وكان منظر القاعة يثير الخوف والهلع .. وقد انبعثت منها روائح كريهة عفنة لا سبيل إلى تجنب الغثيان الذي تثيره عندما تشمها الأنوف.

ووقف المساكين الثلاثة على مدخل القاعة وقد حاروا ماذا يفعلون وسط هذا الجمع الكثيف الكريه .. فدفعهم الحيوان الذي استدعاهم نحو صدر القاعة، وأمرهم بالمثول أمام رئيس هذه المحكمة العجيبة الخنزير البري الكبير . . .

وامتثل المساكين الثلاثة وساروا للأمام يجرون أرجلهم الثقيلة حتى وصلوا إلى صدر القاعة ووقفوا صامتين بين يدي القاضي العجيب وقد أطرقوا رؤوسهم إلى أسفل .. خوفاً وتجنباً لرؤية هذه الحيوانات المفزعة.

قال القاضي العجيب: «إن المحكمة بعد دراستها للقضية واقتناعها بثبوت جريمة تجسسكم على مملكة أميرنا قد أصدرت حكمها بإعدامكم حرقاً في فرن المملكة الكبير، وإتماماً للعدالة فإنا سنفسح صدورنا لسماعكم بعد تنفيذ الحكم».

ونظر عن يمينه فأومأ الفأر تصديقاً . . .

ونظر عن شماله فاهتز الثعبان مشيراً بالموافقة . . .

وبسرعة جاء حيوان رأسه يشبه الذئب وجسمه يشبه الحمار يتبعه ثلاث حشرات كبيرة ... وقيدت كل حشرة واحداً من الثلاثة المساكين، الأمين وعامر وهاشم واقتادوهم إلى الفرن لتنفيذ الحكم وما

إن أقدموا على الفرن حتى استقبلهم الحارس أشبه ما يكون بالقرد وفتح باب الفرن.

فإذا بحفرة رهيبة العمق تأججت نارها فهي تزمجر بصوت رهيب، وترتفع منها ألسنة اللهب في أصوات قاصفة كالرعد.

وإذا بالمساكين الثلاثة ترتعد فرائصهم ويتصبب منهم العرق غزيراً غزيراً وتشحب وجوههم كأنها الزعفران صفرة.

وينظر بعضهم إلى بعض نظرة وداع وأسف لهذه النهاية الأليمة المحرقة ويزداد حزن الأمين من أصحابه فهو الذي اقترح عليهم الخروج معه.

وتجهزت الحيوانات لتنفيذ الحكم وبدأوا بالأمين فاقتادوه إلى حافة هذا الأتون المستعر وعندما هموا بقذفه قال للذئب الحمار:

ـ إن القاضي سيقتلك.

ـ يقتلني؟

ـ لماذا؟

ـ لأنك لم تنفذ الحكم.

ـ ننفذه وسنلقي بكم في النار.

ـ ولهذا سيقتلك لأنك لم تفهم الحكم.

ـ ما الذي لا أفهمه . . .؟

ـ إن نص الحكم الذي نطق به القاضي معك فاقرأه جيداً ودقق فيه لتفهمه قبل أن تخطىء خطأ كبيراً فيكون جزاؤك القتل لسوء فهمك.

ـ تعودت على سماع مثل هذا الحكم كثيراً عندما كان الثعبان رئيساً ولم يعترض على تنفيذنا بمثل ما نفعل الآن.

ـ ولكنك الآن في عهد رياسة الخنزير، وهو لا يقبل أن تتم في

عهده الفوضى في تنفيذ الأوامر والأحكام. . .

ـ لم يكن هناك فوضى في عهد رياسة الثعبان.

ـ ألأنك كنت مسؤولاً عن التنفيذ، وتخشى أن يفطن أحد إلى أخطائك القديمة؟

ـ كلا فأنا أقول ما أعتقد وأنفذ ما أفهم.

ـ لقد حذرتك من غضب القاضي؛ لأنه لن يسمح لك بأن تقع في خطأ فاحش، خاصة وأن الخطأ يتعلق بأوامره وهو رئيس، ومعك الصحيفة فاقرأ منها الحكم وقتلي لن يفوتك.

ـ فأخرج الحيوان الصحيفة وأعاد قراءتها بصوت عال، وكان يؤكد على الكلمات كلمة كلمة ليثبت أنه يفهم .. ولما فرغ من قراءتها قال له الأمين:

ـ أفهمت؟

ـ الذي أفعله هو الصحيح وسألقي بكم في النار.

ـ أيها الذئب الحمار: إن القاضي يقول في آخر كلامه . . .

«وإتماماً للعدالة فإننا سنفسح صدورنا لسماعكم بعد تنفيذ الحكم».

فإذا كنت ستلقينا الآن في النار فكيف تتحقق عدالة القاضي الرئيس فيستمع إلينا؛ والاستماع إلينا ضروري لإتمام العدالة؟

ـ بعد تنفيذ الحكم.

ـ هذا صحيح والذي يعنيه القاضي أن نقول ما عندنا فيسجل أولاً ثم بعد ذلك ينفذ الحكم ثم يأمر القاضي بقراءة أقوالنا ويستمع إليها واسع الصدر فيكون بذلك قد أفسح صدره لسماع أقوالنا بعد تنفيذ الحكم إتماماً للعدالة.

ـ فأطرق الذئب الحمار يفكر في هذا الكلام وقد خشي أن يقع في

خطأ فيقتله القاضي، وازداد اضطرابه وتردده في التنفيذ ـ ونظر إلى النار وتخيل أنه سيلقى فيها إذا هو خالف أمر القاضي وأخيراً قرر العودة بالمساكين الثلاثة إلى القاضي يستوضحه الأمر ليتأكد من سلامة عمله.

ولما عاد إلى قاعة المحكمة استأذن فأذن لهم، وكانت المحكمة موجودة بصفة دائمة للنظر في القضايا الهامة.

ولما مثل الجميع أمام القاضي بادره الأمين قائلاً:

ـ أيها الخنزير الكبير: إن هذا الذئب الحمار خالف أمركم.

ـ كيف؟

ـ لقد أمرتم أن تستمعوا إلى أقوالنا بعد تنفيذ الحكم، وهذا الذئب الحمار يرفض أن يسجل أقوالنا لتعرض على مسامعكم بعد إلقائنا في النار، وهذه مخالفة واضحة لأوامركم.

فنظر القاضي إلى الذئب الحمار وقال:

ـ هل هذا صحيح؟

ـ سيدي جئت أستوثق منكم ليكون التنفيذ صحيحاً.

قال الأمين: إن هذا الحمار كان يصر على إلقائنا في النار، ويعرض عدالتكم للشك بعدم تسجيل أقوالنا قبل التنفيذ.

ـ فنظر القاضي إلى الذئب الحمار مؤكداً غباءه في سوء فهم ما يوكل إليه من الأعمال... وما أن أدرك الأمين الغضب في عين القاضي حتى قال:

ـ ثم إن هذا الذئب الحمار أيها الرئيس يقول إنه طالما سمع أوامر على هذا النحو ونفذها كما أراد أن يفعل الآن وإن ذلك كان في عهد رياسة الثعبان الذي كان قبل عهدكم، وحاولت أن أفهمه أن عهدكم

ليس فيه فوضى ولكنه عهد العدالة. فأجابني مدافعاً عن عهد رياسة الثعبان وقال: إن عهد الثعبان لم يكن فيه فوضى. وما إن أتم الأمين كلماته حتى ضرب القاضي الأرض أمامه بكلتا يديه وصرخ في وجه الذئب الحمار والشرر يتطاير من عينيه، وأمر بطرده فوراً ثم وجه حديثه للجالسين قائلاً . . .

إن عهدي هو عهد العدالة ولن أسمح بالفوضى التي كانت تتم في عهد رياسة الثعبان.

فلما أتم كلامه كان الثعبان عن يساره قد امتلأ غيرة وغيظاً وحنقاً على التقليل من شأنه ورمي عهد رئاسته بالفوضى. فانقض الثعبان على الخنزير، وأنشب أنيابه في رقبته وعضه بقوة مفرزاً سمومه القاتلة تسري في الخنزير مسرى الموت . .

وارتمى الخنزير على الأرض يخلص نفسه وتمرغ بقوة هائلة فوق الثعبان وأفلت الثعبان برأسه من تحت الخنزير فتصادف أن هوت يد الخنزير بقوة هائلة من غير قصد على رأس الثعبان فقتله لساعته، ثم ما لبث أن مات الخنزير بسم الثعبان القاتل، وخلى كرسي الرئاسة بموت الخنزير . . فحدث في القاعة هرج عظيم وهجمت الحشرات الآكلة للحوم وهي تشبه الحيوانات في ضخامتها، وأنشبت تأكل لحم الخنزير والثعبان، وكان من عادة هذه الحيوانات أنه إذا وقع أحدها تكالبوا عليه وأكلوه عن آخره . . .

واهتبل الفأر هذه الفرصة فقفز إلى كرسي الرئاسة، وما إن رأت الحيوانات كرسي الرئاسة قد شغل حتى انتظمت في أماكنها بسرعة هائلة . . . .

وأصبح الفأر ليس معه مساعدين، وهو يدرك ضعفه وسط هذا

الحشد .. فعمد إلى الحيلة، وفضل أن يدير شؤون القضاء دون مساعد فأصدر أمره بالوقوف فوقف الجميع، ثم ألقى عليهم درساً يدعوهم فيه إلى طاعته فهو الرئيس الجديد فقد اعتلى كرسي القضاء، ولم يمهلهم كثيراً للتفكير، بل أمرهم بالانصراف إلى أعمالهم فانصرفوا لساعتهم، ووضع حارساً بالباب وأمره ألا يسمح لأحد من الحيوانات بالدخول إلا بعد موافقته . . .

وعين واحداً من هذا الحيوانات منفذاً للأحكام وبقي في القاعة:

الفأر على كرسي الرئاسة.

والمساكين الثلاثة الأمين وهشام وعامر.

ومنفذ الأحكام . .

وحارس الباب . . .

ولما انصرفت الحيوانات إلى خارج القاعة متجهة إلى أعمالها كانت تتحدث عن الحكمة والحزم اللذين استهل بهما القاضي الجديد أعماله وقد بهرتهم سرعته في سيطرته على الحيوانات.

وما أن تم له الأمر بهذه السرعة حتى خطرت له فكرة يدعم بها مكانته، وكان قد أدرك أن الأمر سيستقيم له طالما جلس على الكرسي، فأراد أن يقيم حجاباً مستديماً بين كرسي الرئاسة الذي يجلس عليه الرئيس وبين الحيوانات التي تتطلع إليه وتراودها نفوسها في اعتلائه منتهزة فرصة كالفرصة التي أتت بالفأر من غير تدبير سابق.

فنادى منفذ الأحكام الذي لبى على الفور ومثل بين يديه وطلب منه أن ينقل كرسي الرئاسة إلى الغرفة الداخلية حيث سيدخل الفأر ويتفرغ لإدارة أمور المملكة وهو جالس على الكرسي داخل الغرفة، ثم قال لمنفذ الأحكام سأدخل هذه الغرفة وأقفل الباب على نفسي، وعليك أن

تأخذ أوامري مكتوبة من هذه الفتحة وتقوم بتنفيذها وتضع لي في كل صباح الشكاوى والقضايا التي ترد إلي . . .

وهذه هي طريقتي في إدارة شؤون المملكة، وإن جميع الحيوانات قد جبلت على الطاعة لمن يعتلي كرسي الرئاسة، وسأحتفظ به مصوناً في هذه الغرفة بعيداً عن أيدي العابثين. . .

ـ هل فهمت ؟ . قال ذلك موجهاً حديثه لمنفذ أحكامه. .

ـ نعم سيدي . . .

ـ وإني سأنعم عليك برتبة عظيمة جزاء إخلاصك، فقد كان اسمك قبل اليوم ثعلباً أما اليوم وابتداء من الآن فسيكون اسمك الثعلب الكبير، فإن هذه الرتبة التي أنعمت عليك بها ستجعلك كبيراً. . .

ثم همّ بالانصراف لدخول الغرفة والانفراد بكرسي القضاء وقد انتفخت أوداجه وامتلأ نشوة وفرحاً بهذا النصر السريع، وهو الدارس الفاهم لسلوك الحيوانات جميعاً والعالم بأنها ستسمع وتطيع لكل من يعتلي الكرسي ولو كان فأراً.

وكانت حيلته بإبعاد الكرسي عن متناول الطامحين والطامعين عظيمة جداً، وبخاصة أن الكرسي سيكون داخل غرفة مغلقة فلن يراه أحد من الحيوانات بعد اليوم، حتى أقرب الحيوانات إليه وهو المنفذ للأحكام.

وناداه الأمين قبل أن يهم بدخول الغرفة قائلاً:

ـ أيها الرئيس . . نحن نهنئك ونهنىء أنفسنا بعهدك الجديد الذي يتصف بالحكمة والحزم.

وإن رعايا مملكة الأمير الذين يتشرفون بإدارتكم لشؤون المملكة واثقون من تحقيق العدالة كما نثق نحن كذلك.

والعهد السابق لم يأمر لنا بالطعام والشراب وتركنا جياعاً وهذا لا

يحدث إلا في عهود الظلم ولذلك انتهت نهاية سيئة، وعهدكم الميمون أرفع شأناً من أن يجوع فيه أو يعطش أي مخلوق تظله مملكتكم ولهذا سيكون عمر عهدكم عمراً مديداً.

كما أننا نطلب العدل في التهمة التي وجهها إلينا الخنزير السابق لأنها تهمة باطلة فقد جئناكم للزيارة ولم نأت للتجسس. .

والتجسس عمل يقوم به الكبار، أما نحن كما ترى فما زلنا صغاراً.

ـ فلما سمع الفأر هذا المديح والثناء العاطر على حكمته وعهده . . وبخاصة كلمة ميمون التي قال إنها أعجبته جداً ثم سأل منفذ الأحكام عن معناها فشرحها له.

قال لمنفذ الأحكام: أحضر لهم أطيب طعام وشراب وسأدخل غرفتي وأكتب الحكم على هؤلاء في هذه القضية فخذه واقرأه عليهم ونفذ ما فيه ولا أحب أن تراجعني فيما آمرك به، فإن التردد من طبع الرؤساء السابقين وليس من طبعي هل فهمت؟

ـ نعم سيدي.

ودخل الفأر الغرفة وأغلقها خلفه منفرداً في نظره إلى الأبد بتولي شؤون المملكة ثم ذهب الثعلب يحضر الطعام الذي أمره به لهؤلاء المتهمين.

وخلت القاعة إلا من الثلاثة: الأمين وهشام وعامر فهمس هشام موجهاً كلامه للأمين:

لقد تتبعت حديثك مع هذه الحيوانات فما سمعت حديثاً أمتع وأعظم حيلة مما فعلته. . .

الأمين : يا هشام، لقد أدركت أننا هلكى عندما ساقونا إلى حفرة النار وأيقنت ألا سبيل للنجاة من قبضة هذه الحيوانات، فآثرت أن

أواجهها بشجاعة خاصة، وقد كنت مشفقاً عليكما أنت وعامر لأني أنا الذي دعوتكما، وأحب أن أبذل قصارى الجهد في دفع الأذى عنكما وعن نفسي بالشجاعة فوجدتها سلاحاً عظيماً أخاف الذئب الحمار بعد أن كنت أنا خائفاً.

ثم هذه الحيوانات تعاملنا بعداوة عظيمة ولا ينفع فيها إلا الحيلة التي توقع بينها وتنجينا من شرها.

وما إن أتم كلامه حتى حضر منفذ الأحكام الثعلب الكبير ومعه سلال من الفواكه وقربة ملئت ماء ووضعه أمام الثلاثة فأقبلوا يلتهمون الطعام بنهم عظيم، وبينا هم يأكلون ويشربون كان منفذ الأحكام الثعلب الكبير يتحرك جيئة وذهاباً أمام باب غرفة الرئيس.

وقد ظن الأمين أول الأمر أنه ينتظر ورقة الحكم الخاصة بقضيتهم، ولكن الثعلب الكبير كان يقوم بحركات تنم عن القلق والتفكير العميق إلى الحد الذي جعله يحدث نفسه همساً.. وما زال يتحرك هنا وهناك ويقف كأنه يواجه جموعاً من الحيوانات يخاطبها..

وقد همس الأمين لصاحبيه بالسكوت وملاحظة الثعلب الكبير وهو يحدث نفسه وما لبث أن ارتفع صوته قائلاً:

حقاً إن الحيوانات لا تفكر جيداً، وهذا الفأر الذي استأثر بكرسي الرئاسة بسرعة وبساطة عجيبين بماذا يفضلني .. لا شك أني أفضل منه ولا يستطيع هذا الفأر أن يبلغ منزلتي في التفكير والحيلة والدهاء وأنا أحق منه بمرتبة الرئاسة والجلوس على هذا الكرسي. ولكن من لي بحيلة تخرجه من الغرفة فأدخل وأستولي على الكرسي.. آه .. لقد وجدتها، إنها فكرة بسيطة الفأر يخشى مواجهة الحيوانات وسأخيفه كل يوم من الخروج .. فسيبقى هو في الداخل ويعطيني أوامره من

فتحة الباب فسألغيها وأعطي أوامر من عندي، وتنفذ أوامري أنا، فأنا الذي سآمر الحيوانات ولا حاجة لي حينئذ بكرسي الرئاسة . .

وما إن انتهى من كلامه حتى انفجر ضاحكاً واستمر يضحك قائلاً: يا لغفلة الحيوانات ويا لغباوة الرئيس الفأر.

ونظر فإذا بالقاضي قد أبرز من الباب صحيفة فيها الحكم . . فتناولها الثعلب الكبير وقرأها وأقبل نحو الأمين وهشام وعامر وأمرهم بالوقوف فوقفوا ثم قرأ عليهم أمر الرئيس الفأر وكان يقضي بسجنهم مدى الحياة فكانت صدمة كبيرة فاجأتهم، حيث كانوا يتوقعون حكماً خفيفاً بعد حديث الأمين للفأر . . ولكنه على أية حال أخف من حكم الخنزير عليهم بالموت حرقاً.

ولما همّ منفذ الأحكام الثعلب الكبير باقتيادهم إلى السجن قال له الأمين مستعطفاً:

نرجوك أيها الثعلب الكبير أن تخفف عنا فهذا الحكم قاس.

قال الثعلب: كلا، عليكم تنفيذ أمر الفأر.

قال الأمين : أنت طيب القلب وهذا الحكم لضيوفكم فيه ظلم كبير.

الثعلب الكبير: أنا أنفذ أوامر الرئيس.

الأمين: إذاً فسيعزلك القاضي ويسجنك أنت.

الثعلب: لماذا؟

ـ لأننا سمعناك تحدث نفسك بصوت عال، دون أن تنتبه لما تفعل وذكرت أنك ستغير أوامر القاضي وتصدر أوامر غيرها. ولو عرف القاضي الفأر بذلك لعاقبك أشد العقاب.

ـ أَوَقد سمعتم ما قلت؟ . . .

ـ سمعناه من أوله لآخره.
وهـا أنذا ذاهـب إلى باب القاضي الفأر لأقص عليه ما تضمر نحوه . .
ـ كلا كلا . . أرجوكم، أتوسل إليكم وسأخفف عنكم الحكم ولكن بشرط . .
ـ ما هو؟
ـ أن تقبلوا أول حكم أحكم به.
ـ قبلنا الشرط . .
ـ حكمت عليكم بالخروج من مملكتنا ولكن متفرقين كل واحد من طريق.
ـ نشكرك كثيراً هذا هو العدل الذي انتظرناه طويلاً.
ـ إذن فليودع كل منكم الآخر فقد يطول بكم الطريق.
فلما سمعوا بطول الطريق ساورهم الخوف وبخاصة أن كلاً منهم سيسير منفرداً. وقد أعطوا الثعلب موثقاً ولا يستطيعون تغييره . .
ـ ثم قادهم الثعلب الكبير إلى حيث سيمضون في رحلتهم. وسار بهم في طريق طويل ودخل غرفة مظلمة ثم قال لهم:
انتظروني لحظة واحدة ثم خرج وأقفل الباب، وبعد لحظة أطل عليهم من كوة صغيرة في أعلى الجدار ونظر إليهم وقال:
ـ الآن أنتم في السجن الذي تنفذون فيها الحكم الذي صدر عليكم.
ولا يظن صاحبكم هذا ـ وأشار إلى الأمين ـ أنه أعظم مني حيلة فيجرؤ ويهددني بتبليغ القاضي الفأر ثم اختفى من الكوة والأمين يناديه:

أيها الثعلب الكبير .. أيها الثعلب الكبير ....

ولكن الثعلب كان قد تركهم وذهب إلى حيث ينتظر خارج غرفة الرئيس الفأر، وظل يتحرك جيئة وذهاباً كما هي عادته عندما يفكر في مكيدة.

وأخيراً فضل أن يطلق سراحهم ويتركهم يذهبون، خشية أن يطلع أحد على السر الذي يعرفونه وحدهم وعما عزم عليه الثعلب...

وذهب في اليوم الثاني وقال لهم: سأنفذ ما حكمت به عليكم ولكني أحببت أن ألقنكم درساً لتعلموا أن كل ذي حيلة يوجد من هو أشد منه حيلة ....

والآن هيا حتى تخرجوا من مملكة أميرنا، واقتادهم أمامه خارج السجن وسار بهم في درب أخرجهم إلى مشارف المملكة ووقف الجميع أمام أنفاق عديدة!!

قال لهم الثعلب : الآن فليودع كل منكم الآخر. والتقت عيونهم يفيض منها الدمع لفراق بعضهم بعضاً، وتعانقوا وتصافحوا ودعا كل واحد منهم للآخر بالخير..

أما الأمين فقد اختار له الثعلب النفق الأول.

وهشام دخل النفق الذي يليه وعامر دخل النفق الثالث..

وتراجع الثعلب الكبير قليلاً ثم حرك حجراً أمام الأنفاق فقفلت أبوابها الضخمة على الثلاثة.

وما إن أغلق النفق على الأمين وكان الظلام حالكاً، حتى بدت من بعيد نقط صغيرة مضيئة تقبل نحوه في جلبة عظيمة وضوضاء صاخبة. ثم ما لبث أن اقتربت منه فازدادت وضوحاً ولما دنت منه رآها خيولاً مضيئة وممتلئة قوة وحيوية لا تكاد أقدامها تستقر على الأرض.

وقد امتطى ظهر هذه الخيول رجال تبدو عليهم الغلظة والوحشية..

ولم يمهلوا الأمين فأخذوه وأوثقوه إلى حصانين وربطوا كل رجل من رجليه بحصان وكانوا كثيرين، وتحرك الموكب والأمين يئن بين الحصانين من شدة الألم.. وكان الحصانان يعدوان بسرعة عظيمة يقودهما اثنان من هؤلاء الرجال الغلاظ وكلما مر الموكب الصاخب على جماعة من هؤلاء الفرسان صاحوا تحية لهذا الصغير.

ووصلوا إلى ميدان فسيح امتلأ بهذه الخيول المضيئة ثم أفسحوا الطريق أمام الحصانين اللذين قيد فيهما الأمين.

ووقف عملاق ضخم يستعد لإطلاق إشارة .. كي ينطلق كل حصان في اتجاه فيمزقان الأمين إلى نصفين.

والأمين يصيح بأعلى صوته ولكن أحداً لم يسمعه وضاع صوته وسط صياح هؤلاء الفرسان الغلاظ.

وأطلق العملاق إشارة البدء.

وكانت هذه هي الإشارة الأولى التي يبدأ الجميع بعدها في الرقص حول أنفسهم فرحاً بالاستعداد لتمزيق الفريسة.

ثم أطلق الإشارة الثانية فأخذ هذا الجمع الهائل يصيح صيحة واحدة عالية.. واتجهت أنظارهم جميعاً إلى الأمين وهو مقيد بين الحصانين إذ لم يبق له غير برهة قصيرة وساد المكان صمت شديد في الإشارة الثالثة.

وأطلق العملاق الإشارة الثالثة...

ولشد ما كانت دهشة الجميع حين وقف الحصانان جامدين لا يتحركان.

وبدأ كل من الفارسين العملاقين يلكز حصانه بشدة كي يجري أو

يتحرك ولكن الحصانين لم يتحركا . . .

وأقبل واحد من هؤلاء العمالقة يعدو سريعاً ثم نظر إلى الطريقة التي قيد بها الأمين فوجدها صحيحة . . فقام على مكان مرتفع وصاح بأعلى صوته: إن الطريقة التي قيدت بها الفريسة صحيحة ثم أمر باستبدال الفارسين بفارسين آخرين وأطلقت الإشارات الثلاثة ولكن الحصانين المضيئين لم يتحركا .

ولم يتمكن العمالقة من إجبار الحصانين على الحركة وقد تعاورهما الفرسان جميعاً .

وأخيراً وبعد هذه المحاولات كلها، كان الجميع يتحدثون فيما بينهم عن هذا الأمر العجيب الذي لم يشاهدوا أبداً مثله ولا يعرفون له سبباً وبخاصة أن الخيول المضيئة لا يقف في سبيلها شيء . . وصار الجميع يعتقدون أن في الأمر سراً لا يعرفه أحد وأخذ بعضهم يسأل بعضاً عما يكون هذا السر .

وبلغ الخبر ملك هؤلاء القوم وكانوا يسمونه الدوشيم . . فتعجب كثيراً وأرسل إلى امرأة عجوز وقال لها . . اذهبي إلى هذا الصبي الغريب المقيد بين الحصانين وأخبريني بحقيقة الأمر فذهبت العجوز إلى الميدان ولما وصلت أفسحوا لها الطريق على الفور، ذلك أنهم كانوا يحترمونها ويجلونها . .

أقبلت العجوز على الأمين ونظرت إليه فإذا هو قد أغشي عليه من شدة الألم . . ومدت يديها وفتحت عينيه بإبهاميها ونظرت فيهما طويلاً ثم عادت إلى ملك الدوشيم ودخلت عليه في مجلسه . . ولما مثلت بين يديه وقفت وقالت:

أيها الملك «إن الخيول المنيرة لا تقتل صبياً في قلبه نور» .

وأمر الملك على الفور بالصبي ـ ففكوا قيوده وأحضروه ووضعوه أمام الملك وكان الأمين ما زال مغشياً عليه.

فلما أفاق، وجد نفسه أمام ملك الدوشيم الذي تحيطه حاشية كبيرة من الحراس والوزراء والخدم والحشم ورجال الدولة وأرباب الصولة وكانت المرأة العجوز تجلس إلى جوار الملك على الأرض .. فبادر الأمين الملك قائلاً:

ـ السلام عليك أيها الملك.

ـ تعجب الملك من هذه التحية الغريبة التي لم يسمعها قبل هذه اللحظة ونظر إلى العجوز قائلاً: أهو الذي يطلب لي السلام والأمن في ملكي؛ أم نحن الذين نمنحه الأمن والسلام؟!

قالت العجوز: أيها الملك إنها تحية أهل النور؛ دعاء يتبادله الناس صغارهم وكبارهم، إذا التقوا وإذا افترقوا..

والصبي قدم لك أحلى ما يملك من شعور بأحلى ما عندهم من عبارة ولفظ.

ـ استبشر الملك كثيراً لشرح العجوز وقال لها:

«إذا كان الصبي قد قدم لي مثل هذه الهدية العظيمة فسأعطيه هدايا أعظم مما قدمه لي ولكن بماذا أرد عليه؟»

ـ قالت العجوز: رد تحيتهم أيها الملك هو: السلام على من يلقيها..

ـ فنظر الملك إلى الأمين وقال: السلام عليك.

ـ وتبسم الأمين ابتسامة عذبة فقد شعر أنه مطمئن.

ـ واستمر الملك قائلاً:

ـ ولكن هذا لا يكفي، وأشار إلى خدمه أن يهيئوا الطعام

والشراب . .

وما هي إلا ساعة حتى أحضر الطعام والشراب ودعا الملك جميع الجالسين لمشاركة الضيف الصبي.

ومالت المرأة العجوز فهمست بكلمات في أذن الملك فنظر إليها ثم نظر للأمين وظل يفكر ملياً، ثم قام من مجلسه وأمر الجميع ألا يغادروا أماكنهم. وغاب ساعة أو نحوها ثم عاد .. وجلس على سريره ووقف الجميع ثم قال:

«إن العجوز قد أشارت عليَّ بأن أزوج ابنتي الأميرة الصغيرة (تاتي) لضيفنا الصبي الصغير، وقد وافقت على ذلك حتى يكون للأميرة الصغيرة أبناء في قلوبهم نور».

ثم أصدر الملك أمره إلى أحد وزرائه أن يأخذ الصبي ويعده لهذه المنزلة الكبيرة حيث سيصبح زوج الأميرة الصغيرة. وكان هذا الإعداد يقضي بأن يمضي الأمين أربع سنوات يتدرب فيها على الفروسية ليصبح أقوى الفرسان ثم يعود بعد هذا التدريب الشاق ليتزوج الأميرة تاتي.

ركب الأمين فرساً خلف الوزير الذي كلف بإعداده ومضى في رحلة التدريب. وبعد رحلة طويلة وصلا إلى حلبة الأسود وقال الوزير موجهاً كلامه للأمين:

ـ عليك أن تأخذ هذا الخنجر وتنزل إلى حلبة الأسود وتذبح واحداً منها وتشق صدره وتحضر لي قلبه، فإن قلب الأسد سيكون عوناً لك على كثير من العقبات التي تصادفك . .

ثم أعطاه الخنجر وذهب به إلى حافة الحلبة وكان بها عشرة أسود كبار .. تنظر إلى الأمين بعين الرغبة في الافتراس وهي تروح وتغدو

في نشاط عظيم ويسمع لها زئير متصل ترجف لسماعه الأرض. . .
كما كان لها زمجرة عميقة ترعب سامعيها. .
واقترب الأمين من الحلبة رويداً رويداً، حتى وقف على حافتها وهو ينظـر لهذا الأسود النهمة، ولا يدري ماذا يفعل في هذا المهمة الشاقة، وأيقن أنه هالك لا محالة بين أنياب هذه الأسود التي تنتظر سقوطه . . .
وأظلمت الدنيا في عيني الأمين والخنجر في يده ليست له خبرة في استعماله. وهذه الأسود الكاسرة لا ينفع معها هذا السلاح. .
ومرت برهة صغيرة والدنيا سوداء في عيني الأمين من شدة الموقف.
ولما همَّ الأمين بفتح عينيه كاد يسقط في حلبة الأسود.
والوزير الذي جاء يصاحبه يرى هذا المشهد الرهيب. .
ارتاع الوزير لما رأى وارتد فزعاً لا يقوى على رؤية الأمين بين الأسود، وامتطى صهوة جواده وعاد ليخبر الملك بهذه النهاية المفزعة وكان حزيناً مهموماً كاسف البال. ودخل على الملك وحده ليس معه الأمين ولما دنا منه وقف صامتاً مطرق الرأس وقد اغرورقت عيناه بالدمع.
ولما رآه الملك فزع وسأله ما الخبر . . . أين الصبي؟ وكان يعني الأمين . . ولكن الوزير وقف صامتاً ودموعه تنهمر على خديه واندفع الملك نحوه وأمسكه بكلتا يديه يهزه بعنف ويقول أجبني أين الصبي؟ أين الصبي؟ وأقبلت حاشية الملك ووقفت في ذهول لغضب الملك، وجاءت الأميرة الصغيرة تاتي فلما رأت عودة الوزير وحده وحزنه الشديد أدركت أن هناك أمراً سيئاً قد حدث . . وأن خطيبها الصبي قد

أصيب بمكروه، فأخذت تبكي بكاء شديداً ثم أخذتها أمها بعيداً عن الوزير تهدىء روعها وتخفف آلامها . .

ثم إن الملك أمر الوزير بالجلوس أمامه، فجلس . . وطلب منه أن يروي ما حدث . فقال الوزير:

بينما كنا نسير في رحلتنا لأعلم الصبي الفروسية وفنون الشجاعة والقتال . . .

إذ مررنا بحلبة الأسود الكبيرة . . ولما رآها الصبي وقف ينظر إليها بأنفة عظيمة وكبرياء، وقال لي: إننا في بلادنا ننازل هذه الأسود ونصرعها بسهولة عظيمة، فهل تفعلون أنتم هكذا؟ فلما قلت له إننا لا نستطيع. طلب مني خنجراً وقال لي: انظر إلي فلسوف أنزل إلى هذه الأسود وأقتل أحدها وأحضر قلبه هدية للملك حتى يعرف أننا قوم شجعان.

فصدقته على الفور لما كنت أعلم من أعجوبة الفرسين اللذين رفضا الجري لتمزيقه، فأعطيته الخنجر ووقفت أشاهد ما سيفعله مع الأسود . . .

ثم نزل إلى الأسود . . ولكن . . وانفجر الوزير باكياً . . وصار ينتحب بصوت عال وهو يظهر الحزن والأسى.

فأطرق الملك وأمر بإعلان الحزن في البلاد وجاءت الدوشيم من كل مكان يشاركون الملك حزنه على فقدان الصبي العجيب خطيب الأميرة تاتي . .

ومرضت الأميرة الصغيرة من شدة الحزن ولم يفلح الأطباء في علاجها أو إعادة الابتسامة العذبة الحلوة إلى ثغرها أو البشر إلى وجهها.

ولما علمت المرأة العجوز بما حدث وعلمت بمرض الأميرة الصغيرة طلبت من الملك أن يسمح لها بزيارتها فسمح لها . . ودنت المرأة العجوز من الأميرة الصغيرة وأخذت تهمس في أذنها بحديث طويل . . فأمرت الأميرة الصغيرة كل من كان حاضراً بالخروج فخرجوا. وبقيت الأميرة وحدها مع المرأة العجوز وقالت الأميرة:

ـ أعيدي علي الحديث. فإني أحب أن أسمعه ونحن الآن وحدنا . . فهيا .

قالت العجوز:

وهنا نترك العجوز تتم حديثها مع الأميرة تاتي ونتابع هشاماً في رحلته.

دخل هشام النفق الثاني وأغلق عليه الباب، وما إن أغلق الباب حتى زلت قدمه وسقط على أرض لزجة منحدرة واندفع بسرعة عظيمة وهو يتزحلق كأنه على منحدر من الجليد.

ومن الغريب أنه شعر كأن الهواء يجذبه بشدة لا يستطيع لها مقاومة. .

وحاول أن يوقف نفسه فمد يديه حوله في كل اتجاه ليمسك بشيء يحول دون انزلاقه ولكنه لم يجد فأخذ يصرخ بصوت عال فدوى رنين مخيف في النفق لانبعاث صدى الصوت من كل مكان. واشتد به الانحدار اشتداداً عظيماً زاد من سرعة اندفاعه. .

وأخيراً شعر بأنه يسقط في الهواء وأيقن أنه هالك لا محالة.

وارتطم هشام بالماء ولم يكن يعرف السباحة والظلام يسود المكان وظل يغوص في الماء ويطفو وهو يقوم بحركات عشوائية لم تنفعه في السباحة وبلغ منه الإجهاد مبلغاً عظيماً وغاص إلى القاع وجوفه يمتلىء

بالماء قليلاً قليلاً وابتلع الكثير منه على غير إرادة منه أو رغبة.

ووصل المسكين إلى القاع الصخري المسنن بين النباتات المائية الكثيفة وأيقن بالموت مرة ثانية.

وحضرت ذاكرته في هذه اللحظة حادثة قديمة فقد تذكر كل شيء في حياته منذ وعى هذه الدنيا حتى سقوطه وغرقه في الماء.

مر ذلك أمامه في لمحة خاطفة كأنه عرض سريع لأعماله قبل الموت . .

واستسلم المسكين لهذه النهاية وكان قد تجاوز رؤوس النباتات المائية متجهاً إلى القاع، وما أن اصطدم بالصخر حتى حدث هدير عظيم ودوي هائل للماء تبتلعه الأرض وما هي إلا لحظة حتى كان الماء كله قد تسرب في جوف الأرض وكشف الماء عن نباتات عجيبة؛ سيقانها وأوراقها وأعوادها أضاءت بانحسار الماء عنها فبدت غابة عظيمة من نباتات وأشجار وأزهار كلها تتلألأ بالنور والضياء . .

وبهر هذا المنظر الساحر عيني هشام وأخذته الدهشة واستبد به التعجب من روعة ما تراه عيناه . . وقام يفرغ الماء الذي ملأ جوفه من فمه ثم حملق فيما يحيط به دهشاً . . وكانت الغابة كثيفة . .

ثم صعد مرتفعاً قريباً منه وكان المنظر يزداد في عيني هشام سحراً . . وجعل ينظر يميناً ويساراً يبحث عن مخرج فما وجد إلا امتداداً للنفق العظيم الذي تقع فيه هذه الغابة . . فاتجه نحوه وحرص أن يبقى بجانب الغابة تفادياً لأغصانها المتشابكة . . ولحظ أن بعضاً من هذه الأشجار كانت تحمل نوعاً من الثمار مكوراً يشبه القرع خفيف الوزن شديد الصلابة . . لا يصلح للأكل . . ومضى في طريقه إلى امتداد النفق فمر بجوار غدير من الماء ما لبث أن اتسع قليلاً قليلاً حتى أصبح

نهراً يمضي إلى داخل النفق الكبير ووقف هشام لا يعرف ماذا يفعل - ثم خطر له أن يصنع عوامة من أغصان الأشجار يمضي بها في هذا النهر عله يجد مخرجاً . .

وكان توفيقه عظيماً في عمل عوامة من فروع النباتات المضيئة ومن النبات المكور الذي يشبه القرع. وقد استعان على ربطها بألياف النباتات البحرية المتسلقة . .

وكان فرحه بهذه العوامة المضيئة كبيراً ثم هيأ مجدافاً من فروع الشجر.

وأنزل العوامة إلى النهر وركب فوقها وأخذ يمشي مع النهر . . عوامة كأنها نسجت من نور تحمل هشاماً وتمضي به في النهر كأنه زورق الأحلام في رحلة الخلود، ولم يقلل من روعة المنظر إلا خوف هشام من المجهول . . .

مضى هشام بعوامته مع تيار الماء . . ثم رأى وهو يسير كومة من البيض الكبير على قطعة ضيقة من شاطىء النهر . . فاتجه نحوها ثم نزل وأمسك ببيضة وكسرها ثم شربها وكان الجوع قد بلغ منه مبلغاً عظيماً . . ولم يكن طعمها شهياً ولكن الجوع جعله يتقبل أي شيء بشهية كبيرة . . وظل يأكل من البيض حتى شبع وأخذ ما بقي من بيض معه في العوامة ليأكله إذا جاع ثم سار بالعوامة، وبعد قليل كان تيار الماء يشتد . . وفجأة شاهد حيواناً يشبه التمساح يسبح خلفه بسرعة وهو يصيح بصوت كأنه فيل مصاب، فما لبث أن ظهر بندائه كثير من هذه الحيوانات تسبح في سرعة نحو عوامة هشام . . وتيار الماء يشتد فيدفعه بقوة . . وفزع هشام لما هو فيه والعوامة تزداد اندفاعاً وفجأة رأى النهر ينحني انحناءة كاملة حيث يسقط الماء في

شلال عظيم فأصبح من المحتم عليه أن يقطع بالعوامة هذه الانحناءة ثم يسقط في هذا الشلال العظيم وهو مندفع بعوامته ولا سبيل إلى إيقافها . . بينما والحيوانات التي تشبه التماسيح تجري خلفه في سرعة عظيمة.

وهو لا يجد لنفسه مخرجاً فالشلال أمامه والحيوانات خلفه وهو لا يعرف السباحة، ووصلت العوامة إلى طرف الشلال عندما لحق به حيوان منها . .

وفتح الحيوان فمه وأمسك بطرف العوامة، وسرعان ما لحقت به الحيوانات الأخرى وهجمت على البيض وأخذ كل حيوان منها بيضة في فمه وهشام يتأرجح في عوامته موشكاً على السقوط وقد أدرك أن الحيوانات تبعته لتنقذ بيضها.

ولما استعادت الحيوانات بيضها أفلتت العوامة من فم الحيوان الذي أمسك بطرفها . . وقبل أن تميل مع الماء ساقطة في الشلال هجم واحد منها على هشام وكان بادي الغضب وفي سرعة خاطفة أفرز سائلاً من فمه ونثره على هشام وهو يضربه بذيله ضربة قوية، فسقط في الماء ثم شعر بأن أمراً غريباً قد حدث له، فقد تحول حيواناً مثل هذه الحيوانات التي تشبه التمساح وأصبح بصره قوياً حاداً وجسمه كبيراً وفمه أصبح متسعاً وقد مليء بالأسنان وأصبح له ذيل مثل ذيل التمساح وأرجل قصيرة. وأصبح قادراً على السباحة فسبح بسرعة بعيداً عن الشلال حتى لا يسقط فيه ولكن الحيوانات تكاثرت حوله وأمسكت به وعادت إلى حيث أكل البيض. وحاول هشام أن يتكلم ولكنه لم يعد قادراً على الكلام فقد صار تمساحاً.

وقف هشام حيث كان يأكل البيض وأحاطت به الحيوانات من كل

جانب . . وكانت لغتها غريبة فقد كان هذا الجمع أشبه ما يكون بمحكمة عقدت لمحاكمة هشام. لأنه اعتدى على البيض وأكل أربعاً منه . .

وقد أعلن كبير هذه الحيوانات أنهم حولوا هشاماً إلى حيوان منهم يعمل في هذا النهر خادماً مدة أربع سنوات مقابل الأربع بيضات ثم يزول مفعول هذا السائل من تلقاء نفسه بعد قضاء هذه المدة ويرجع كما كان إنساناً . .

فاستسلم وأدار وجهه نحو النهر وغاص في الماء ليعمل خادماً طوال أربع سنوات.

وكان عليه أن يقوم بتنظيف قاع النهر من الحصى والأحجار ثم يردم فجوات فيها بالرمل الناعم يجلبه من أماكن بعيدة حتى يجهز وسائد من الرمل تستريح عليها هذه الحيوانات في رقادها.

وقد أكسبت هذه المهمة الشاقة خبرة عظيمة في دراسة جميع المنافذ التي تجلب الماء إلى النهر وكان الكثير منها أشبه ما يكون بالأنفاق المتفرعة تحت الأرض.

وخبر الأسماك وأنواعها وعاداتها فكانت طعامه الذي يتغذى عليه وحفظ النباتات والأعشاب المائية التي تنمو في قاع الأنهار وعرف الحيوانات المائية وعاداتها والحشرات التي تسكن الماء.

وقامت بينه وبين الضفادع صداقة متينة فقد كان لا يؤذيها، وشاع بين الضفادع أن خادم النهر صديق الضفادع . .

وقد تعود على حملها والسير بها مسافات طويلة من النهر وكان ذلك يسعد الضفادع كثيراً كما يدخل عليه شيئاً من الأنس، وقد تعودت الضفادع أن تأتيه كل يوم وتقص عليه الأخبار والأحداث التي تجري

في طول النهر وعرضه وعلى شواطئه وفي روافده ـ فكان يزداد كل يوم علماً جديداً بمسالك الماء، وقد كلف أصدقاءه من الضفادع أن يأتوه بأخبار المسالك التي تصل هذا النهر بدنيا الإنسان وكانت الضفادع تنشط كثيراً لتقدم أنباء المسالك لخادم النهر المخلص.

وفي يوم جاءه ضفدع صغير وأخبره خبراً عجيباً ـ وقفز الضفدع الصغير على رأس هشام حارس النهر، وانطلق هشام يسبح بأقصى سرعة والضفدع يدله على الطريق الذي جاء، وقد سلك به الكثير من مجاري المياه والقنوات في طريقهما صاعدين إلى منابع النهر حتى دخلوا من خلال نفق ضيق إلى النهر الكبير الواسع الذي تنساب مياهه في مغارة عظيمة الاتساع، ثم أشار الضفدع جهة الشاطىء المقابل فلما وجه حارس النهر هشام نظره إلى حيث يشير الضفدع الصغير إذا به يرى أمراً عجباً. . .

وهنا نترك هشاماً حارس النهر مع الضفدع الصغير ثم نتابع عامراً في رحلته. .

أقفل النفق على عامر .. فأدار وجهه نحو الباب وظل يطرقه وينادي الثعلب :

أيها الثعلب الكبير لا تتركني هنا دعني أذهب مع أصحابي .. لا تتركني وحدي ولكنه لم يسمع جواباً وأدار وجهه نحو النفق ورأى ضوءاً خافتاً من بعيد . فمشى يتحسس خطاه في الظلام، ودخل في أرض موحلة وظل ينقل قدميه بصعوبة كبيرة ثم سقط على الأرض وكلما هم بالوقوف سقط مرة ثانية، فأخذ يزحف على يديه ورجليه وكانت الأرض كلها مغطاة بالوحل الرطب، ولم يتمكن عامر من الخروج بعيداً عن الوحل. وبينما هو يحاول جاهداً أن يتقدم في زحفه

دون جدوى إذ رأته مجموعة من صغار الكابوريا .. ولكنها كبيرة الحجم فأقبلت نحوه في سرعة وهجم أحدها على عامر وأمسك بملابسه وأخذ يجره وعامر ينزلق على الأرض. ثم جاء آخر وأمسكه من رجله وأخذ يجره ناحية أخرى ووجد عامر نفسه بعد لحظة صغيرة بين صغار حيوان الكابوريا تلعب به وتجره في كل اتجاه في الوحل، وهو لا يستطيع مقاومتها أو إيقافها وفجأة تركته وهربت ولم يعرف سبباً لهروبها..

وكان من حسن حظه أن أصبح قريباً من نهاية الأرض الموحلة نتيجة للعب صغار الكابوريا به .. وظل يجاهد زحفاً حتى لامس الأرض الصلبة .. وجلس يستريح من عناء الجهد. وقد غمر الطين وجهه ورأسه وملابسه . ثم مضى في طريقه إلى حيث يرى الضوء الخافت واقترب منه على حذر وتهيب شديد ثم رأى كهفاً ينبعث منه هذا الضوء واقترب منه بهدوء.

فشاهد رجلاً عجوزاً وامرأة عجوزاً يجلسان إلى كومة من النار الخافتة عليها قدر صغير .. فلما حياهم عامر نظر إليه الرجل ودعاه للدخول ولم تبد عليه ولا على زوجته آثار الدهشة لاقتراب عامر منهما.

دخل عامر الكهف وجلس بالقرب من الرجل الذي قام وعاد ومعه دلو مملوء بالماء، أعطاه لعامر كي يغتسل وامرأته تنظر إليه نظرة الإشفاق.

قام عامر وتوارى خلف صخرة في الكهف يغتسل ويزيل الطين من ملابسه.

وسمع صوت الرجل يقول له:

خذ هذا يا ولدي وأعطاه إزاراً يلتف به.
تناول عامر الإزار شاكراً وغسل ثيابه الموحلة وتركها تجف..
واقترب من الرجل وزوجه وجلس بجوارهما صامتاً لا يتكلم..
وناوله الرجل العجوز إناء به بعض الطعام مما كان في الدار وكان عامر يشعر بالجوع الشديد .. فأكل .. وهو لا يدري ما الذي يأكله ويمنعه الحياء أن يسأل الرجل...
وقال له الرجل العجوز :
يا بني إذا أتممت أكلك فقم واسترح على هذا الفراش، وأشار إلى فراش في جانب من جوانب الكهف. واستغرق عامر في نوم عميق وكان التعب قد بلغ منه مبلغاً عظيماً.
ولما أفاق في اليوم التالي وجد الرجل وزوجه على حالهما لم يغيرا مكانهما بجانب النار. والنار على حالها .. وكذلك القدر..
قدم الرجل الطعام كذلك لعامر .. وتناوله عامر كذلك صامتاً لا يتكلم والرجل وزوجه لا يتحدثان . ثم قال العجوز:
تستطيع يا بني أن تخرج إلى الأرض حولنا فتنظر إليها كيف شئت .. وعد إذا احتجت إلى شيء..
قام عامر وخرج وهو ملتف بالإزار حول وسطه وصدره عار لا يغطيه شيء.
ومضى يجول هنا وهناك باحثاً في صمت عن مخرج ولما عاد وجد كل شيء على حاله لم يتغير !! الرجل وزوجته والنار والقدر .. ولم يفطن أول الأمر إلى شيء غريب !! واستمر على هذه الحال عدة أيام.
ثم قال له الرجل العجوز:
يا بني أنصحك بأن تتركنا سريعاً فإننا كما ترى لا نستطيع مغادرة

هذا الكهف لأننا حبيسان بأمر القرد .. ملك هذه البلاد .. ومنذ أن دخلنا هذا الكهف فإننا لا نستطيع الخروج .. ولسنا مثلك .. وأخشى أن يعلم الملك القرد بوجودك .. فيدهنك بشحمه ويحبسك كما فعل معنا..

فأسرع يا بني واخرج من هذه البلاد ...

أسرع .. يا بني وصحبتك السلامة ...

فشكره عامر ودعا له بخير وخرج مسرعاً وكان في تجواله قد رأى طريقاً رجح أن يكون طريق الخروج فسلكه وهو يجري حتى خرج من هذه البلاد سريعاً..

وبينما كان يعدو .. كان القرد الملك يجلس في جانب الطريق على بعد .. وهو يراقب عامراً يقترب منه ودنا عامر من القرد والقرد الملك يتحفز للإمساك به ...

وظهر فوقه طائر عظيم ثم انقض هذا الطائر بسرعة عظيمة على عامر .. وهو لا يدري..

فقد راع عامراً أن يفاجئه القرد الملك أمامه ويأتيه منقضاً عليه ..

ويتمكن الطائر من خطف عامر كفريسة شهية.. ويفشل القرد الملك من انتزاع عامر من الطائر الذي جاوزه بمسافة بسيطة وظل ينظر إليه حانقاً وهو يعدو خلفه لعل عامراً يسقط من مخالب الطائر فيلتقطه القرد .. ولكن الطائر كان يقبض على عامر بمخالب قوية .. وهو مستمر في طيرانه .. وكان متجهاً إلى عشه كي يتغذى بهذا الصيد السمين.

وصل الطائر إلى عشه أعلى الجبل ووضع عامراً بين مخالبه وهم - بمنقاره الحاد المعقوف - أن ينقره لالتهامه فأدخل عامر إصبعه في عين

الطائر بكل قوة ففقأها . . وصرخ الطائر وترك عامراً على الجبل وطار بعيداً عنه وهو لا يكف عن الصراخ . .

وترك عامر قمة الجبل متجهاً إلى سفحه بسرعة كي يحتمي بالصخور خشية أن يعود إليه الطائر ولكنه لم يعد . واستمر يجري مسرعاً في طريقه وهو يتنقل بين الصخور ليحتمي بها وسمع من بعيد صوت الماء يهدر بشدة . . ولما اقترب رأى نهراً كبيراً ينساب بين هذه الصخور . . وتبعه عامر علّه يقوده إلى مخرج وكان يجلس للراحة بين الحين والحين على شاطىء النهر . . يأكل بعض النباتات التي يستسيغها، واستمر في سيره أياماً حتى وصل إلى منطقة يفيض فيها النهر على جانب من جوانبه فيكثر فيه السمك، وعنّ لعامر أن يقيم في هذه البقعة ويتخذها مركزاً له ينطلق منه ليبحث عن مخرج من كل اتجاه.

وقد تصادف أن كانت الأشجار العالية المتفرعة تكثر فيها . . فاختار مجموعة من هذه الأشجار وأعد لنفسه على قمتها مسكناً صغيراً يأوي إليه . .

وقد شعر في هذا المكان ببعض الأمن والطمأنينة . . فالماء متوفر والسمك يملأ المكان وهناك مسكن بسيط له في أعالي الشجر يأوي إليه كلما أراد الراحة . .

وأمضى على هذه الحالة فترة من الزمن . . .

وفي يوم من الأيام كان عامر بجوار النهر يصيد السمك بكلتا يديه، وفجأة جفلت عيناه عندما رأى حيواناً غريباً يشبه التمساح يقبل نحوه سابحاً في النهر، ولم يكن هذا الحيوان إلاّ صديقه هشام . . الذي جاء به الضفدع الصغير إلى هذا المكان . . وأقبل هشام فرحاً مسروراً برؤية

صديقه عامر . . وظن أن عامراً سوف يرحب به ولكن عامراً ولى مدبراً يسرع الخطى وهو يبتعد عن صديقه هشام التمساح وكان هشام يحاول أن يحادثه وينادي عليه وكلما فتح فمه لا يقدر على الكلام وتبدو أسنانه كثيرة فيخاف عامر ويبتعد عنه . .

وصعد عامر فوق صخرة عالية ينظر إلى الحيوان التمساح . . واقترب هشام من الصخرة وهو يأمل أن يعرفه بحقيقة نفسه ولكن عامراً تناول حجراً ورماها على رأس هشام فأصابته في رأسه . . وازداد هشام قرباً من الصخرة الكبيرة، ولكن عامراً ظل يقذفه بالحجارة . .

والحجارة تسقط على رأسه فتؤلمه ألماً عظيماً . . ولما يئس من إفهام عامر بحقيقته أدار وجهه نحو النهر . . ومشى إليه حزيناً . . متألماً . . يذرف الدمع غزيراً ساخناً من شدة الحزن . . وقبل أن يغوص في الماء جاءه حجر كبير في رأسه ليزيد من آلام جسمه على آلام نفسه . . وأخذ الضربة ثم غاص في الماء. وظل يغوص حتى وصل إلى القاع، وقد استبد به الحزن وزاد عليه الهم وهانت عليه نفسه فتمنى أن يموت أو تبتلعه الأرض، واستغرق في نوم عميق . ثم أفاق وقد ارتاحت نفسه بعض الشيء من أثر الصدمة الكبيرة. ثم صعد على سطح الماء وظل ينظر إلى صديقه عامر من بعيد وكان يحب عامراً كثيراً ولكنه لا يجد سبيلاً إلى التقرب إليه . .

فخطر له أن يقوم بعمل يقربه من عامر، فكان كل يوم ينتظر حتى يصعد عامر إلى عشه فوق الشجر ويأوي إلى فراشه لينام، ثم يخرج في هدوء مقترباً من الشجرة ويضع عندها قرعة كبيرة وقد ملأها بأشهى أنواع الأسماك، ثم يمضي بعيداً ويرقب عامراً عندما يأخذها كل يوم . .

وقد تعجب عامر كثيراً من وجود هذا السمك اللذيذ الطعم كل يوم

تحت عشه .. وحاول أن يعرف من الذي يأتي له بهذا السمك الشهي، ولكنه لم يستطع حيث كان هشام يأتيه بالسمك وهو نائم.

وأخيراً قرر أن يراقب المكان جيداً وينظر كيف يحدث هذا الأمر، واختفى خلف شجرة كبيرة ولم تغفل عيناه ..

وأخيراً رأى التمساح يخرج من الماء بهدوء ومعه السمك ويأخذ من الاقتراب من مكان عش هشام ثم يضعه ويعود إلى النهر.

وقد أثار هذا الفعل الفضول في نفس عامر وصار كل يوم يراقب التمساح وهو يأتي له بالسمك يضعه في مكانه ثم يعود إلى النهر في هدوء.

وخرج عامر من وراء الشجرة ذات يوم وانتظر بجوار المكان الذي اعتاد التمساح أن يضع فيه هديته .. وكان يجلس القرفصاء يفكر في هذا السلوك الغريب للحيوان وجاء هشام كعادته في هدوء ورأى عامراً مستيقظاً ينتظر. ثم تقدم كعادته ووضع السمك بين يديه ورفع إليه بصره يريد أن يفهمه بعينيه ووقف صامتاً لا يستطيع أن يتكلم.

مد عامر يده بهدوء ووضعها على رأس الحيوان التمساح وأخذ يربت عليها وهشام يرفع برأسه ليستزيد من ملامسة يد عامر الحانية .. وقد شعر عامر بأن له صديقاً بعد الوحدة الطويلة...

وكانت نشوة الفرح عظيمة جداً عند هشام، وأخذ يعدو إلى النهر ويسبح على سطح الماء ويريه مهارته في السباحة ويعرض قفزاته الرشيقة ليدخل السرور على قلب عامر، ثم يعود إليه سريعاً ليقف بين يديه ينعم بملامسة يد عامر لرأسه...

وتوطدت صداقة متينة بين التمساح وعامر فقد كان يركب كل يوم فوق ظهره . لينتقل في النهر حيث شاء .. ويقوم التمساح بحراسة

صديقه عامر إذا نام .. واستمرت هذه الصداقة بينهما شهوراً عديدة وعامر يتعلم كثيراً في جولاته العجيبة في النهر راكباً على ظهر التمساح الحميم..

ونترك عامراً يقضي أطيب الأوقات مع صديقه الحميم هشام لنرى الأمين بعد أن تركناه وقد فتح عينيه وهو يسقط في حلبة الأسود والوزير يقف من ورائه بعيداً عنه لا يريد الاقتراب حتى يرى نتيجة مكيدته. وبينما كان يهوي علق طرف جلبابه في بروز حاد لبقية من جذع شجيرة كان تحت قدميه وتدلى الأمين في الهواء معلقاً .. وسقط الخنجر من يده ليدخل في فم أكبر هذه الأسود حجماً ويرشق في حلقومه مستعرضاً ـ وهز الأسد رأسه بشدة محاولاً إخراج هذا الشيء الغريب الذي دخل حلقومه ولكن الخنجر غاص في حلقومه قاطعاً أوداجه . وظل الأسد يصرخ صراخاً عظيماً يهز به جنبات المكان ويقفز هنا وهناك والدم يسيل من فمه غزيراً واستمر على ذلك فترة طويلة جعلت الأسود تولي هاربة لما رأت ما أصاب الأسد الكبير، واستمر الدم ينزف من فم الأسد .. وأخيراً خارت قواه .. وسقط على الأرض هامداً .. ثم مات .. كل ذلك والأمين يتأرجح معلقاً من جلبابه الذي أخذ يتمزق قليلاً قليلاً .. ثم أفلت من بروز الشجرة وسقط .. ولم يصب بسوء فكانت الأرض تحته لينة .. وقام في هدوء وهو يخشى أن تطلع عليه بقية الأسود ولكنها كانت قد اختفت واقترب الأمين من الأسد الكبير .. وتأكد من موته ثم فتح فمه ووضع قطعة من فرع شجرة لتبقي فم الأسد مفتوحاً .. ومد يده بهدوء إلى بلعوم وأخرج الخنجر بصعوبة كبيرة .. ثم وقف وهو ينظر إليه متعجباً لما حدث ثم انصرف محاولاً أن يتسلق جوانب الحلبة صاعداً ..

ولكن فكرة طرأت عليه فعاد مسرعاً نحو الأسد الميت . . وشق صدره بعد مجهود كبير وأخرج قلبه وعاد به والفرح يغمره فقد أوصاه الوزير بأن قلب الأسد سيكون مفتاحاً لكثير من الصعاب التي تصادفه، وها قد حصل عليه وبلغ من شدة فرحه أن همته ازدادت وتسلق جوانب الحلبة مستعيناً بما فيها من نتوءات . . ولما صعد لم يجد الوزير فأخذ ينادي عليه هنا وهناك ولكنه لم يحظ بالجواب ففضل أن يعود إلى ملك الدوشيم بعد عدة أيام . . وبينما كان الملك يجلس وبجواره ابنته الأميرة تاتي . . وعدد كبير من الزوار ومنهم الوزير إذا بهم يفاجأون بالأمين يدخل عليهم، فهب الملك واقفاً ووقف الجميع . . والأمين يمشي نحو الملك حتى وقف أمامه وقال:

ـ السلام عليكم ورحمة الله.

ورد الملك التحية، وهو لا يكاد يصدق عينيه . . .

ـ وعليك السلام، مرحباً بك . . حللت أهلاً ونزلت سهلاً.

وعندئذ قدم الأمين للملك قلب الأسد. فقال الملك ما هذا . . فرد الأمين:

ـ قلب الأسد الكبير . .

ـ فنظر فيه الملك وعرفه لساعته فقد كان يعرف قلب الأسود . . وصاح الملك:

جاءنا الأمين بقلب الأسد . . فأقبل الوزير مسرعاً ينظر فرأى بعينيه أن الأمين جاء بقلب الأسد.

وحدثت حركة سريعة في القصر وكانت تاتي تنظر إلى الأمين بشوق عظيم وأكبرته جداً لشجاعته العظيمة.

وأخذ الوزير يقبل الأمين أمام الملك مظهراً فرحه وسروره . .

وأمر الملك بإعداد موكب له ليصحبه الأمين في جولة تطوف به على الناس إعلاناً للفرح بعودة الأمين البطل سالماً وكذلك بشفاء الأميرة الصغيرة تاتي بمجرد رؤيتها للأمين.

وأخذ الدوشيم يعدون موكباً عظيماً .. وينشرون الفرح في كل مكان ..

وذهبت الأميرة تاتي مسرعة إلى العجوز تشكرها كثيراً فهي التي أخبرتها عندما خلت بها بأن الأمين لن يصاب بأذى وأنه سيعود إليها سالماً .. ولكنها أمضت هذا الوقت قلقة لما كان الوزير قد قصه عليهم ...

خرج الأمين في صحبة ملك الدوشيم يطوفون أنحاء البلاد وسط موكب عظيم، وذلك فرحاً بعودته سالماً . وقال الملك للأمين :

ـ لقد كنت أوصيت الوزير أن يعنى بتدريبك على الفروسية وفنون القتال مدة أربع سنوات تنتهي بأن تكون قادراً على قتل أكبر الأسود وإحضار قلبه دليل شجاعتك فيتم زواج ابنتي الأميرة تاتي .. بفارس شجاع .. ولكنك بدأتنا بإحضار قلب الأسد الكبير لذا سنعجل بزواجك من الأميرة تاتي .. وهذا الفرح الذي ترانا عليه الآن هو إعلان لهذا الزواج..

قال الأمين:

أيها الملك إن خير ما يضاف إلى الشجاعة هي صفة الوفاء .. وأحب أن أكون وفياً كما أكون شجاعاً ..

ـ وما يمنعك من ذلك؟

ـ علي دين أحب أن أقضيه..

ـ قال : نحن نسدد عنك دينك.

ـ أيها الملك إن الدين الذي يلزمني ليس مالاً.
ـ ماذا يكون إذن؟
ـ قال الأمين: «إن لي صديقين خرجا معي في هذه الرحلة وضلا طريقهما ونأى كل واحد منهما عن الآخر ويساورني عليهما قلق كبير وليس من الوفاء أن أنعم هنا بسعادة عظيمة وصديقاي يعانيان الشقاء..
قال الملك : وما تريد؟
ـ أريد أن أخرج للبحث عنهما علني أعثر عليهما ثم أعود.
ـ فتعجب الملك من قوله وازداد به تعلقاً لما رآه من روح الوفاء والإخلاص، وقال:
ـ دونك ما تريد يا أمين . وسلني بم أساعدك؟
ـ أريد فرساً يعينني على السفر وسيفاً ماضياً أدفع به الشر.
ـ قال الملك : لك «التوتان» أعظم فرس يركب الفرسان وأعز ما عندي يجوب بك الفيافي والقفار أما السيوف فهي في ردهة الزوار لك منها ما شئت وأنصحك بالبتار.
ـ وشكر الأمين الملك وأخذ السيف الذي نصحه بأخذه ولوح به ذات اليمين وذات الشمال وسمع صوت السيف يشرح الهواء مؤكداً مضاءه وقوته على سرعة البتر ... وجرى الأمين حتى وصل إلى «التوتان» وقفز فوق ظهره .. وأمسك بزمامه ووكزه فانطلق يخطر به هنا وهناك ويعدو ذات اليمين وذات الشمال .. وكان الأمين يجرب «التوتان» وقدرته على الركوب .. فوجده عظيماً .. وقد أعجب الملك جداً بمهارة الأمين في قيادة «التوتان» وقال لمن حوله ما رأت عيناي قط فارساً يمتطي صهوة جواده بمثل هذه المهارة التي أرى بها الأمين فوق «التوتان»..

فقالت العجوز وكانت بجوار الملك:
ـ أيها الملك إنها قدرة أهل النور عندما يركبون خيول النور . .
ـ وقام الأمين يتبختر فوق «التوتان» ووقف أمام الملك . . وقدم له الشكر . . على هديته العظيمة وأمر الملك بتحضير الزاد من الماء والغذاء للأمين الذي ودع الملك وجلساءه وداعاً حاراً، وقبل أن ينطلق في رحلته باحثاً عن صديقيه قال : «بسم الله، على الله توكلت».
وانطلـــق «التوتان» بـه كالسهم يجوب الأرض باحثاً عن هشام وعامر . . .
قطع الأمين مسافة كبيرة قبل أن يغادر مملكة الدوشيم . . وكلما مر على جماعة منهم لوحوا له بأيديهم يحيونه و«التوتان» مندفع به يطوي الأرض . ولما كاد الأمين يخرج من مملكة الدوشيم قال الوزير للملك:
ـ إني أخشى على الأمين زوج الأميرة تاتي أن يصيبه في هذه الرحلة الشاقة مكروه وكنت أود أن أصاحبه في هذه الرحلة للمحافظة عليه . .
ـ كنت أود أن أونسه بدلاً من أن يسافر وحيداً وأطمئنك عليه.
فوجدها الملك فكرة طيبة فأذن له بالسفر ليلحق بالأمين، وأخذ الوزير يتجهز للحاق بالأمين، وبينما كان الأمين يعدو «بالتوتان» خارجاً من مملكة الدوشيم إذا به يرى طائراً يحوم حوله في سرعة، ثم ما لبث الطائر أن حط على رأس «التوتان» وأخرج رسالة كانت مربوطة إلى رجله وقدمها للأمين بمنقاره ففضها لقراءتها فإذا هي رسالة من الوزير جاء فيها:
«أيها الأمين إن الملك رأى أن أصاحبك في رحلتك فإذا جاءتك رسالتي فانتظرني حتى ألحق بك».

نزل الأمين من فوق «التوتان» ليستريح وأقام مكانه ينتظر قدوم الوزير وأخذ «التوتان» يسرح هنا وهناك يأكل بعض الأعشاب . . .

ولما قدم الوزير فوق حصانه وقف بعيداً خلف بعض الأعشاب يرقب الأمين وحصانه وانتهز فرصة ابتعاد «التوتان» فاقترب نحوه يسير على قدميه بهدوء . . وتمكن من اقتياده بعيداً وأدخله في كهف قريب وأحكم رباطه من مقوده، كما ربط ساقيه الأماميتين حتى يعوقه عن الحركة . . وخرج مسرعاً ليمتطي صهوة جواده ويتجه نحو الأمين . . ولما دنا منه حياه وقال:

ـ خشيت ألا ألحق بك فأكون قد خسرت صحبتك . .

ـ فأعلمه الأمين بتسلم الرسالة وأظهر له تعجبه من براعة الطائر في أداء مهمته.

ـ وقال الوزير: إن هذا هو الجنداب طائر يؤدي لنا أجلّ الخدمات في توصيل رسائلنا العاجلة. . وسيأتينا بين الحين والحين بالرسائل من الملك ويعود برسائلنا إليه. . فهيا بنا . .

ـ فقام الأمين يبحث عن «التوتان» فلم يجده وشاركه الوزير في البحث عنه . . وظلا يبحثان عنه هنا وهناك حتى يئس الأمين من العثور عليه . . فجلس مطرق الرأس حزيناً يفكر كيف فقد «التوتان» العزيز، وأظهر له الوزير الحزن على فقدانه. . .

وقال للأمين:

ـ هيا بنا نواصل الرحلة على فرسي فهو قدير .

ـ قال الأمين : أفضل العودة إلى الملك وأخبره بفقدان «التوتان».

ـ لا تفعل.

ـ ولم؟ . .

ـ إن فقده سيغضب الملك كثيراً وسيعرف بأنك لست أهلاً للمحافظة على هدايا الملوك.
ـ ولكني سأقص عليه حقيقة ما حدث..
ـ إن ملك الدوشيم يتشاءم من الذين يفقدون هداياه .. والرأي عندي أن نرحل بحثاً عن صديقيك علنا نعثر على «التوتان» في الطريق أو نجد رأياً حسناً نخبر به الملك عن فقدان «التوتان» دون أن يغضب أو يتشاءم من الخبر.

فوافق الأمين .. وركب خلف الوزير وانطلق بهما الجواد في رحلتهما..

وامتلأ صدر الوزير نشوة لنجاحه في حرمان الأمين من «التوتان» وكان يفكر في حيلة أخرى يجرد بها الأمين من سيفه البتار، وقد استغرق في تفكيره فلم يستمع إلى الأمين وهو يسأله عن أي الطرق سيسلكان .. ثم انتبه عندما ارتفع صوت الأمين..

فقال الوزير: هل تحدثني؟
ـ نعم كنت أسألك عن الطريق.
ـ معذرة فقد كنت مستغرقاً أفكر في نفس الموضوع..
ـ ترى أي الطرق سنأخذها؟
ـ أمامنا طريقان .. طريق اليمين وبها الكثير من الصعاب والعقبات، وتكتنفها مشقات كبيرة وأرجح أنها مسدودة لا تؤدي إلى ما نبتغيه..

وطريق الشمال سهلة ميسورة .. مفتحة في كل اتجاه وأفضل أن نسير فيها وهي توصلنا إلى ما نريد .
ـ يبدو أنك خبير في معرفة الطرق.

ـ نعم فكثيراً ما يكلفني الملك بمهام صعاب أقطع لإتمامها أوعر الطرق وقد اكتسبت في ذلك خبرة عظيمة لذا فأنا أفضل طريق الشمال.

ـ كما تحب، فستجدني رفيقاً هماماً أستسهل الصعب إن صادفنا..

ارتاح الوزير لموافقة الأمين على السير في طريق الشمال وكان هذا هو كل ما يتمناه وانطلق يعدو فيه بأقصى سرعته.

وحلق فوقهما على ارتفاع كبير طائر ضخم يقال له العرقاب وأخذ يحوم حولهما.. حتى وصلا إلى بحيرة كبيرة فأوقف الوزير حصانه ونزل ووضع سيفه على الأرض وغاص داخل البحيرة وشرب ثم عاد وأخذ سيفه وأقبل نحو الحصان وقال للأمين:

ـ إن ماء هذه البحيرة بارد فاشرب فإنه سيعجبك...

فتوجه الأمين نحو البحيرة .. ووضع سيفه على الأرض كما فعل الوزير وغاص داخل الماء .. وعندئذ أشار الوزير للعرقاب الذي انقض على السيف وخطفه بمنقاره وعلا في الجو والوزير يتظاهر بالصياح .. وانتبه الأمين لصياح الوزير .. فرأى أن الطائر أخذ سيفه وتوجه نحو منتصف البحيرة ثم رماه فسقط في الماء وغاص فيه .. فخرج الأمين مسرعاً وهو يسأل الوزير عن طريقة لإخراج السيف ولكن كلاهما لم يكن يعرف السباحة وقال الوزير:

... وا أسفاه .. فإن هذه البحيرة عميقة جداً ولا سبيل إلى إخراج السيف .. ويبدو أنك سيء الحظ فقد أضعت «التوتان» هدية الملك الأولى وها هو السيف قد ضاع كذلك .. جلس الأمين على الأرض يفكر في الذي حدث ثم قال:

إن أتيح لي العثور على «التوتان» أو السيف، فلن أترك زمام

«التوتان» من يدي أو السيف من قبضتي وقد تعلمت درساً أرجو أن يفيدني فيما أنا مقبل عليه.

ثم ركبا واستمرا في طريقهما وكانت نشوة الوزير عظيمة بما فعل .. فها قد أصبح الأمين مجرداً لا يستطيع الدفاع عن نفسه .. وبينما كان الفرس ينطلق بهما .. هبط الطائر الكبير وأخذ يطير بجانب الحصان وبمحاذاته من جهة اليمين، والأمين ينظر إليه بتعجب كبير.

وطمأنه الوزير بأن هذا من عادة الطيور حينما يقبل الوزير في زيارة هذا المكان .. ثم ما لبث أن ظهر طائر آخر بمحاذاة الحصان من الجهة اليسرى .. وأخذت الطيور الكبيرة تتوافد الواحد تلو الآخر في انتظام يدعو إلى العجب وهي تطير بارتفاع الوزير والأمين على جانبي الحصان كأنه موكب يحرسه جند من الطيور ..

واستمر الموكب في طريقه مدة طويلة حتى ظهر قصر عظيم ولما وصلا إلى باب القصر أمر الوزير الأمين بالترجل .. فنزل الأمين وقال له الوزير بلهجة آمرة تنمّ عن الحقد والغيظ: انتظر هنا حتى آذن لك بالدخول .. وأشار إلى حراس القصر فأحاطوا بالأمين الذي فوجىء بتغير الوزير .. ودخل الوزير إلى قاعة القصر وجلس على كرسي في صدر القاعة والحرس يحيونه كلما مر بهم .. ولما استقر في مجلسه قال عليَّ بالأمين فجاء به الحراس فأشار إليهم أن يوقفوه على النطع .. ونادى السياف فجاءه فوراً . . .

ثم قال الوزير موجهاً كلامه للأمين.

ـ والآن سننتهي منك جزاء ما تفعل، فقد تعديت طورك واعتديت على حقوقي وأفسدت علي حياتي، وكدرت معيشتي..

ـ لست أدري لم تنسب إلي ما لا أضمره لك وما لم أفعله؟

ـ أنت ستتزوج الأميرة تاتي .

ـ فتعجب الأمين وأدرك ما يرمي إليه الوزير وقال:

ـ هل يغضبك هذا أم يسعدك؟ فقد أعلمني ملك الدوشيم أن الفرح بهذا الأمر كان يعم مملكته كلها. . .

ـ أنا الذي كنت سأتزوجها . . وقد كان حضورك عندنا مقدم شؤم علي . فقد فضلك الملك وآثرك علي بزواج الأميرة.

ـ أنا لم أطلب الزواج من الأميرة، ولكن الملك هو الذي أبدى رغبته في هذا الزواج. .

ـ ولهذا سأتخلص منك فأقتلك وأنتهي من أمرك. .

ـ إن كان قتلي يحقق لك ما تصبو إليه فاقتل ، فإني لا أخشى الموت ولكنه لن يحقق لك ما تريد.

ـ إن زوالك سييسر لي الزواج من الأميرة تاتي ثم يجعلني وريثاً للمُلك بعد وفاة الملِك.

ـ وما أدراك أن الملك سيموت قبلك؟

ـ هذا شأني وأنا أعرف كيف أصل إلى ما أريد.

ـ وما إن أتم حديثه حتى دخل عليه الجنداب وهو الطائر الذي يحمل البريد . جاء برسالة من ملك الدوشيم إلى الوزير . . كتب فيها :

من ملك الدوشيم إلى الوزير، «مرضت الأميرة تاتي بعد سفر الأمين فأعده إلينا كي تبرأ من سقمها . . وليخرج بعد ذلك بحثاً عن صديقيه » .

قرأ الوزير هذه الرسالة ثم ازداد غيظاً لتعلق الأميرة تاتي والملك بالأمين وطوى الرسالة . . ونظر الأمين صامتاً يفكر فيما يصنع به ثم

قال له:

ـ لقد قلت إنك لم تطلب الزواج من الأميرة ولكن الملك هو الذي رغب في ذلك.

ـ نعم قلت هذا.

ـ إذن فاكتب أنك لم تطلب الزواج من الأميرة تاتي وسأطلق سراحك.

ـ أكتب هذا وهو الحق..

ثم ناوله الوزير قلماً وورقة كتب فيها الأمين التالي:

«طلب إلي الوزير أن أعترف بأن ملك الدوشيم هو الذي رغب في زواجي من ابنته الأميرة تاتي وأنني لم أبدأ بطلب هذا الزواج».

وأخذ الوزير هذا الكتاب وأرفقه كتاباً ثانياً كتب فيه:

من الوزير إلى ملك الدوشيم:

عندما لحقت بالأمين وجدته امرأ سوء منكراً للمعروف، جاحداً للجميل، فقد أضاع التوتان وقال لا حاجة لي به، ورمى السيف البتار في البحيرة.. وقال لي كلاماً فهمت منه أنه راغب في الخلاص والإفلات.

كما أنه قال: «أنا غير حريص على الزواج من ابنة الملك، وإن الملك هو الذي رغب في ذلك فوافقته حتى أجد فرصة للإفلات».

وقد كتب الرسالة المرفقة بخطه تأكيداً لهذا وأرى أن تعلم الأميرة بحقيقته حتى لا تتأثر بمن ينكر المعروف، وتشفى من مرضها.

وإني محتفظ به كي أسمع رأي الملك ولا أرى له حلاً إلا القتل.

ثم لف الوزير الرسالتين وأعطاهما الجنداب الذي أخذهما وعاد طائراً إلى الملك، وأبقى الوزير الأمين مكانه محاطاً بالجند والحراس

وظل ينتظر الرد.

وكانت الأميرة تاتي بعد وداع الأمين تجلس حزينة في غرفتها لفراق الأمين، وفي اللحظة التي بعد «التوتان» عنها انتابها قلق عظيم لا تدري له سبباً. واستمر هذا القلق يساورها فترة من الزمن حتى ألقى السيف البتار في البحيرة وعندئذ داهمها انقباض عظيم لم تعهده من قبل وأخذت تبكي دون أن تعرف لذلك سبباً واستمرت على ذلك فترة طويلة.. ثم أرسلت الأميرة للعجوز وشكت لها حالها فنظرت العجوز في عينيها وقالت:

أرسلي الهدهد يأتيك بالخبر اليقين ويطمئن بالك.

وكانت الأميرة تاتي عندها هدهد جميل تعنى به كل يوم وتداعبه وكان يسر كثيراً لمداعبتها.

فخرجت تاتي إلى الحديقة ونادت الهدهد ثم قالت له: «أرجوك أن تذهب سريعاً وتأتيني بخبر الأمين فإن قلقي عليه عظيم.. ولا تتأخر عني فإني أصبحت سقيمة، عليلة، وعندما سمع الهدهد كلام الأميرة رق لحالها وطار على الفور يتحسس الأخبار ويأتيها بما يطمئن قلبها ويهدىء روعها ويطيب خاطرها».

وبينما كان الهدهد يجول هنا وهناك يتقصى الأخبار كان الجنداب قد وصل إلى الملك وسلمه رسالة الوزير...

فلما قرأها أخذته الدهشة وانتفض واقفاً وقد بدا الغضب على وجهه والحيرة في عينيه، فقد تألم كثيراً لما كتبه الأمين بيده وعدَّ ذلك إهانة بالغة وظن أن الأمين خدعه وها هو الوزير الذي يثق به يؤكد في رسالته غدر الأمين وعدم وفائه بالجميل، ثم كتب رسالة للوزير قال فيها:

«بلغني خبر الأمين الغادر فإذا تسلمت رسالتي فعجل بقطع رأسه

وائتني بها» ودفع الملك بالرسالة إلى الجنداب الذي أخذها وطار كي يسلمها للوزير . . ولما خرج الجنداب كان الهدهد عائداً في طريقه إلى الأميرة حينما صادفه في الطريق فقال الهدهد للجنداب:

ـ إلى أين أيها الجنداب؟

ـ إني ذاهب إلى الوزير برسالة من الملك.

ـ لعلك تسعى بخير . .

ـ أمر الملك بقطع رأس الأمين فقد غدر وخان.

فما إن سمع الهدهد الخبر حتى أسرع إلى الأميرة ودخل عليها غرفتها . . واستنهضها بسرعة قائلاً:

ـ أيتها الأميرة أدركي الأمين.

ـ ما الخبر؟

قص عليها الهدهد في عجالة ما كان من أمر «التوتان» وإخفاء الوزير له في المغارة وتقييده ومن تجريد الوزير للأمين وأمره لطائر العرقاب برمي سيف الأمين في البحيرة ورسالة الوزير للملك ورسالة الملك للوزير.

ـ جزعت الأميرة ونهضت من فورها وهرولت نحو أبيها الملك وأمرت الهدهد أن يقص عليه الأنباء . .

فازداد الملك دهشة . . .

وتركت أباها وامتطت صهوة جوادها ، وقالت للهدهد: أرشدني إلى «التوتان» فهو ريح في عدوه، وجرت الأميرة خلف الهدهد وهو يتقدمها حتى أدخلها على «التوتان» المقيد في المغارة . . فحلت رباطه وامتطت ظهره وقالت للهدهد: عجل بإرشادي لنلحق الأمين . .

وانطلق بها «التوتان» يسابق الريح . . وكان الملك بعد خروج

الأميرة تاتي بهذه السرعة قد أطلق جندياً آخراً ليلحق بالأول قبل وصوله إلى الوزير قائلاً له:

«الحق بالجنداب الذي يحمل رسالتي إلى الوزير وعطله أو امنعه من تسليم رسالتي حتى ألحق به» ثم أمر بخروج كوكبة من الفرسان الأشداء خلفه وهو يعدو خلف الأميرة تاتي.

وطار الجنداب الثاني ليلحق بالأول وقد أجهد نفسه إجهاداً مضنياً.. ولكن وقتاً كبيراً كان قد مضى .. ولحق به قبل أن يهمّ بدخول القصر وأخذ يخاطبه ، ولكن الجنداب الأول كان يمضي في طريقه لأداء مهمته لا يلوي على شيء .. فلم يستمع ولم يفهم من فرط انشغاله بضرورة تسليم الرسالة .. ولما يئس الجنداب الثاني من إفهامه عدم تسليم الرسالة .. أخذ يهاجمه ليعوقه عن الحركة. ودار بينهما عراك عظيم أفلت الأول من نهايته ومضى نحو الوزير وسلمه الرسالة وسقط بجواره من شدة الإعياء وكان الجندب الثاني قد أصيب بضربة قوية على رأسه من الجنداب الأول أسقطته مغشياً عليه ولم يفلح في منع وصول الرسالة إلى الوزير.

فض الوزير رسالة الملك وقرأها .. وظهرت عليه نشوة النصر وامتلأ صدره بالفرح لنجاح كيده ونظر إلى الأمين نظرة الظفر وقام من مجلسه وأقبل نحو الأمين يمشي في خطى تنمّ عن الكبر والغطرسة .. وسرح خياله في الأميرة وزواجه بها ثم... المُلْك وفوزه به بعد تدبير أمر آخر للتخلص من المَلِك .. ولم يحادث عندئذ الأمين ولا خاطبه إمعاناً في التعالي والكبر، وأظهر له الاحتقار والازدراء وقال للسياف بلهجة آمرة ملؤها الوثوق من النتيجة : يا سياف ....

ـ أجاب السياف : نعم سيدي.

ـ اقطع رأسه . . .
ـ واعتدل السياف في وقفته وأجلس الأمين منحنياً على الأرض .
وهمّ أن يرفع السيف ليهوي به قاطعاً رأس الأمين فإذا بالأميرة تاتي تقتحم الباب على ظهر «التوتان» وتغير على السياف فيطرحه التوتان أرضاً ويلقي سيفه بعيداً عنه .
وقد جفل الوزير لهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها . . ونزلت تاتي وأمسكت بالسيف وأقبلت نحو الأمين وهو جاثم على ركبتيه تفك القيد من يديه . .
وعندئذ دخل ملك الدوشيم يحيط به فرسانه وبقي فوق فرسه . . فدنا منه الأمين وحياه قائلاً السلام عليك أيها الملك .
رد الملك التحية قائلاً : وعليك السلام . .
وقبل أن يهم الأمين بالكلام . كان الوزير قد علته صفرة الخوف . .
قال الملك للهدهد : قص علينا ما حدث . .
فأخذ الهدهد يسرد ما وصل إلى علمه من أخبار . والأمين يدهش مما خفي عليه من كيد الوزير . .
ولما انتهى الهدهد من كلامه أمر الملك باستدعا العرقاب فأتى وأمره الملك أن يروي كيف خطف السيف البتار . . فأفاد العرقاب بأن الوزير أشار إليه بخطف السيف وإلقائه في البحيرة بينما كان الأمين يشرب .
كل ذلك والأمين يزداد تعجباً والوزير يزداد انهياراً واصفراراً . . .
وعندئذ نظر الملك للأمين يسأله عن الذي حدث مع الوزير . فقص الأمين للملك تفاصيل ما دار من حديث مع الوزير . . .
ثم ذكر له كذلك رحلته الأولى وطلب الوزير نزوله لمصارعة

الأسود في أول التدريب على الفروسية، والآن وقد تجلت الحقيقة واتضح مكر الوزير وكذبه وغدره وعصيانه، أقبل الوزير يجثم على قدميه يستعطف الملك ويقبل الأرض بين يديه..

قال له الملك:

لقد عزمت على ارتكاب جريمة نكراء وهممت بارتكابها ولم يمنعك إلا قدومنا .. ثم إنك غدرت بمن يصحبك في هذه الرحلة وكذبت علي وافتريت على الأمين ونسبت إليه فعلاً لم يأته زوراً وبهتاناً.

ثم أمر السياف فجاء، وجاءت تاتي وأسلمته السيف الذي كان سيقطع به رأس الأمين.

وأمر الملك بقتل الوزير جزاء ما فعل.

وهوى السيف كلمح البصر .. وقتل الوزير الشرير .. ونظر الأمين إلى ما يدور حوله وهو يردد في نفسه:

«من سل سيف البغي قتل به ..».

«من سل سيف البغي قتل به ».

وهنا نترك الأمين لنتابع الصحبة الوطيدة التي نشأت بين عامر وهشام التمساح.

عزم عامر على الرحيل من المكان الذي استقر فيه مدة طويلة وكان في الفترة يدرس الطرق والمنافذ التي تؤدي به إلى مخرج .. وكان إذا احتاج إلى السير في النهر أو عبره يستعين بالتمساح هشام الذي قدم له أجلّ الخدمات. ولما أخذ يتجهز للرحيل شعر هشام بهذه الرغبة ولكنه لم يتمكن من صحبته أو تأخيره، أو إفهامه بحقيقته وقد انتابه حزن عظيم لقرب فراق صاحبه .. ولما هم عامر بالمسير وقف بجوار التمساح يودعه ويربت على رأسه وهشام يئن من شدة الحزن لعدم

قدرته على الإفصاح . . .

تحرك عامر بعيداً عن النهر وهو يلوح بيده لهشام الذي أخذ يسير خلفه وقد عز عليه هذا الفراق ، وأخيراً وقف يرفع رأسه وارتفع صوته بالأنين يودع صديقه بهذه الحركات .. وقد تأثر عامر كثيراً لشعور التمساح وطريقته في الوداع .. ولكنه مضى في طريقه طلباً للخروج والخلاص.

واكتسب عامر خبرة طيبة، وشيئاً من الشجاعة لكثرة ما مر به من أحداث خرج على أثرها سليماً معافى .. وركز في نفسه إحساس عميق بأنه لن يصيبه إلا ما كتب له، وقد زاد هذا الشعور من شجاعته التي بدأت تنمو مع توالي الأحداث.

اتجه عامر نحو تل مرتفع ولما صعده رأى من الناحية الأخرى وادياً ضيقاً يبدأ عند أسفل التل، فنزل ودخل الوادي وأخذ يسير فيه والوادي يتعرج ذات اليمين وذات الشمال..

وكان في سيره بادي النشاط والهمة وقد ساعده نشاطه في استمرار السير ساعات طوال وبعد فترة جلس يستريح ويتناول بعض الأطعمة التي جاء بها معه وبينما هو يأكل رأى أمامه ثلاث قطع لصخرة ملونة كأنها أحجار الفاروز، ومد يده وتناولها وأخذ يضمها إلى بعضها ويقلبها بين يديه في كل اتجاه فوجد على وجه من أوجه الحجر بعد ضمه كلمة مكتوبة بخط قديم ، وأخذ يقرؤها بصعوبة وبعد تفحص كبير وإمعان استطاع أن يقرأ كلمة (الرودام) .. فأخذ يردد الرودام .. الرودام وما يكون الرودام أو تكون الرودام هذه! وما إن أتم نطقها أربع مرات حتى ظهر من بعيد حمار وعليه بردعة محلاة بخيوط ملونة وكان صنعها دقيقاً .. ونظر عامر إلى هذا الحمار وهو يقترب منه حتى وقف

أمامه وجلس على رجليه الخلفيتين ومد رجليه الأماميتين. فأصبحت البردعة أمام عامر ليس له إلا أن يجلس عليها .. وتردد باديء الأمر وأخذ يدور حول الحمار وهو ينظر إليه بإعجاب وقال في نفسه .. إن هذا الحمار جدير بالركوب وإن لم يركب هذا الحمار فأي الحمير تركب بعده، ثم أنهى تردده بقفزة مكنته من ظهر الحمار الذي اعتدل على الفور وأخذ يجري مسرعاً مع الوادي .. واستغرق عامر في الضحك لكثرة اهتزازه على ظهر الحمار النشيط وبعد فترة من السير وصل الحمار إلى مدخل كبير لقبو ووقف عنده، وكان على مدخل هذا القبو بغل كبير الحجم يفوق حجم الحمار مرات ثلاث ممتلىء الجسم مفتول العضل عريض الظهر عليه بردعة عظيمة موشاة بخيوط ذهبية في نقوش بديعة. وما إن وقع نظر عامر على هذا البغل حتى نسي الحمار وشعر بفارق بينهما كبير. وراودته نفسه أن يترك الحمار ويمتطي ظهر هذا البغل فاقترب منه وهو ما زال على ظهر الحمار ثم تنقل إلى ظهر البغل دون أن ينزل إلى الأرض .. وما إن استقر أعلى ظهره وتمكن من الجلوس على هذه البردعة حتى انطلق به البغل يعدو داخل القبو ثم بدأ يسمع رنيناً متصلاً يشبه رنين الساعة الدقاقة، استعذب عامر سماعها .. ثم اختلط صوت هذا الرنين بأصوات تشبه الترانيم تنبعث من بعيد، وأخذت هذه الأصوات تزداد ارتفاعاً كلما اقترب عامر منها والأصوات بالغة العذوبة رائعة اللحن والنغم حالمة الأثر .. وانعطف به البغل يميناً وفوجىء عامر بجمع كبير من المخلوقات التي كان قد رآها من خلال ثقب القبو الأول الذي أغلق عليه هو وصاحبيه هشام وعامر .. المخلوقات التي لها ذيل والتي تحيي بعضها بالعض على الأصابع.

وكان شعوره خليطاً من البهجة والحذر . . البهجة التي ملأت نفسه من أصواتها الرقيقة والحذر مما يجهل من عادات هذه المخلوقات، وزادت دهشته عندما تقدم واحد من هذه المخلوقات نحو البغل الذي وقف وسط هذا الجمع وخاطبه بلغة فصحى قائلاً:

«إن ملكة الرودام ترحب بمقدمك فأهلاً حللت وسهلاً نزلت».

همّ عامر بالنزول عن ظهر البغل فساعده مستقبله على النزول. ولما اعتدل واقفاً . . سكت الجميع عن الإنشاد بأصواتهم . . ودارت عينا عامر يتفحص الجمع حوله وقد اطمئن بعض الشيء بعد سماعه عبارات الترحيب.

ثم أشار مستقبله إلى حيث يجب أن يتوجه لمقابلة الملكة التي كانت في انتظار الضيف الجديد، وقبل أن يدخلوه إلى مجلس الملكة جاؤوا له بعباءة زاهية اللون بديعة الصنعة وألبسوه إياها حتى بدا رائعاً في لباسه الجديد كما وضعوا في قدميه نعلين من جلد طري.

ولما دخل وجد الملكة تجلس في حاشية لها كلهم قد لبس زاهي الثياب . . فأقبل نحوها وهي تنظر إليه مبتسمة ورحبت بمقدمه ودعته للجلوس فجلس بالقرب منها وهو بادي الدهشة لما يرى من عادات القوم في الترحيب، ودخل على أثره طابور طويل من الخدم كل منهم يحمل كوباً من اللبن (وهذه عادتهم إذا جاء ضيف زائر) وضع في صحيفة من فضة مرصعة بالأحجار الكريمة وأخذوا يقدمون ما حملوا إلى الملكة وهي تنظر إلى اللبن وتشير إليهم بالانصراف تباعاً حتى استوقفت أصغرهم وكان يحمل أصغر هذه الآنية . . فتناولتها ومزجت مع اللبن نوعاً من العطر يحمله خادم يجلس خلفها ثم تذوقته ولما اطمأنت إلى حسن مذاقه قدمته بيديها إلى عامر الضيف وطلبت منه أن

يشرب اللبن.

تناول عامر الإناء بكلتا يديه . . وقربه من فيه يتذوقه ولما استعذب طعمه رفع الإناء وشربه دفعة واحدة ثم أخذ ينظر إلى الملكة صامتاً لا يتكلم.

قالت الملكة: «أيها الضيف الكريم ما جزاء الإحسان»؟

قال عامر : الإحسان.

قالت: فإن لم يكن ؟

- إننا مطالبون بفعل الخير وأن تدفع السيئة بالحسنة وكل إناء بالذي فيه ينضح.

- إذن أحكمك.

- فيم؟

- بيني وبين ملك البوشال خلاف أراه بسيطاً ويأبى إلا أن يكون خصومة حادة؟

- وماذا لو عدها خصومة حادة؟

- هو يهددني بالحرب . .

- الحرب؟ ألهذا الحد بلغ الخلاف بينكما . .؟

- نعم والأمر بسيط ولست قادرة على رده أو تغيير عزمه.

- وعلام الخلاف بينكما؟.

- فأمسكت الملكة العقد الذي يحلي جيدها وأشارت إليه قائلة:

- هذا العقد الذي تراه هو رمز مملكتي وقد ورثته عن آبائي وأجدادي وهو كما ترى من نادر الزمرد المرصع بالماس والياقوت، ولا يستطيع أحد أن يصنع شبيهاً له، أو يجد مثل كريم أحجاره ونفيس درره . .

بعث إليّ ملك البوشال برسالة يطلب مني العقد كي يزين به عنق زوجته ملكة البوشال، فما استطعت التفريط فيما ورثته، وبعثت له بهدايا أخرى نفيسة ونادرة مما لا يجده إلا عندي فأبى علي وهددني بالحرب . .

وبالأمس بعث إليّ برسالة يتعجلني تسليم العقد . . فزادت حيرتي وشاورت قومي فما وجدت عندهم رأيا يدفع عنهم هذا البلاء . . واتفقنا أن نوسط أول زائر إلينا فكنت أنت هذا الزائر. .

ـ اعتدل عامر في مجلسه لما سمع كلام الملكة، وما انتهى إليه الأمر من قيامه بالوساطة، وفكر في الاعتذار عن القيام بالتوسط لحل الخلاف الذي لم يبد له فيه رأياً راجحاً . . وكانت الحيرة والتردد باديان في عينيه . ثم قال:

ـ ولكني . . . وقبل أن يتم كلامه قالت الملكة:

ـ أنت تقول جزاء الإحسان الإحسان. .

فسكت عامر لما سمع من الحجة التي لزمته من قوله ثم فكر قليلاً والملكة تنظر إليه مستعطفة وأخيراً رق لحالها وقال:

قبلت ولكن من يكون ملك البوشال ومن يكون قومه؟

ـ هم قوم غلاظ أشداء متجبرون يبعدون عنا مسيرة مائة فرسخ، وطريقهم إلينا وعرة موشحة ولكنهم قادرون على اجتيازها طمعاً فيما عندنا من خيرات، وملكهم رجل شره نهم كثير الطمع دائماً كنا نرسل إليه الهدايا النفيسة اتقاء شره ولكنه اعتماداً على قوته، واستضعافاً لقوتنا يطلب المزيد، ولما علم أخيراً بأمر العقد الذي أحتفظ به رمز مملكتي والذي ورثته عن أجدادي وأزين به جيدي أرسل إليّ يطلبه لزوجته. .

ـ أنت ترين أن أذهب إليه؟

ـ نعم، وتحاول أن تثنيه عن عزمه وتصرفه عني وعن قومي.
ـ فإن أبى إلا مطلبه؟
ـ تعني أن يغتصب عقدي ـ رمز مملكتي؟
ـ أو الحرب فيهلك الحرث والنسل وحينئذ يكون العقد أهون ما يأخذه.
ـ لا . . لا . . لن يكون هذا . . ولا بد لك من تدبير حيلة تدفعه عني وعن قومي . .
ـ أيتها الملكة . . أحب قبل أن أواجه ملك البوشال أن أعلم ماذا أنت فاعلة لو أبى وأصر على أن يأخذ العقد أو تكون الحرب . . .؟
ترددت الملكة كثيراً فيما تقول وانتابتها حيرة عظيمة فيما يكون الأمر لو أفلح ملك البوشال في انتزاع ما يبتغيه اعتماداً على قوته التي يهدد بها . . ثم تخيلت ملك البوشال وقد اقتحم بلدها واحتل ديارها وهدم بنيانها وقتل قومها ثم أرغمها على ما يريد؛ وهي الضعيفة التي لا تستطيع له دفعا . . فاغرورقت عيناها بالدمع . . ثم ما لبث أن انهمر على خديها، وأخذت تجهش بالبكاء من فرط إحساسها بالضعف وقلة الحيلة والعجز عن دفع هذا البلاء، والشعور بالقهر وجور القوي على الضعيف . . ثم ما لبثت حاشيتها أن أخذت تشارك الملكة في النحيب والبكاء وانقلب المجلس في لحظه إلى محزنة تأسى لها المشاعر . .
وجلس عامر وسط هذا الجمع الحزين حائراً . . ولكن إحساسه اهتز لفرط ما أظهر القوم من حزن . . ومكث صامتاً لا يتكلم . . حتى توقفت الملكة عن البكاء وهي ترفع إليه عينيها متوسلة مستعطفة تطلب العون دون مزيد من الإفصاح . . وعندئذ قال لها عامر:
ـ أيتها الملكة . . . إن البكاء لا يدفع البغاة، وإن النحيب الذي

تغرقين فيه نفسك لا يرد الجبابرة الطغاة.

ـ أعلم ذلك، وما يبكيني إلا ضعف قومي وقلة حيلتي واقتدار الطاغية، ملك البوشال.

ـ أيتها الملكة: إن ملك البوشال ضعيف بما يدعيه، من طلب ما ليس من حقه، وأنت قوية بما تشعرين أنه حق لك وما يبكيك إلا فرط التمسك بهذا الحق ..

فاعتدلت الملكة في مقعدها حينما سمعت هذا الكلام ونظرت في عيني عامر الذي يستضعف ملك البوشال ثم استدركت قائلة:

ـ وما قيمة حقي حينما أكون عزلاء، محرومة من قوة تدفعه عني وتصده عن قومي؟

ـ الضعف مع صاحب الحق إحساس خبيث يتلبس الشعور ويكون أشد على صاحبه من عدوه، واعلمي أن صاحب الحق بعصاه أقوى من الباغي بسيفه.

ـ كيف؟

ـ على قدر إيمانك بأن العقد ملك لك يكون الدفع والمدافعة أما رأيت الأم كيف تحمي أطفالها وتدافع عنهم إذا عرض لهم خطر؟

ـ أدرك ذلك وأود أن أدفع عني هذا الطاغي بالحيلة ...

ـ وقد تكون الحرب وإظهار البأس أعظم حيلة !!

ـ وتعني .. وأشارت بإصبعها نحو صدرها، ثم تجاه مملكة البوشال وشبكتهما تعبيراً عن الصدام والخلاف .. ولم تستطع أن تنطق بما تريد وهي تنظر نظرة شاردة ..

ـ فأومأ عامر برأسه إيجاباً وتصديقاً وقال نعم هي الحرب والقتال.

ـ بيني وبين البوشال؟

ـ نعم ومن يكون البوشال وهم ضعاف فيما يطلبون؟
ـ أنت لا تعرفهم ولا تعرف بأسهم.
ـ لا حاجة لي بمعرفتهم، أنا أعرف الحق الذي نحن عليه وكفى.
ـ ولكن الحرب تجر خسائر عظيمة . .
ـ والتفريط في الحق والتخلي عنه أعظم فداحة وأشد خسراناً.
ـ فماذا أصنع ولا عهد لي ولا لقومي بالحرب . .
ـ مري قومك فليأتوك بكل سلاح، وليجمعوا لك كل حيلة وعجلي ببناء سور عظيم حول بلدك يحول بن البوشال وبين التمكن منك ومن قومك، واحشدي أعلا هذه الأسوار كل أدوات القتل التي تقدرين عليها . . ثم اجمعوا محاصيلكم واحفظوها داخل البلد حتى لا تحتاجون إلى الخروج إذا أقدمت البوشال ثم ابعثي إليه برسالة وأظهري له فيها قوة الرفض لما يطلب وشدة البأس لو أقدم على الحرب . .

فما إن سمعت الملكة هذا الكلام حتى استجمعت عزيمتها ونادت وزراءها وكلفتهم بالتجهز على النحو الذي أشار به عامر، وطلب من كل وزير أن يشرف على ناحية من نواحي الإعداد . . ودبت بين الرودام حركة في غاية النشاط والهمة، وزاد من هذا النشاط شعورهم بالضعف وحاجتهم لمزيد من أدوات الحرب ومعداته، ووصلوا ليلهم بنهارهم وكلما أنجزوا شطراً من الإعداد ورأوا حصيلة جهدهم زادت همتهم وقوي عزمهم . . .

وأخذت الملكة تطوف بقومها يصحبها عامر تحثهم على مضاعفة الجهد وتستأنس برأيه في كل صغيرة وكبيرة مما يقوم القوم بتجهيزه. . .

وما إن اكتمل أربعون يوماً حتى كانت معالم البلد قد تغيرت تغيراً

تاماً . . . فالسور العظيم قد تم بناؤه، وجعل له مداخل كبيرة يسده باب ضخم الحجم يؤدي إلى ممر على جانبه جدار مرتفع من الصخر، وأرضه من كتل الخشب المتراصة بإحكام، تغطي خندقاً عظيماً مليء بالماء وفي نهاية الممر باب آخر أعظم ثقلاً من الباب الأول، وكانت الحيل التي أعدت في المدخل كثيرة وعظيمة.

وقد أعد الروداء المدخل على هذا النحو استجابة لتوجيه عامر. . .

ثم إنهم اعتلوا أسطحاً يقفون عليها من داخل السور جمعوا عليها الكثير من الأحجار والرماح والسهام. .

ولما انتهى الإعداد قالت المملكة لوزرائها مقالة طيبة تشكرهم فيها على ما أبدوه من همة عظيمة وأعلمتهم بطريقة الحراسة التي يتبعونها إذا حضر البوشال يريدون القتال. .

ثم وجهت حديثها لعامر شاكرة إياه على مساعداته العظيمة ورجته ألا يفارقهم وأن يقف إلى جوراهم حتى يحسم الأمر مع ملك البوشال . . وقالت له: أيها الضيف الكريم إننا قد استكملنا العدة وإن ذهابك إلى ملك البوشال الآن سيجعلك أكثر اطمئناناً وأنت تتحدث معه وتثنيه عن عزمه، وقبل أن تتم حديثها دخل واحد من الروداء مهرولاً يلهث من شدة التعب . . وانحنى عن يمين الملكة ثم قال:

«جاءتني الأخبار بأن مجموعة من البوشال يرأسها كودر شقيق الملك ومعهم عدة الحرب في طريقهم إلينا . . .»

تلقت المملكة النبأ فزعة . . وعاجلته بسيل من الأسئلة عن عددهم وعدتهم . . فأجابها . . عددهم بين العشرين والثلاثين يستريحون الآن في غابة الشافون على بعد ثلاثة فراسخ، وعدتهم للحرب كاملة فهم يحملون الرماح والدروع والأسهم والسيوف والخناجر والقلاط الذي

يقذفون به كتل النار.

ـ قالت الملكة لعامر: ها هم البوشال قد جاؤنا يضمرون الشر وأرى أن يدخل قومي داخل الأسوار ونغلق الأبواب دونهم فلا ينالون منا شيئاً.

ـ قال عامر : أيتها الملكة إن القادمين قليلوا العدد ولم يحضروا في قلة من عددهم وهم على عدة كاملة إلا لتبليغ رسالة تحمل التهديد والوعيد . . .

والرأي عندي ألا نتركهم يقتربون من المدينة فيطلعوا على ما أعددناه للقائهم، والأفضل أن نعجل بالخروج إليهم في قوة عظيمة بعيداً عن المدينة ونسمع ما جاؤا له ونردهم من هناك بالجواب.

ـ عجبت الملكة لرأي عامر . واستحسنته وأمرت من فورها بثلاثمائة محارب من قومها يخرجون لملاقاة كودر ورجاله وجعلت على رأسهم عامراً وأمرت قومها بطاعته . . .

كان كودر قد حط برجاله قرب نهاية غابة الشافون يتناولون طعامهم ويستريحون من عناء السفر وقد جلسوا مجتمعين حول كودر يستمعون إلى نوادره وطرائفه التي أعدها لمقابلة ملكة الرودام وكان يقول للمحاربين الذين صحبوه:

«إن الرودام قوم مسالمون، ضعاف لا يحبون الحرب ولا يعرفونها وقد ترددت الملكة في تسليم العقد الذي طلبه أخي العظيم ملك البوشال، وقد أمرني أن أنتزعه بالقوة من عنقها إذا ترددت . . ولن نجد صعوبة في أخذ الكثير من الجواهر الأخرى فهم يخشون بأسنا . . .

وأتصور نفسي وأنا داخل مملكة الرودام وأنتم منتظمون خلفي

شاهرين سيوفكم ورماحكم والروادم مصطفون عن اليمين وعن الشمال راكعين على الأرض مبالغة في التحية والخضوع، وكم يسرني كثيراً أن أعاملهم منذ البداية بفظاظة وغلظة حتى يزداد احترامهم لنا وخشيتهم منا . . .

آه لقد خطر لي خاطر عظيم . . أتعرفون ماذا سأفعل لو لمست من الملكة تردداً في تسليم العقد؟

قال من معه من البوشال المحاربون : «لا . . لا نعرف».

قال كودر: «سأجلدها على قدميها أمام قومها . . أو سأفعل ما هو أحسن من ذلك سأركبها حماراً ركوباً معاكساً وألطخها بالوحل وأجعل الحمار يطوف بها مملكتها، وهكذا سيعرفون كيف يستجيبون لما نطلبه منهم دون تردد . . فأخذ البوشال المحاربون يتضاحكون لمنظر الملكة التي يطاف بها مملكتها وهي على الحمار معكوسة.

ثم قال كودر . . لا لا سأفعل ما هو أفضل من ذلك سأعلقها من قديمها في ميدان البلد بعد تجريدها من ثيابها، وأتركها عارية معلقة من قدميها تتأرجح يميناً وشمالاً تماماً كرأيها المتأرجح المتردد، قال أحد البوشال:

سيدي كودر: «لا أظن الملكة ستتردد في تسليم العقد عندما ترانا على هيئتنا هذه المخيفة». .

قال آخر: حتى لو سلمت العقد فإني أحب أن أراها معلقة على نحو ما وصف سيدي كودر فقد كان من الواجب أن ترسل العقد بمجرد علمها بحاجة ملكنا العظيم إليه. . .

فصدق الجميع على هذا الرأي . . وصاح كودر فيهم بالتجهز لمواصلة السير ولما هموا بالتوجه نحو خيولهم ليعتلوا ظهورها . . كان

عامر قد وصلهم في صمت كبير وأحاط بهم من كل جانب وحال بينهم وبين خيولهم ودروعهم وغالب عدتهم .. وقد شهر الروادم الثلاثمائة رماحهم نحو كودر وجماعته الذين صعقتهم المفاجأة فتوقفوا مذعورين فاغرين أفواههم من شدة الصدمة لا يقدرون على الحركة .. وتقدم عامر على فرس أشهب عظيم موجهاً كلامه نحو البوشال قائلاً:

«من رئيسكم ؟».

قال كودر- وقد أخذته الدهشة لرؤية عامر على الفرس الأشهب فحسبه ملكاً جديداً حول الروادم - إلى مقاتلين على النحو الذي يراه :

- أنا رئيسهم، أنا كودر شقيق ملك البوشال .

- ما الذي جاء بك وبقومك قرب ديارنا دون إذن ؟

فوجىء كودر بهذه اللهجة التي لم يتعود سماعها أبداً من الممالك المحيطة بالبوشال وقد تلعثم بادىء الأمر ثم ما لبث أن تمالك نفسه قائلاً:

«إذن .. ممّن؟ نحن البوشال ما تعودنا أن يعلونا أحد نطلب منه السماح لنا بالضرب في الأرض حيث نشاء، وقد جئنا لمقابلة ملكة الروادم نأخذ منها العقد لملكنا».

- عامر: إن أخذكم العقد عدوان نرده بما يناسبه، وأخبرك يا كودر بواحدة من اثنتين.

اضطرب كودر لهذا اللهجة ثم قال: وما هما؟

أن آمر الروادم فيمزقون أجسامكم فوراً بهذه الرماح المشهورة نحو صدوركم فتموتون فوراً.

- والثانية؟

- أو تعود إلى أخيك ملك البوشال على النحو الذي نرتضيه لك.

ـ قال كودر ويعود معي رجالي.

ـ كلا سنبقيهم عندنا رهائن لحين عودتك من تبليغ الرسالة.

ـ قال كودر قبلت العودة..

وعندئذ أمر عامر بعض الروادام بتجريد البوشال مما عليهم من أسلحة وألبسة فنزعت عنهم ووثقت أيديهم بالحبال من خلف ثم ربطت حول أعناقهم حبال جمعت كلها في مقود واحد.

كما أمر عدداً آخر من الروادام فجردوا كودر وأوثقوا قيده ووضعوه على حصانه معكوس الوضع .. وعندئذ قال عامر:

يا كودر «أبلغ أخاك الملك أنه طالما فكر في العدوان على الروادام فلن يجد إلا ما يكدره» ثم أطلق حصانه الذي عاد به إلى مملكة البوشال على هذا النحو المهين.

ونظر البوشال المقيدون إلى رئيسهم وتذكروا ما كان يقوله لهم عن ملكة الروادام فزادهم ما حدث كمداً وغماً. وقال أحدهم: «وقعنا في السوء الذي كنا نضمره».

وهنا نترك عامراً يعود مع الروادام لمقابلة الملكة ومعه أسرى البوشال لنتابع الأحداث مع هشام التمساح الذي عاد من فرط حزنه صائماً عن الطعام بعد وداع عامر ويأسه من إبقائه إلى جواره حتى يعود إنساناً كما كان من قبل.. وظل فترة طويلة بجوار الماء على حالته أسير الحزن والأسى...

واجتمعت حوله الضفادع تواسيه وتخفف عنه آلام الفراق التي لزمته وهو على حاله غير قادر على البعد من النهر.

حزنت الضفادع كثيراً لعدم قدرتها على التخفيف من حزن صديقها خادم النهر وإدخال السرور على نفسه فاجتمعت بعيداً عنه تبحث أمره

فيما بينها وقالت إحداها:

ـ منذ فارقه صديقه الإنسان وهو على حاله لا يذوق الطعام والشراب وأخشى عليه اعتلال صحته وموته لو بقي على حاله.

ـ قالت أخرى: إن الصداقة التي توطدت بينهما بلغت ذروتها وكان من نتائج الفراق أن تغيرت حال خادم النهر فلم يعد يحادثنا ولا يبتهج لقربنا منه ولا يشاركنا ألعابنا كما كان يفعل من قبل.

ـ قالت ثالثة: إنه الحزن حينما يملك القلب وإن صاحبنا خادم النهر رقيق الحس مرهف الشعور وفيَّ الصحبة، ويهمنا الآن أن نجد طريقاً نغير بها حاله التي صار إليها، وأن نعيد إليه البهجة والسرور..

وبينا هم على حالهم مجتمعين قد أهمهم أمر صديقهم وصلهم الضفدع الصغير وسألهم:

ـ علام الجمع الحزين والهم البادي في وجوهكم؟

ـ أجابوه:

ـ إن خادم النهر منذ فراق صاحبه وهو لا يخرج من عزلته .. قد فارقته بشاشته وضاعت بسمته وخيم عليه حزن مقيم لا يبرحه وإننا نتدارس الأمر فيما بيننا لنعيد إليه حاله التي ألفناه عليها، وليست بنا قدرة على تركه على حاله وما علمنا عنه إلا محمود الصفات وجميل الخصال وحسن الفعال.

ـ قال الضفدع الصغير أنا لها..

ـ قالوا: ماذا أنت فاعل؟

ـ قال: أحقق ما اجتمعتم من أجله...

ـ قالوا: كيف ؟

ـ قال: أجيبكم بفعلي فاتبعوني، ثم توجه الضفدع الصغير نحو

خادم النهر وقد تبعته الضفادع ولما وصل إليه قال:

ـ يا خادم النهر.. هون عليك الأمر وخفف الحزن وانهض معي فقد جئتك ببيان يزيل عنك ما أهمك وأزعجك .. ثم قفز فوق ظهره كما فعل في المرة الأولى حينما دله على صاحبه عامر .. وكان هشام خادم النهر يستبشر كثيراً لرؤية الضفدع الصغير .. وما إن قال له مقالته حتى أدرك هشام أن الضفدع الصغير قد جاءه بخبر هام .. فدب النشاط في أوصاله وبدت عليه بسمة الأمل .. ثم تحرك سريعاً والضفدع الصغير يدله على الطريق والتمساح يجتاز مسارب الماء ومجاريها واحدة تلو أخرى حتى أفضى إلى بحيرة عظيمة اتجه إلى قاعها ودخل إحدى فجواتها التي تكثر بين الصخور .. كما دله الضفدع الصغير ليجد نفسه ماثلاً أمام رئيس التماسيح الذي أصدر عليه الحكم بالبقاء على حاله مدة أربع سنوات .. فلما رآه حياه ووقف صامتاً .. قال له رئيس التماسيح :

«لقد تعقبنا مسلكك طوال الفترة التي قضيتها في النهر خادماً فوجدناك حسن السيرة وفيّ الصحبة عظيم الهمة، ولهذا فإنا نخفض عنك مدة احتباسك عندنا فتعود إنساناً كما كنت ونبدأ عهداً جديداً في الرابطة بيننا وبينك ونحفظ لك الود والصداقة حتى بعد عودتك إنساناً.. ولعلك بعد الفترة التي قضيتها بيننا قد علمت أن النهر به أمم كثيرة محبة للخير ونحب أن تبادلنا الصداقة والود بعد خروجك من بيننا، فإن هذه الرابطة الجديدة تحمل في ثناياها الخير الكثير».

ـ قال هشام : «رغم لهفتي أن أعود إنساناً كما كنت فإن قلبي قد تعلق كثيراً بمن يعيشون في النهر وأرجو أن تبقى هذه العلاقة على حالتها الطيبة التي لمستها فترة بقائي في النهر وكم أنا شاكر لك جميل

شعورك وحسن تقديرك وطيب عزمك لتخفيف الحكم».

- وتخفيف الحكم الآن ليس مرهوناً بالمدة الباقية وهي طويلة .. ولكنه مرهون بأمر آخر.

- وما هو ؟

- خدمة تؤديها لنا ليس في مقدورنا أداءها، وكنت من قبل إنساناً ونحن نعلم أن الإنسان يتمتع بعقل كبير وحيلة عظيمة..

- لن أدخر وسعاً في بذل الجهد الجهيد لخدمتكم ومعاونتكم فما هو العمل الذي تحب أن أقوم به؟

- هل ترى خام الماس الذي يتناثر في قاع النهر؟

- نعم وإنه لكثير...

- نريد أن تنظم لنا منه تاجاً عظيماً أضعه على رأسي ابتهاجاً بأول صداقة بيننا وبين الإنسان ويكون ذلك في اللحظة التي نطلق فيها سراحك..

- هذا أمر ميسور ويحتاج لبعض الوقت لإتمام العمل.

- خذ من الوقت ما شئت وفي اللحظة التي أضع فيها التاج فوق رأسي تعود أنت إنساناً.

- سأشرع فوراً في إعداد التاج المطلوب.

- بشرط.

- وما هو ؟

- أن تكون أحجار الماس كلها مصقولة.

- وقف هشام فترة يفكر في هذا الشرط وقد علم بصعوبته الشديدة وكان العرض في أوله يبدو سهلاً ميسوراً .. فإن أحجار الماس الخام الخضراء المشوبة بزرقة خفيفة تتناثر بكثرة عظيمة في قاع النهر ..

وخيّل إليه أنه سيجمعها وينظمها في تاج على حالتها الخام ثم يقدمها لرئيس التماسيح وتنتهي المهمة عند هذا الحد . . ولكن صقل الماس . . أمر آخر . . فهي مهنة صعبة تحتاج دراية ودرية عظيمة لا يقدر عليها من الناس إلا عدد ضئيل وهم في العادة لا يفصحون عن أسرار صناعتهم، وأنّى لي بواحد من هؤلاء الصناع المهرة؟ وأنّى لي بالقدرة على التفاهم معه وأنا على حالي؟ وتحولي إلى إنسان قادر على التفاهم لإنجاز هذه المهمة مرهون بإتمام العمل، وبدأ الأمر أمام هشام بالغ التعقيد إن لم يكن مستحيلاً ولكنه نظر إلى رئيس التماسيح وقال له:

ـ «سأحاول جهد استطاعتي» . . ثم قفل راجعاً وقد تجسم أمامه اليأس بعد إشراقة الأمل بقرب الفرج والخلاص . . وانتحى جانباً وقد استغرق في التفكير عله يهتدي لوسيلة أو حيلة تعينه على إتمام التاج حتى ينعم بإنسانيته ولكن هذه الحيلة استعصت بل امتنعت عليه. . فاشتد عليه الهم وأخيراً أظلمت الدنيا في عينيه ثم نام فراراً من جهد التفكير. . .

ولما أفاق إذ به يرى الضفدع الصغير أمام عينيه عليه ابتسامة عريضة . . وبادره الضفدع قائلاً:

ـ أبشر.

ـ خيراً.

ـ جئتك بالفرج.

ـ يا صاحبي الصغير، الخير في أعقابك، ورفقتك أبداً ميمون طالعها، حلو معشرها، والخلق إنما يكرمون بأفعالهم لا بأشكالهم وأعمارهم. وأنا على يقين من أن الخير والفضل هو الذي تسعى به . . فرؤيتك أمل وصحبتك أنس لنفسي وبشراك الفرج بعد الصبر فماذا

عندك من فضل جديد؟

- وجدت من يعينك بعظيم حيلته وبالغ دهائه وقديم خبرته على صقل ما يلزمك من أحجار الماس.

- من يكون؟

- قرد يقطن شجرة الجميز العظيمة بجوار النهر ناحية الدندان فهلم بنا إليه..

- تحرك هشام بسرعة كعادته يحمل الضفدع الصغير فوق ظهره، والضفدع يرشده حتى وصلا .. ووجد القرد يجلس في أعلى الشجرة فحياه هشام ورد القرد التحية على خادم النهر بترحاب زائد عظيم وقال القرد:

- يا خادم النهر طالما سمعت عنك طيب السيرة وكم كنت أود لو تعرفت عليك من قبل فإنه يسعدني معرفة الطيبين ذوي السيرة الحسنة، ولقد خسرت كثيراً بفوات هذه المدة دون التوصل إليك وتوطيد الصلة بك وتوثيقها معك وعلى أية حال فأرجو أن يكون في مقبل الأيام عوضاً عما مضى منها فإنه يسعدني أن أقدم لك ما جل وعظم من خدمات..

- لقد أسعدني لقاؤك وكم في لقياك من تخفيف للهموم وإزالة للأحزان..

- أوَ حزين أنت؟

- كيف لا أحزن وأنت لا يخفى عليك أمري صرت حبيساً بسبب عدواني على بيض التماسيح، وما تناولته إلا لحاجة شديدة وما حسبته عدواناً إلا بعد أن قاسيت الجزاء القاسي..

- لقد أسفت كثيراً عندما سمعت بقصتك وأرجو أن يكون خلاصك

قريباً . .

ـ كلا . ليس قريباً، فما زال بيني وبين المدة التي سأقضيها على الحالة التي ترى زمن طويل طويل. .

ـ ولكنه مهما طال سينتهي، وصبحك بعد الليل آت كالأمل المشرق وهو يقترب منك يوماً بعد يوم ولحظة بعد أخرى، وهذا أدعى إلى نمو التفاؤل مع مضي الأيام وانقضاء الزمن. .

ـ إن أخشى ما أخشاه ألا أعيش حتى أرى نفسي إنساناً كما كنت ولهذا جئتك أتعجل انقضاء الوقت وسرعة الخلاص. .

ـ أوَ قادر أنا على ذلك؟

ـ أكبر ظني أنك تستطيع مساعدتي فقد بلغني عنك رجاحة العقل وعظيم الحيلة. .

ـ يسعدني أن أقدم خدماتي لخادم النهر الذي عهدنا فيه الخير والبر بالجميع فما حاجتك؟

ـ إن رئيس التماسيح قد خفف الحكم بأن جعله مرهوناً بإنجاز عمل لا بانتهاء زمن، ولو استطعت إنجاز هذا العمل فسيكون وثيقة خلاصي وإطلاق سراحي وعودتي إنساناً كما كنت من قبل.

ـ هذا خبر عظيم وسار، فما هو هذا العمل؟

ـ أن أصنع تاجاً من أحجار الماس التي تتناثر بكثرة في قاع النهر . . فقال القرد في نفسه:

ـ آه لو كانت لي قدرة على الغوص. . .

ثم استطرد هشام «وقد كنت ظننت أن الموضوع سهلاً ولكن رئيس التماسيح اشترط على أن يكون الماس مصقولاً. .

ـ مصقولاً؟

ـ نعم وهنا تكمن العقدة .. فالصقل يحتاج خاصة الخاصة من صناع الحلي ولا سبيل إليهم .. وإن وجد السبيل فلا حيلة في التفاهم، ولن أقدر على التفاهم إلا إذا كنت إنساناً، ولن أكون إنساناً إلا بعد تقديم التاج المرصع بالماس المصقول، وهكذا يا صاحبي نبدأ التفكير حيث ننتهي وننتهي لنعاود الدوران ويعاودنا الدوار في الحلقة المفرغة...

ـ آه .. فهمت .. فهمت الآن فهمت تماماً وإنها مشكلة .. مشكلة عويصة يا صاحبي ولكني لن أتخلى عنك في هذه الظروف العصيبة التي تحتاجني فيها وسأساعدك على الخروج من هذا المأزق فتصل إلى بغيتك وتحقق مرادك.

ـ أو قادر أنت على مساعدتي في تجهيز التاج؟

ـ بالطبع .. فإن لكل عقدة عندي حلاً. ولكن أمرنا هذا يحتاج لجهد جهيد وصبر نافذ وقد يكلفنا ذلك الكثير ...

ـ ماذا يكلفنا؟

ـ إني أقوم لك بهذا العمل مقابل أجر وإن هذه مهمة شاقة لا أقوم بها لأحد غيرك...

ـ لعلي أقدر على تقديم الأجر المناسب فما يكون الأجر وكم يكون؟

ـ أما الأجر فيكون من أحجار الماس الخام .. وأما قدره فلست بمستطيع أن أجيبك عنه الآن لأن العمل صعب ويستغرق وقتاً طويلاً .. والأفضل أن نقطع العمل على مراحل ثم نتفق على أجر كل مرحلة.

ـ هذا عظيم أوافق عليه ..

ولكن ماذا ستصنع أنت بأحجار الماس الخام.

ـ آه الماس الخام إني أحبه .. أحبه كثيراً .. ألا تحب أنت الماس وهو أعظم الجواهر؟

ـ كنت أحبه عندما كنت إنساناً فكنت أرى فيه دراً عظيماً وكنت أتمنى لو أن لي قطعة منه، أما الآن وأنا على هيئتي هذه فلا أرى فيه شيئاً على الإطلاق ولا أحس نحوه بأدنى رغبة في الاقتناء وهو لا يفضل عندي أي حجر آخر من الحصباء التي تغطي قاع النهر وشواطئه .. وعودتي كما كنت إنساناً هي أثمن ما تهفو إليه نفسي الآن ..

ـ أنت الآن يا عزيزي لن تحس بقيمته إلا إذا أصبحت إنساناً وعندئذ تحس بقيمة الأشياء على حقيقتها.

ـ حقاً إن الإنسان بما فطر عليه أقدر على الإحساس بقيمة الجواهر، ولكنك أنت لست إنساناً ورغم هذا فإنك تحبه كثيراً.

ـ أنا؟ لست إنساناً؟ ... هذه قصة طويلة يا صاحبي .. إيه أنا أشعر أنني إنسان ولكنهم ... جميع من لقيتهم يقولون غير ذلك .. ولكن دعك من هذا ودعك من قصتي فإنها طويلة لننظر فيما بين أيدينا من عمل .. سأقوم من الآن بإعداد مكان متسع في أعلا هذه الشجرة أستطيع أن أعمل فيه بهدوء وأفحص أحجار الماس وأتخير منها المناسب وأشرع في صقله.

ـ بم ستصقل الماس وكيف ستصقله؟

ـ هذه أمور معقدة يا صاحبي يطول شرحها وأحب أن أريحك منها فلا تفكر فيها واترك لي التفكير فيها وضاعف اهتمامك وجهدك في جمع أحجار الماس الخام وضعها لي عند أسفل الشجرة وسأنقلها إلى المكان المخصص لذلك، إلى المعمل الجديد في أعلا الشجرة حيث

أقوم بفرزها وتصنيعها.

ـ والأجر؟

ـ آه . . الأجر : هذه مرحلة بناء المعمل . . التي لا يمكن للعمل أن يبدأ بدونها وأجرها بسيط . . .

ـ كم؟

ـ مائة قطعة في حجم الليمون . . .

ـ بسيط هذا الأجر . . .

ـ هذا ثمن فروع الأشجار اللازمة للمكان ومائة أخرى لتصعيدها إلى أعلى الشجرة . .

ـ وافقت . . .

ـ ثم تبقى مائة ثالثة لربط هذه الفروع وبناء المعمل . .

ـ سأذهب الآن وأبدأ في إحضار ما طلبت وعليك أن تشرع في تجهيز المعمل فوراً لتوفير الوقت . .

ـ يا صاحبي أريد أن أصارحك بأن التجارب التي مررت بها في المعاملات كثيرة وقد علمتني دروساً قيمة وأنا لا أبدأ العمل إلا إذا قبضت الثمن أولاً؛ أعني أن تأتني بالمائة قطعة الأولى فأحضر الأخشاب وفروع الأشجار وتحضر الثانية فأرفعها لأعلى الشجرة وتحضر المائة الثالثة فأقوم ببناء المعمل وتجهيزه، ثم يكون بعد ذلك التعامل بيننا على هذه الصورة، وإن وضوحها لا يثير خلافاً في مستقبل العلامات بيننا . . .

ـ استمع هشام إلى هذا الحديث وتعجب لطريقة القرد في التعامل ولكن ما الفارق بين أن يقبض الثمن أولاً وآخراً ما دام هو آخذه في كلتا الحالتين . . وأحجار الماس متوفرة في قاع النهر . . . ثم أومأ

هشام للقرد بالإيجاب واتجه نحو قاع النهر يجمع له المائة الأولى.

وبدأ بالأدنى وكان لا يستطيع أن يحمل في فمه أكثر من قطعتين في وقت واحد وظل يتحرك بين الشجرة وقاع النهر بقوة الأمل الذي بدأ ضياؤه والقرد يتناول القطع التي يأتي بها هشام ويقلبها بين أصابعه وهو جذلان مغتبط ثم ينقلها بدوره ويخبئها في أعلى الشجرة بين مفترق شعاب الأغصان، ولما أتم هشام نقل المائة الأولى توقف للراحة وقال للقرد:

ـ ها قد أتممت المائة الأولى.

ـ إنهـا لـم تبلغ المائة بعد وينقصها ست قطع حتى تبلغ تمام المائة . . .

ـ إني متأكد أنها مائة وقد غصت إلى قاع النهر خمسين مرة آتيك في كل مرة بقطعتين .

ـ يا صاحبي يلزمك وأنت تتعامل معي أن تثق دائماً بما أقول وإني لا أكذب . . .

ـ تحرك هشام نحو قاع النهر ثلاث مرات وعاد كل مرة بقطعتين وعندئذ قال القرد:

ـ «الآن تم العدد» وأخذ هشام يستريح وشرع القرد بهمة عظيمة في جمع أغصان الأشجار حتى جمع منها قدراً كبيراً ثم قال لهشام:

ـ والآن إلى المرحلة الثانية ائتني بالمائة الثانية وضاعف الهمة حتى ننتهي من صنع التاج.

ولما رأى هشام القرد على قدر كبير من الهمة والنشاط والاهتمام زاد أمله، وقال للقرد:

تولى أنت العد معي وأخذ يتحرك بسرعة عظيمة بين قاع النهر

والقرد، وهو على جانب كبير من النشاط والقرد يستحثه حتى بلغ العد مائة فقال القرد:

- أحضر لي ثمانية أحجار إضافية حتى يتم العدد مائة .

- ولكن العدد قد اكتمل. .

- أعلم ذلك توجد منها ثمانية غير صالحة وأنت طيب القلب فأحضر لي عوضاً عنها . . .

- أحضر هشام الثمانية قطع ورضي القرد بعد نجاحه في إضافة المزيد من أحجار الماس الخام على اتفاقه، ثم شرع فوراً في رفع أفرع الأشجار التي حصل عليها إلى أعلى الشجرة. . وهو يعمل في آخر وقته كأنه في بدايته وكان البشر الذي يعلو وجهه بادي الأثر. . .

وأنهى هشام الدفعة الثالثة بعد إضافة بعض القطع الزائدة على المائة كما هي العادة، وأخذ يتأمل القرد وهو ينهي بناء بيت عظيم في أعلى الشجرة وقد تم تجهيزه في غاية الإحكام وقد استغرق في إتمام بنائه عدة أيام، وهشام يرقبه بعين الأمل والقلق لتعجله الخلاص.

ومضت بعد ذلك فترة طويلة حتى تمكن القرد من نقل أحمال ثقيلة من أحجار الماس الخام إلى البيت في أعلى الشجرة، وكادت أفرع الأشجار تئن تحت وطأة هذه الأثقال وكلها قد حملها هشام من قاع النهر وأجهد نفسه إجهاداً لا يقدر عليه أحد وكان هشام بجهوده الدائبة المضنية قد دفع الثمن الذي اتفق عليه من القرد أضعافاً مضاعفة وظل بعد ذلك تحت الشجرة ينتظر وفاء القرد. . وطال انتظاره وهو يناديه كل يوم ليطمئن على سير العمل في تجهيز التاج والقرد يتعلل في الإجابة عليه فيرد عليه أحياناً ويلوذ بالصمت حيناً آخر وهشام يتعجل ثمار جهوده التي بدأها ووفى بها لأنها تحمل له الخلاص . . وأخيراً

خرج القرد من البيت الذي بناه وهو يحمل بين يديه التاج الذي صنعه غاية في الدقة والروعة والإتقان والجمال ونادى التمساح خادم النهر . . . فرفع هشام نظره إلى أعلى وبهره منظر التاج الرائع الأخاذ . . وصاح من شدة الفرح . .

ـ آية في الروعة ـ كم أنا شاكر لك جميل صنعك، حقاً إن هذا العمل العظيم جدير بصبر كبير وإن مجرد رؤيته تنسي الأيام القاسية التي انتظرتها على أحر من الجمر والقلق يساورني كل دقيقة وكل لحظة .

ـ فأخذ القرد يقلب التاج بين يديه وينظر إليه بإعجاب وقال لخادم النهر:

ـ هل أعجبك؟

ـ ومن هذا الذي لا يعجبه هذا العمل الرائع. . . ؟

ـ لا أظن أحداً بقادر على هذا.

ـ أوَسيتوج رئيس التماسيح نفسه بهذا التاج؟

ـ نعم وسيكون عندئذ غاية في الروعة وإن هذا سيزيد من قدره عند حيوانات البحر جميعاً. . .

ـ وأنت ماذا ستصبح بعد ذلك . .

ـ سأعود كما كنت إنساناً وفي هذا خلاصي وراحة نفسي ومناها . .

ـ وأنا . . ماذا تراني بعد ذلك . . ؟

ـ أنت . . كم يحمل لك قلبي من التقدير العظيم للجهد الذي بذلته والذي سيساعدني على الخلاص.

ـ ليس هذا الذي أقصده . .

ـ ماذا تقصد؟ لم أفهم . . .

ـ إن سيد التماسيح لم يفعل شيئاً حتى يستحق أن يتوج بهذا التاج العظيم. وليس من العدل أن تذهب جهودي التي تشهد بأنها عظيمة لينتفع بها سيد كسول..

ـ ولكنه غير الحكم وخففه.

ـ هذا صحيح ولكن الحكم الصادر وتنفيذه لا يعنيني من قريب أو بعيد.

ـ ولكنه يعنيني ويحمل خلاصي...

ـ هذا صحيح وما دخل سيد التماسيح أن ينعم بجهودي أنا .. والتي لا يقدر عليها غيري.

ـ هو لن ينتفع بجهودك، أنا الذي سأنتفع بهذه الجهود.

ـ ولكن ثمارها الأخيرة والتاج الذي صنعته سيذهب إلى رأس سيد التماسيح ..

ـ ليس في الأمر غضاضة فالأمر بيع وشراء فقد باع لي سيد التماسيح خلاصي ما أنا فيه بتاج آتيه به. وبعتني أنت التاج بما تنوء به هذه الشجرة من أحجار الماس الخام...

ـ إن التاج الذي صنعته يداي لا أدفع به إلى رأس سيد كسول فينقلب ملكاً دون أن يكون مستحقاً للملك .

ـ ماذا تعني ؟ ألن تعطيني التاج؟

ـ التاج؟ أأعطيك إياه؟

ـ بلى .. أليس من حقي ؟

ـ يبدو أنك نسيت الاتفاق.

ـ كلا لم أنسه ولكني وفيت الثمن الذي طلبته مضاعفاً.

ـ إنك لم تسدد ثمن صناعته بعد، وأحب أن أذكرك بأنني اتفقت

معك على أن يقسم الثمن على مراحل.
ـ هـذا صحيـح وقـد انتهـت جميـع مراحل صناعته وسددت ثمنها....
ـ يا صاحبي: إنك قليل الخبرة في أصول المعاملات وهذا هو سبب عدم إدراكك لما أقول..
إن الأمر الذي اتفقنا عليه غاية في البساطة وليس فيه ما لا يفهم..
ـ ألم أقل لك إنك قليل الإدراك حتى ولو كان الأمر غاية في البساطة؟..
ـ كيف؟
ـ إن الثمن يدفع على مراحل وهذه هي مرحلة استعمال التاج، ولم نتفق على ثمنها.
ـ كلا لم نتفق إلا على صناعته وأنت تعلم منذ الوهلة الأولى أنني سأعطيه لسيد التماسيح ثمناً لخلاصي ولم يكن لاستعماله أي ثمن في الاتفاق.
ـ يا صاحبي ألم أقل لك إنك قليل الخبرة، حديث عهد بالمعاملات والبيع والشراء وقد أجهدتني كثيراً من إفهامك وأنت لا تفهم .. ولا أحب أن أجهد نفسي أكثر من ذلك...
ـ والوفاء بالاتفاق...
ـ أتعني أنني لا أفي بالاتفاق، يا صاحبي إن حديثك يزيد الموضوع تعقيداً...
ـ أنت طلبت ثمناً لجهدك ووفيتك الأجر وأكثر فأعطني التاج فهو من حقي الآن وقد كنت أنت على علم سابق بما ستفعله بهذا التاج.
ـ علمي بأنك ستعطي سيد التماسيح التاج شيء.. ودخول استعمال

التاج في الاتفاق شيء آخر.

ـ أتعني أنك ستحتاج ثمناً جديداً لاستعمال التاج؟

ـ هذا شأني أفكر فيه.

ـ أتقصد التفكير في حجز التاج عندك حتى تقدر الثمن الخاص باستعماله والذي لم يكن في اتفاقنا أصلاً؟

ـ يا صاحبي لقد أرهقني الحديث معك لقد اتفقنا على صناعة التاج مقابل ثمن .. وأنت دفعت الثمن وقد أتممت أنا صناعة التاج وإلى هنا يتم الأمر وتنتهي الصفقة.

أما أن أسلمك التاج وتعطيه أنت لسيد التماسيح فقد أعلمتني بهذه الرغبة ولكن لم يتم الاتفاق على ذلك .. وأكرر لك حتى لا تنسى فإن الاتفاق تم فقط على صناعته .. ولاستعماله ثمن أفكر فيه.

ـ لقد انتهيت أنا من دفع الثمن وكله من أحجار الماس الخام وقد تسلمتها ووضعتها فوق الشجرة..

ـ هذا بعض الثمن وليس كل الثمن وهو ثمن مرحلة وليس ثمناً لبقية المراحل .. ثم ما الفرق بين أن يكون الماس في قاع النهر أو فوق الشجرة أين هو الثمن؟

ـ الفرق هو جهدي وتعبي الذي بذلته في نقله من قاع النهر حتى سلمته إليك وإذا كنت لا ترى في ذلك فرقاً .. فألق بكل ما عندك في قاع النهر فتدرك عندئذ هل يوجد فرق أم لا؟

ـ يا صاحبي : إني سأنصحك لأنك لا تفهم ، هل تظن أنني أعطي عدوي سلاحاً مقابل ثمن ثم يعود هو بدوره يستخدم السلاح في قتلي؟

ـ كلا هذا غير معقول...

ـ إذن الآن بدأت أنت الفهم، وليس من المعقول أن أعطي سيد

التماسيح تاجاً أصنعه بيدي.
ـ ولكن التاج ليس سلاحاً..
ـ لو استمر حديثك يحمل إلي الغباء بعد ذلك فلن أرد عليك.
ـ أنا لست غبياً، أنا صاحب حق واضح أطالب به أعطيتك ثمن التاج وأريد تسلمه كما تسلمت أنت الثمن.
ـ لو أعطيتك التاج ليضعه سيد التماسيح على رأسه ويصبح ملكاً تدين له حيوانات البحر أكون بذلك قد ساهمت في تقوية عدوي هل فهمت أيها الغبي؟
ـ وجهدي، هل يضيع هباء؟
ـ لا، فإنك قد ساهمت بجزء من ثمن التاج.
ـ والتاج؟
ـ يبقى معي...
ـ وماذا جنيت من تعبي وشقائي وجهدي؟
ـ هذا شأنك وليس شأني ولست مسؤولاً عن قلة خبرتك بأصول الاتفاقات ومبادىء المعاملات.. وقد علمتك الآن أصولاً تهديك إلى الرشد في كيفية عقد الاتفاقات وقبضت ثمن تعليمك.
ـ والتاج؟
ـ هو ملكي وأنا صنعته وأنا أولى أن أتوج نفسي به فتدين لي حيوانات البر والبحر على السواء.
ثم وضع القرد التاج على رأسه.. وقال لخادم النهر.. ما رأيك في شكل التاج على رأسي؟.. أليس عظيماً..؟
ـ إن أعظم من ذلك أن تعطيني حقي وتسلم لي التاج.
ثم غير القرد موضعه وجلس على فرع يشرف منه على النهر ووضع

رجلاً فوق أخرى ومط رقبته وأمال رأسه كبراً والتاج فوق رأسه .. وقال لخادم النهر ...

«ما رأيك في هذه الجلسة»...

ويئس خادم النهر هشام من استعطافه وتذكيره بالوفاء، والقرد لا يفتأ يسأله عن رأيه في جلساته المتعددة التي تطفح بالكبر والتعالي والغطرسة إمعاناً في الإغاظة والكيد والإثارة .. ومضت عدة أيام على هذه الحال لم يترك فيها خادم النهر وسيلة من وسائل الاستعطاف إلا استخدمها .. وذهبت محاولاته في استخلاص التاج من بين أيدي القرد أدراج الرياح.

وبقي تحت الشجرة منتظراً وقد تملكه اليأس والحيرة فيما يفعل والقرد فوق رأسه تنتفخ أوداجه كبراً؟

أيقظ القرد مرة خادم النهر وكان ينام تحت الشجرة وقال له:

ـ يا خادم النهر .. يا خادم النهر ..

استيقظ خادم النهر ونظر إلى القرد في أعلى الشجرة ورد عليه قائلاً:

ـ نعم يا صاحبي.

ـ وجدت حلاً.

ـ خيراً..

ـ ثمن استعمال التاج...

فبدأ خادم النهر ينتعش لما سمع وقال:

ـ هذا خبر طيب ولعلي قادر على الثمن !!

ـ نعم فإنه بسيط وأحب أن أوفي باتفاقي وآخذ ثمن استعماله ويكون الثمن غاية في البساطة..

ـ فما يكون الثمن؟
ـ عشر قطع من الأحجار الكبيرة. .
ـ من أحجار الماس الخام. .
ـ كلا من الأحجار العادية المتناثرة على الشاطىء.
ـ هذا ثمن بسيط ولكن ماذا ستفعل بها. . .
ـ لا شيء إنها فقط مقابل استعمالك للتاج فلا أريد أن تكون مرحلة استعماله مجاناً بدون مقابل ولا أريد أن يكون ثمنها باهظاً يحول بينك وبين أدائه إنه مجرد رمز فقط وكل ما أشترطه أن تكون الأحجار كبيرة. . .
ـ انطلق خادم النهر إلى شاطىء النهر وانتقى أكبر الأحجار وحملها إلى أسفل الشجرة وكان القرد كلما بعد خادم النهر لإحضار حجر نزل ورفع الحجر بسرعة إلى أعلا الشجرة حتى رفع تسعاً منها ولما جاءه خادم النهر بالعاشرة . . . قال القرد: «يا خادم النهر تكفي التسع التي تسلمتها ولا حاجة لي بالعاشرة. . ».
فقال خادم النهر:
ـ هلم أعطني التاج . . .
ـ فتناول القرد التاج بين يديه وقال لخادم النهر: سأرمي لك بالتاج وعليك أن تلقفه بفمك وإياك أن تكسره لأنني لن أقوم بتصليحه . . .
ـ فوقف خادم النهر تحت فرع من فروع الشجرة الكبيرة حيث أشار له القرد وفتح فمه ليلقف التاج وقد عمه فرح عظيم لهذه النهاية الطيبة . . ووقف القرد فوق رأسه ممسكاً بالتاج ليلقيه إلى خادم النهر وقال له سأعد لك ثلاث عدات ألقيه لك في العد الثالث.
فقال خادم النهر: «فهمت» وفتح فمه ليلقف التاج فقال القرد:

واحد، اثنين، ثلاثة . . وبدل أن يرمي بالتاج أسقط حجراً كبيراً دخل في فم خادم النهر، هشام المسكين. فصرخ صرخة عالية من شدة الصدمة وأخذ يتقلب من شدة الألم مبتعداً عن الشجرة ثم أغشي عليه من شدة الألم والقرد يضحك ملء فيه ويقفز قفزات متتالية وكان ينوي قتل خادم النهر ـ هشام المسكين ـ ليريح نفسه من سماع صوته وهو يطلب حقه . . .

مضت مدة طويلة قبل أن يفيق المسكين هشام ـ خادم النهر ـ ليجد نفسه قد فقد بعض أسنانه وأن رقبته قد أصابها التواء لا يستطيع تحريكها. وكانت نفسه قد بلغت أقصى ما يبلغه ألم النفس وخاصة وأن قلبه كان طاهراً طيباً لا يعرف الحقد والغيظ والبغض والخبث والمكر السيء . . .

وأخذ هشام يجر نفسه جراً نحو النهر بعيداً عن شجرة الجميز التي يقطنها القرد. . وجاءه الضفدع الصغير فوجده على حالته هذه السيئة فسأله في لهفة . .

ـ ما الذي حدث . . . ؟

ـ ولم يستطع خادم النهر أن يجيب ولكنه أشار إلى القرد أعلى الشجرة. .

فنظر الضفدع الصغير فوجد القرد ينظر إليه بعينين ملؤهما الريبة والتحفز ثم وجد الحجر الكبير وبعض أسنان خادم النهر التي سقطت وأثر الدماء التي نزفت ثم آثار حركته التي أبعدته عن الشجرة.

ـ فقال الضفدع الصغير للقرد:

ـ ما الذي حدث لخادم النهر . . ؟

ـ مسكين جئت ألقي إليه بالتاج فسقط مني هذا الحجر عفواً فصدمه

في فمه . .

ـ قال الضفدع الصغير : هل كان هذا الحجر فوق الشجرة . ؟

ـ نعم . .

ـ وما الذي رفعه إلى أعلى؟

ـ خادم النهر أتاني به جزءاً من ثمن تجهيز التاج.

ـ لست بقادر على الفهم، نحن نعلم أنك مولع بأحجار الماس الخام ولكن هذا حجر ليس له أي فائدة لك.

ـ كلا إني أستعين به في تثبيت أركان البيت . . وكان القرد في إجابته بادي التردد والاضطراب كأنه يخفي الحقيقة . .

ـ إذن فأعطنا التاج حتى نفك أسر خادم النهر.

فاضطرب القرد . . وقال :

التاج . . التاج سأحتفظ به حتى يبرأ خادم النهر ولا أعطيه لأحد سواه . . ثم إن التاج يحتاج مني إلى النزول من الشجرة وأنت كما تراني متعباً مرهقاً ولا أستطيع النزول . . .

توجه الضفدع الصغير إلى النهر وأخذ يحمل الخبر إلى جميع الضفادع قائلاً لهم :

«إن القرد رمى صديقنا خادم النهر بحجر كبير أصابه في فمه وحطم أسنانه ولوى رقبته وأسال دمه» وسرعان ما انتشر الخبر في طول النهر وعرضه وتجمعت الضفادع من كل مكان حول خادم النهر تشاركه حزنه وتخفف ألمه.

واحتارت الضفادع فيما تعمل لمساعدة خادم النهر ومعالجة جرحه وفيما تعمله مع القرد بعدما علمت قصته من الضفدع الصغير وقالوا فيما بينهم لن يسعفنا بالرأي إلا الضفدع الكبير وكانوا قد تذكروا أن لهم

ضفدعاً شيخاً كبيراً قد حنكته التجربة وأكسبته حكمة عظيمة فأرسلوا له وطلبوا إليه الحضور ليطلع على حالة خادم النهر ويشير عليهم بما يفعلون لمساعدته في الحصول على حقه فجاءهم الضفدع الكبير وحياهم فردوا عليه التحية وقال لهم:

«خيراً ماذا وراءكم».

أجابه الضفدع الصغير وقال له:

«إن خادم النهر طلب منه إحضار تاج من الماس المصقول لسيد التماسيح لقاء فك قيده وإطلاق سراحه وعودته كما كان إنساناً من قبل، وما عهد فيه سكان النهر إلا كل خير فجئت معه إلى صاحبنا القرد لتجهيز هذا التاج وقد قام خادم النهر بالوفاء بثمنه أضعافاً ولكن القرد بدل أن يسلمه التاج المتفق على صناعته ألقمه حجراً كبيراً أسال به دمه وحطم بعض أسنانه ولوى رقبته وهو على حاله السيئة التي تراها نتيجة لعدوان القرد، ولا نجد طريقة نستخلص بها هذا التاج من أيدي القرد ليسترد خادم النهر حريته...»

فأجاب الضفدع الشيخ متعجباً...

«ألكم عند القرد حاجة»؟

ووجه حديثه للضفدع الصغير قائلاً:

يا بني، إنك طيب القلب سليم الطوية لا خبرة لك بالمخلوقات وكان الأجدر بك أن تسأل عن هذا القرد وأصله قبل أن تتورط أنت وصاحبك خادم النهر في التعامل معه، وهو على حاله فوق هذه الشجرة معزولاً عن المخلوقات لكثرة إساءاته وإيذائه وكل الخلق يتجنبونه وينأون عنه فما الذي أوقعكم معه ...؟

قال الضفدع الصغير: «الحاجة».

«القرد يقضي لكم حاجتكم ؟ يا بني إن نجوم السماء أقرب إليكم من حاجتكم في يد هذا القرد. هل تعرفون أصل هذا القرد؟...».

ـ قالت الضفادع ...

ـ لا ..

ـ إذن فاسمعوا ...

«إن هذا القرد الذي ترونه كان إنساناً عظيماً سوياً جميلاً غاية في الجمال وآية في الحسن، لا تمله عين الناظر ولا تتحول عنه وجوه المعجبين يرف على الدنيا كلها تيهاً وخيلاء، وتشعر المخلوقات كلها إلى جواره بالبون الشاسع والفارق العظيم وكان يسعدها كلها أن تتقرب إليه وتتودد. وكان مما يسعدها أن تكون في خدمته لأنها عشقت فيه هذا الجمال المفرط والحسن الفياض، وتسابقت المخلوقات فيما بينها لإرضائه: طيور السماء وأسماك البحار وحيوانات البرية كلها .. حتى النبات : كان يسعد الأشجار الكبيرة أن تظله بورقها من وهج الشمس ، والورد والزهر والريحان كانت تتمايل فخراً إذا تعطف وشم عبيرها الفواح.

ولكنه لم يفهم أن هذه المخلوقات كلها تحبه بل رضخ لوسوسة الشيطان وفسر حب المخلوقات الظاهر له بأنه عبادة فأخذه الكبر ولم يعد يبادلها حباً بحب وتعالى عليها كلما توددت إليه، وظل الكبر يعلو في نفسه رويداً رويداً فساء لذلك عمله واسودت طويته وكلما ساء عمله واسودت طويته قل جماله المشرق وما زال جماله يقل يوماً بعد يوم حتى انتهى، ولم تعد المخلوقات تشعر بشعورها السابق نحوه فازداد نحوها كراهية .. وأخيراً وقعت الواقعة الكبرى فقد عصى ربه هو وجماعته التي كان ينتمي إليها .. أمرهم الله ابتلاء لهم واختباراً

لطاعتهم ألا يصطادوا السمك يوم السبت وكان السمك يأتيهم بجموع هائلة يوم السبت ولا يأتيهم بقية الأيام، ولكنهم لم يصبروا على طاعة الله واحتالوا على صيد السمك بأن كانوا يحجزونه بحواطات كبيرة فإذا ولّى يوم السبت أخذوا يصطادون ما حجزه وظنوا بذلك أنهم يحتالون على الله .. هؤلاء الذين نزلت عليهم التوراة فكفروا بها فقال لهم الله «كونوا قردة خاسئين».

وهذا واحد منهم.

يسوءه أن يعود خادم النهر البر الأمين إنساناً سوياً كما كان ويبقى هو على حاله، كما يسوءه أن يتوج سيد التماسيح فيصبح ملكاً على بقية حيوانات البحر..

وهو لا يفي بعهد بل يكذب ويغدر وليس بقادر على أن يهجر أخلاقه الرذيلة التي مسخته قرداً قبيحاً ولا أرى لكم حلاً إلا أن تقسروه بالقوة على ما تريدون من حقكم.

وهنا نترك الضفادع تتشاور فيما بينها عما تفعله لمساعدة خادم النهر بانتزاع التاج من أيدي القرد وعن مصير القرد بعد إسقاطه الحجر لقتل خادم النهر .. لنتابع الأمين بعد أن فوجىء بحقيقة الوزير الكاذب الغادر وأمر ملك الدوشيم بقطع رأسه بالسيف..

وكان أن حمد الله على نجاته من كيد الوزير وخرج الجميع من ذلك القصر يتقدمهم الملك والأميرة تاتي تركب خلفه والأمين بجواره على التوتان والحاشية خلفه ومر الجميع في طريق عودتهم إلى مملكة الدوشيم بالبحيرة العظيمة التي ألقى فيها العرقاب سيف الأمين البتار فوقف الأمين وقال للملك:

إن السيف الذي أهديته لي ألقي في هذه البحيرة وسأحاول إخراجه

حتى أتمم رحلتي في البحث عن صديقاي.

قال الملك: «وأنى لك أن تخرج البتار والبحيرة عظيمة العمق»؟.

أعلم ذلك وسأفكر في حيلة لإخراجه وما كنت مفرطاً في هدية منحتني إياها وهي عدتي الآن وسلاحي.

وأبدى الملك رغبته في البقاء بجوار الأمين حتى يخرج السيف البتار ولكن الأمين ألحَّ على الملك بضرورة العودة وشكره كثيراً على مساعدته، وبعد حديث طويل تمكن الأمين من إقناع الملك بالعودة إلى مملكته ومعه ابنته الأميرة تاتي وباقي حاشيته وقبل أن يتحرك الملك بموكبه قال للأمين:

«سأبقي معك هذا الجنداب فإذا كانت لك حاجة تحب أن أقضيها لك فابعث إليَّ برسالة معه وسوف نساعدك على الفور».

شكر الأمين الملك الذي تركه ورحل، ولم يبق معه إلا الطائر الذي يحمل الرسائل و«التوتان» والسيف الذي استعمل في قطع رأس الوزير، ونزل الأمين للجلوس على شاطى البحيرة مفكراً فيما يفعل وهو ممسك بلجام التوتان لا يتركه من يده، ونظره متجهاً نحو البحيرة لا يتحول عنها، وعنَّ له أن يتعلم السباحة والغوص ليخرج البتار بنفسه ولكنه خشي إن ترك «التوتان» أن يفتقده كما حدث في المرة الأولى فظل في تفكيره الذي استغرق فيه وأجهده إجهاداً عظيماً.

وجاءه العرقاب الذي رمى بسيفه إلى البحيرة يحوم في السماء فوق رأسه، ثم حط أمامه وبلسان عربي فصيح سأل الأمين:

«مالي أراك مستغرقاً في التفكير».

أجاب الأمين «أغرقني فيه تعاونك مع وزير غادر ورميك سيفي البتار في هذه البحيرة استجابة لطلبه وتركي مجرداً من هذا السيف».

- لم أكن على علم بما يدور في خلده وما يجري في تفكيره . . ولم أقم إلا بما أمرني به استجابة لأمره وقد كان وزيراً ونحن قد جبلنا على طاعتهم . .

- الطاعة واجبة عليك ما لم يكن الأمر شراً وغدراً وخيانة .

- وما أدراني بأن ذلك شراً وليس في طبعنا القدرة على التمييز بين الفعل الذي نؤمن به وبين نية صاحبه .

- لك العذر في ذلك ولعل الله يهديك إلى تصحيح خطأ اشتركت في فعله والتكفير عن ذنب كنت فيه طرفاً .

- لم آتك إلا بهذه النية وأريد أن أساعدك في الحصول على سيفك البتار الذي يرقد في قاع هذه البحيرة .

- وهل لك قدرة على مساعدتي وميدانك السماء تطير فيها كما تشاء وليست لك القدرة على السباحة أو الغوص . ؟

- لن أنتشله بنفسي ولكن آتيك بمن يساعدك وأشترط عليك شرطاً إن جئتك بمن يساعدك .

- وما هو الشرط . . . ؟

- أن تصفح عني وأن تسامحني وألا يكون في صدرك علي بعد هذه اللحظة حفيظة أو موجدة أو غضباً تشكوني به إلى الله فإني أحب أن ألقاه نظيفاً طاهراً نقياً ليس في صفحتي من سيء الأعمال والأقوال شيء .

- قد سامحتك حتى ولو لم تأتني بمن يساعدني على إخراج البتار .

- إذاً انتظرني لحظة . . .

وطار العرقاب حتى غاب بعيداً في السماء ناحية الطرف الآخر من البحيرة حيث كان يرقد صديق له هو سبع البحر وطلب منه أن يساعد

الأمين في الحصول على سيفه الذي يرقد في قاع البحيرة وما هي إلا لحظة حتى لمح الأمين سبع البحر قادماً نحوه يشق الماء في سرعة مذهلة والعرقاب يطير فوق رأسه يرشده عن مكان الأمين ولما وصل حياه فرد الأمين عليه التحية ثم قال له:

«ما حاجتك».

سيفي البتار يرقد في قاع البحيرة وأكون لك من الشاكرين لو أتيتني به، فإني لا أجيد السباحة ولا الغوص.

ـ وافقت على إحضاره لك لقاء طلب بسيط.

ـ وما هو ؟

ـ إني أعالج بعض حيوانات البحر وأقوم على تطبيبها وإني في حاجة إلى بعض من عسل النحل كدواء عظيم لمعالجة مرضاي وليس في مقدوري مفارقة الماء للذهاب إلى هذه المرتفعات التي تراها أمامنا حيث يكثر النحل وتكثر خلاياه .. وإذا جئتني بالعسل المطلوب ستجد سيفك أمامك.

ـ وافق الأمين وتحرك على ظهر التوتان نحو الجبل وقبل أن يمضي قال له العرقاب:

ـ إن النحل في هذه المرتفعات كثير ولا يسمح لأحد بالاعتداء على العسل الذي تجهد الشغالة نفسها في ملء خلاياه الشمعية به ولكن الحصول عليه ليس متعذراً إذا حصلنا على إذن من ملكات النحل..

ـ وأنى لي بالحصول على إذن وأنا لا أفهم لغة النحل وليس بيني وبينهم صلة سابقة؟

ـ انتظرني هنا فسأذهب أحصل لك على إذن ببعض العسل، ثم طار العرقاب حتى أتى بملكة من ملكات النحل يقال لها «ميسا» وقبل أن

يقترب من مملكتها ناداها من بعيد، يا ميسا يا من تتيه الورود بتقديم الرحيق لها وينشد المرضى الشفاء من فضل عسلك جئتك بحاجة ويقيني في كرمك عظيم فلطالما عم البقاع جود منك دونه كل جود فما رددت عن عسلك حاجة سائل ولا أمسكت دون أصحابك فضلاً تقدرين عليه. . .

لما سمعت ميسا هذا الكلام الطيب سرت كثيراً لمقدم العرقاب وقالت له:

- مرحباً بالعرقاب الصديق، دونك ما أملك فسل حاجتك عندنا بفضل الله مجابة . . وأبوابنا بفضل الله دونك مفتحة، ففيم الزيارة؟ أوحشة بعد طول غياب أو ذكرانا لا تطوف بك إلا مع الحاجة . . .؟

- أما الوحشة إليك فقائمة كلما بعد عنكم المقام ولكني أصارحك القول ما جئتك إلا ساعياً بخير والأمر بين يديك.

- ما حاجتك؟

- بعثني الأمين وهو صديق من بني الإنسان حلو المعشر عذب الحديث رقيق الحس قويم الخصال.

- فيم بعثك لك؟

- حاجته إلى بعض من فضلك وعسلك يفك به اتفاقاً لزمه.

- كم حببتني في صديقك هذا بوصفك إياه، وسأبذل أقصى ما عندنا من جهد لجمع الرحيق من الأزهار والورود حتى نعد ما يحتاجه صديقك فانتظرنا بضعة أيام وعاود زيارتنا في صحبة صديقك الأمين لأخذ ما تريدون. .

ومضت الأيام وعاد العرقاب في صحبته الأمين لزيارة ميسا ملكة النحل ولما دخلا مملكتها حياها العرقاب كعادته بعبارات حلوة

كالرحيق وردت عليه ميسا بعبارات الود والترحاب.

قال العرقاب: هذا هو صديقي الأمين جاءك لأخذ العسل الذي وعدت به.

قالت ميسا للعرقاب: أرى صديقك بهي الطلعة يفوح منه عبير الخلق الطيب لا يقدر على تمييزه إلا النحل بما جبل عليه من حاسة للشم مرهفة ولكن حدثاً بعد فواتك من زيارتنا الأولى قد حدث لا ندري له سبباً ولم يعرض لنا طيلة العمر يحجب خلفه سراً لا نعرفه وتفسيراً لا ندركه ولغزاً يستعصي علينا حله!!

قال العرقاب : وما هو . . . ؟

ـ قالت ميسا: أمرت الشغالة بالطواف على الورود والرياحين والأزهار لجمع رحيقها لكي نحيله عسلاً للأمين الضيف يزورنا من بني الإنسان فانطلقت الشغالة في البساتين والحقول والجنان الخضراء التي تحيط بنا وهي تغني كعادتها لجمع الرحيق وتقول: «لضيفنا الأمين من بني الإنسان، أعطونا الرحيق يا زهور البستان» وما إن شاع الغناء في أرجاء المكان وامتلأت الدنيا باللحن الجديد حتى أغلقت الأزهار والورود أنفسها بعد أن كانت متفتحة كعادتها وحجبت رحيقها عن الشغالة ولم تر زهرة ولا وردة إلا وانطوت على نفسها. .

وعبثاً تحاول الشغالة أن تطرب الأزهار بالألحان كي تتفتح وتجود كسابق عهدها بالرحيق ولكنها بقيت على حالها، وجاءتني الشغالة كلها بنفس الخبر فخرجت بنفسي أطوف على الحقول والبساتين ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت هذا التمنع شاملاً لكل الأزهار والورود حتى بعد سماعها ألحاني وأنا ميسا ملكة النحل التي كانت الأزهار والورود يزداد تفتحها إذا ملأت أجواءها بأصداح عذاب وغمرت دنياها بأجمل

الألحان حتى زهرة السوسن، صديقتي الجميلة شاركتهم هذا التمنع ولم أفهم الأمر وقلت لعل صديقك الإنسان يجد تفسيراً لذلك فاشرح له الأمر وسله الرأي.

تولى العرقاب شرح الأمر للأمين الذي تعجب جداً لسلوك الورود والأزهار وطلب أن تصحبه ميسا ليرى بنفسه الأمر عله يجد لذلك تفسيراً.

وتحرك العرقاب والأمين في صحبة ميسا كي تريهم البساتين والحقول وما إن وصل الجميع حتى بدأت الورود والأزهار تضطرب بأعوادها التي تحملها نائية بنفسها بعيداً عن الأمين قدر استطاعتها، وقد دهش الأمين جداً لسلوكها. . وطلب من صديقه العرقاب أن تقوم ميسا بسؤال الورود والأزهار عن سبب جفولها وانثنائها بعيداً عن الإنسان. . ولكنها جميعاً لزمت الصمت ولم ترد على ميسا ملكة النحل. أشاح الفل بوجهه بعيداً وأدار ظهره لميسا دون أن يجيب وأسلم الورد نفسه لصمت طويل أمام سؤالها وإلحاحها. . .

كذلك البنفسج والنرجس والياسمين والأقحوان كلها أمالت وجهها للأرض وكأنها لم تسمع ما يقال لها، حتى المنثور الذي يطفح بالبشر ويفيض بالحبور أمال أعناقه بعيداً عن ميسا ولم يحدثها. .

كل ذلك والأمين يشتد عجبه وحزنه وهو الذي لم ير من قبل إعراض الورد واصطناعه الحزن والألم، وتمنى في نفسه لو علم السبب وقام بإزالته لتعود البهجة إلى هذه الورود فتشيع في الدنيا على طولها وعرضها السعادة والبشر وراحة النفس كما كانت تفعل من قبل.

وقفت ميسا ملكة النحل أمام زهرة السوسن صديقتها الحميمة. وقالت لها:

«يا أعز صديقة غلبتني الحيرة فآلمتني وقصرت بي الحيلة فأعجزتني، أرى الورود والرياض كلها غضبى بعد أن كانت ترحب بمقدمي وتطرب لسماع ألحاني وما أعرف لذلك سبباً إلا يكون أمر يسؤهم وأنا ميسا ما كان يحجبهم عن مصارحتي شيء فما بال الجميع على غير عادته في الود والشوق والترحاب وقد عزمت عليك يا أعز صديقة أن تكشفي لي ما خفي عني من دوافع حزنكم وأن تصارحيني بما أصاب أصحابك فقد صممت أن أبذل قصارى جهدي في إزالة أحزانكم وأنتم جميعاً أحبابي..

- قالت زهرة السوسن:

- ألست ترين هذا الذي يصحبك؟

- بلى، إنه الأمين من بني الإنسان، زائر طيب الخلق..

- مقدمه هو السبب في كل الذي ترينه..

- لم وهو لم يزركم من قبل ولم يصدر عنه ما يجعلكم على الحال التي أنتم عليها.

- إنه الإنسان أساء إلى أختنا الكبيرة تاج الزهور إساءة قبيحة ولم يعد يرد المعروف بمثله والفضل بما يستحق من عرفان بالجميل، وما زال مقيماً على إساءته لا يقلع عنها والأفضل أن تسمعي من تاج الزهور قصتها مع الإنسان حتى تدركي مبلغ الإساءة القبيحة التي لحقتها، وما زالت تلحق بها، وأفضل أن تقومي بزيارتها وتستجلي منها حقيقة شكواها وتقفي على مصدر حزنها وأساها، وإذا سألتها فاسأليها بالله أن تتكلم وإلا فسوف تلوذ بالصمت ولا تظفري منها بشيء.

- وتوجهت ميسا من فورها يصحبها الأمين والعرقاب بمقابلة تاج

الزهور ولما وصلوا أدارت تاج الزهور وجهها عنهم ومال عودها ينأى بها بعيداً عن الزائرين وسلمت ميسا عليها فردت عليها السلام وقالت: لولا أن رد السلام واجب لما رددت عليك وفي صحبتك من لا يزال يسيء إلينا ويوجع نفوسنا ويثير جراحنا ويجدد فينا آلاماً نحتال على إسكانها بصبر نستمده من عزاء الأصدقاء والأحباب. .

- قالت ميسا: عجباً يا تاج الزهور ما جئتك إلا بالأحبة الأوفياء وخلص الأصدقاء فمن تعنين؟

- أعفيني من الكلام فلست طالبة منكم لقضيتي نصفة ولا طامعة لشكواي عندكم عدلا، وإنما أشكو بثي وحزني لله الذي خلقني فهو وحده الحكم العدل.

- قالت ميسا: أتاج الزهور عنِّي بشكواها نائية وبعميق أحزانها قاصية؟ كيف وراحة نفسي لا أجدها إلا في صفاء وجهك وإشراق طلعتك وعريض بسمتك، أعنِّي تكتمين هموماً في صدرك ضاربة وأحزاناً بين حناياك لاهبة؟.

- سكتت تاج الزهور ولم ترد ونضحت على أوراقها دمعاً غزيراً ساخناً بادي الأثر. . واضطربت أوراقها وأخذتها رعشة البكاء وأجهدت نفسها في كتم زفراتها التي حوت أصواتاً مختنقة وأنفاساً محتبسة.

- قالت ميسا: هوني عليك يا حبيبة علام كل هذا الوجد والحزن؟ أستحلفك بالله أن تصارحيني ولا تكتميني الحديث، فإن كان في مقدوري إصلاح فعلته وإلا أجهدت نفسي معك في البكاء إذا انقطعت حيلتي وحبس عني الرجاء.

- ميسا: استحلفتيني بعظيم. . ما كان لي بعد ذلك مخرج أتفلَّت به من حديث ولا مهرب أزوغ به من لقاء وما دمت على العلم بحالتي

فلست ممسكة عنك بحس يضطرب في صدري ويزلزل شعوري يا ميسا كم من العمر نعيش معاً . . ؟

ـ قالت منذ زمن بعيد وعمر مديد.

ـ آباؤك وأجدادك كم صحبوا آبائي وأجدادي . ؟

ـ تاريخ ذلك ضارب في القدم موغل في الماضي.

ـ كيف كانت صحبتي لك وصحبة آبائي وأجدادي لآبائك وأجدادك يا ميسا؟

ـ نعم الصحبة تخالطها البشاشة وتغمرها المحبة ويسودها طيب المعشر، ويتوجها خالص الود، رداؤها الصفاء، ووسامها الطهر وشيمتها حسن الجوار.

ـ أصلتك بي هين رباطها أم وثيق عراها؟

ـ بل هي نسيج واحد إذا صنعت أنا سداه نسجت أنت لحمته ثم هي نغم فريد تنظمين ألفاظه وأنشر على الدنيا عذب ألحانه، عرفتك مظهراً ومخبراً وما تمنعي عليّ من قبل كما رأيتك اليوم فلم تكن لذلك دهشتي هينة.

ـ يا ميسا من أسبح ولمن أسجد ومن أعبد؟

ـ تسبحين الله الواحد الأحد . . صباح مساء بلسان على التسبيح مفطور كما أسبحه وهذا الذي جمع بيننا في حب دونه كل حب . .

وتسجدين لله ولا تعبدين إلا إياه وهذا هو الذي حببني فيك وفتح قلبي للتعلق بك . . كم أحب الذين يسبحون بحمد ربهم وله يسجدون ولا يعبدون إلا إياه.

ـ يا ميسا هل رأيت في صحبتك إياي تفريطاً في ذكر الله وتسبيحه . .

ـ على النقيض ما زاد تعلقي بك إلا فرط حرصك على ذكر الله.
ـ أما رأيتني عن ذكر الله كسولة؟
ـ أعوذ بالله من العجز والكسل في ذكره وحمده والثناء عليه.
ـ كيف ترين الشرك بالله يا ميسا؟.
ـ الشرك بالله .. ظلم عظيم وظلام مقيم وهو على صاحبه عمى بئست الصفة نعوذ بالله من الشرك والحمد لله الذي فطرنا على التسبيح..
ولست أدري بعد الشرك ذنباً، فدونه الذنوب جميعاً وليس بعده قبح فهو القبح كله وليس بعده ظلم فهو الظلم كله.
ـ أتذكرين يا ميسا حديثي لك عن الشرك؟
ـ نعم وكيف لا أذكره وقد ازددت بعده من الشرك والمشركين نفوراً، ومن الله الواحد رجاء..
أعيدي عليّ ما قلته لك يا ميسا.
ـ كنت تقولين سبحان الله عما يشركون، الله فطر السماوات ومن فيهن وزينها للناظرين فبدت جميلة تخلب الناظرين إليها بروعتها ورونقها وتألقها، رصعتها النجوم التي تنشر ضياءها لهداية الحيارى، نفوسهم ترشدهم لعظمة الله الواحد الأحد.. وهل شارك الله في خلق السموات أحد. حاشا لله وسبحانه عما يشركون.
وكنت تصفين يا تاج الزهور خلق الله من أرض وبحر وجبل وحيوان ونبات وأزهار، فتسردين في علم بالغ روعة خلق الله وإحسانه، وتعدد نعمائه وآلائه على الخلق، فأجد في حديثك ما يثبت الإيمان بالله وحده ويفتح سمعي وبصري على قدرة الله البالغة في كل ما حولي ومن حولي من خلقه، فيزداد حبي لله مع سياق حديثك، وقد زادك الله

بسطة في العلم والجسم فأصبحت أرى بعين الجمال كل ما حولي فبدت لي الدنيا بعد حديثك جميلة جميلة. وأمسيت أحس بفيض الإيمان يغمرني فينتشي قلبي بسعادة مفرطة كلما أمعنت نظري في خلق الله وآياته التي تعجز الحصر والعد..

أحد أحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ـ ما رأيك فيمن يرميك بالكفر والشرك؟

ـ الكفر والشرك .. أعوذ بالله ما هذه السيرة التي تعكر علينا صفاء الروح والحس والوجدان. أسألك أن نناى عن الكفر والحديث فيه والشرك والكلام عنه فإن ذكره يدل على معناه ومعناه يشرح صفاته ومرور صفاته ولو كطيف أمام مخيلتي يقلب علي نظام حياتي وتتقزز منه نفسي.

ـ أما استحلفتني بالله أن أصارحك وألا أكتمك الحديث؟

ـ بلى.

ـ فهذه شكواي من الزائر الذي جاء معك.

ـ من العرقاب؟

ـ كلا.

ـ الأمين؟

ـ نعم.

الإنسان الذي يرميني بالكفر والشرك.

ـ آه .. الإنسان يفعل هذا؟

ـ هو إلى جوارك فاسأليه.

ـ ماذا قال عنك؟

ـ سماني عباد الشمس، أقبح ما يسمى به مخلوق وشدد علي

عبادتي للشمس إمعاناً في القذف الفادح المفزع الكريه.

أأنا للشمس عابدة يا ميسا؟.

ـ كفاني .. كفاني يا عزيزتي ما هذا الذي أسمعه؟ أصحيح هذا يا تاج الزهور.

ـ لست أفتري عليه وهو إلى جوارك فاسأليه..

التفتت ميسا إلى الأمين تخاطبه والعرقاب يترجم بينهما ..وكان الأمين قد لحظ في وجه ميسا ونبرات صوتها حزناً يعم تاج الزهور ويغمرها.

ميسا ـ أصحيح ما تقوله عنك تاج الزهور؟

الأمين ـ ماذا تقول؟

ميسا ـ تقول إنك ترميها بالكفر والشرك.

الأمين ـ أعوذ بالله. أأنا رميتها بالكفر والشرك ولم أسعد بلقياها إلا الآن ولا برؤيتها إلا لحظتي هذه وكيف تقول عني تاج الزهور إني رميتها بالكفر والشرك وهي لا تعلم عني شيئاً..

ميسا ـ هي أمامك كما ترى مزقها الحزن والأسى بزيارتك التي جددت آلامها وأثارت همومها لما تعلمه من رميك إياها بالكفر والشرك.

ـ يا ميسا: أو يقوم اتهامها لي بلا دليل يسانده ولا بينة تثبت دعواها..

ـ هي أمامك فخاطبها فلعلك تفلح في هدهدة الثائر من جراحها وتسكن اليقظان من آلامها.

ـ لو عرفت لغتها لانتقيت من حلاوة اللفظ وجميل العبارة ما يطيب خاطرها ويزيل همومها ويشفي صدرها ولكن لم أتعلم لغتها.

ـ إنها غزيرة العلم فهي تعلم لغتك.
ـ ما أحلى أن أخاطبها ولكن لم لا تتحدث هي معي؟
ـ إن غضبها وحزنها فاض وجاوز الحد ولم يمنعها من محادثتك إلا هذا.
أحق تدافع هي عنه أم باطل يا ميسا؟ ما علمت حقاً يقعد به صاحبه عن متابعته وظهوره إلا أن يكون غير واثق فيما يدعيه من حق.
ـ أو يكون يائساً من نيل حقه.
ـ أو يأس من روح الله يا ميسا؟
ـ كلا هي مؤملة أن ينصفها الله يوم الحساب ولا أمل لها في أن ينصفها من ظلمها . . . !!!
ـ إذن تاج الزهور ظالمة؟
فما إن سمعت تاج الزهور هذا الكلام حتى طفح الدم في وجهها والتفتت إلى الأمين موجهة إليه الحديث بلغته الفصحى وكانت متهجمة وقالت له:
ـ أأنا الظالمة؟
ـ الآن لا أشك في ظلمك.
ـ ماذا فعلت لك؟ وأنت ما تفتأ على اتهامك القديم.
ـ أنت تأخذين البريء بذنب المسيء وهذا غاية الظلم، والله لا يؤاخذ المرء إلا على ما جنت يداه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. .
ـ ألست الإنسان الذي رمى آبائي وأجدادي بالكفر وظلت أجيالنا تتوارث الاتهام على مر السنين؟ وأنت على عهدك بقذفنا قائم لا تقلع عن إساءة ثم فوق هذا تتهمني بالظلم بدلاً من تصحيح خطأ لزمكم طوال الدهر. .

أي ميزان هذا الذي تزنون به؟ وأي حكم هذا الذي تنطقون به؟ وأي عقل هذا الذي ترشدون به؟ وأي نور هذا الذي تهتدون به..؟

ألا ما أظلم الإنسان !!! ألم تسمع صديقتي الحبية ميسا وهي تقول لك إنني قد يئست من شكواي لغير الله وإن حكمة الصمت بالغة..؟

- نعم إن حكمة الصمت بالغة إلا في الحق وحده فكلمة الحق ترفع صاحبها وتزيده شرفاً وقدراً والسكوت عن الحق وإعلانه رذيلة.

- لم أسكت عليه اختياراً ولكن أسكتني ضعف الحيلة وقلة الرجاء في نصفة الإحسان.

- تاج الزهور لقد اختلط عليك الأمر، وإن صح زعمك الذي تدعين فقد دفعك الغضب على ظلم بين بدلاً من ظلم تدفعينه عن نفسك وعن بني جنسك..

- أي ظلم هذا الذي تدعي أنني اجترحته؟ أما تنبهت بعد كل هذا إلى شكواي التي شاركتني فيها الأزهار والورود؟ أليست لك عينان لترى ما أنا فيه من الهم والغم وسوء الحال؟ ألم يتحرك قلبك لمشاعري التي مافتئت تنضح بالتمزق والأسى مذ ذكرني قدومك بجراح السباب والقذف بالكفر والشرك.

- تاج الزهور: لولا اهتياج حسي لما أنت فيه ما حرصت على البيان وقول الحق.

- إذاً لماذا لا تقول الحق وتصر على ما أنت عليه؟

- ما عملت شراً جنته يداي يمسك من قريب أو بعيد . ولكنك أنت منذ قدومي لا تتحولين عن القول بأنني لك ظالم، وإنما أجهد نفسي بدفع تهمة لحقت بي على لسانك لست أرى لها دليلاً ينهض بها.

- وما رماني به الإنسان من كفر وشرك، ألست ترى ذلك شيئاً يثير

فيك اهتماماً ويوقظ على الحق غيرتك؟ وأنت أولست إنساناً تشارك الناس ما يفعلون؟

ـ بلى. أنا إنسان يا تاج الزهور ولكن لا أحاسب إلا على أعمالي. وأما أعمال الآخرين فإلى الله موكولة، وحتى يطيب خاطرك بقولي. أترضين الله حكماً بيني وبينك؟

ـ الله، آمنت بالله وحده نعم الحكم العدل .. وأنت أتؤمن بالله حتى تقول لي هذا القول؟

ـ الله .. أومن به ؟ على رسلك يا تاج الزهور وبمن تظنينني أؤمن لو لم أؤمن بالله وحده. ؟ أنا لا أعبد إلا إياه ولا أسجد إلا له.

ـ غريب. أو تعني ما تقول؟ ما أحلى ما أسمعه منك لقد أدهشني أن أعلم عنك هذا فما بال الإنسان يظلمني بإلحاق الكفر والشرك بي..؟

ـ أي كفر وشرك لحق بتاج الزهور من بني الإنسان؟

ـ أما بلغك حتى اللحظة نعته إياي ووصفه لي؟

ـ لا. ما أنبأني على مر الأيام بذلك أحد!!

ـ سماني «عباد الشمس» نعتاً ينضح بالكفر ويفيض بالشرك.

فما إن سمع الأمين قولها حتى انقبضت نفسه فغطى وجهه بكفيه إنكاراً لصفة رأى سؤها بالغاً ولبث برهة قبل أن يرفع وجهه منادياً..

تاج الزهور .. اعلمي أن من الناس من هو مؤمن ومن هو كافر، والمؤمنون الذين يدعون إلى عبادة الله وحده ليسوا هم الناعتون لك بهذه الصفة المنكرة. ولا يقدم على المهين من القول والفعل إلا الكافرون والعصاة، وهؤلاء لا يضيرنا ما يفعلون في الدنيا، لأن لهم عذاباً عظيماً في الآخرة، لهذا أخذني العجب وأنت تحسبين أنني لك

ظالم، ولست أشارك الكافرين ما يفعلون . . . وأنا ولله الحمد مؤمن أعبد الله ولا أشرك به شيئاً ولا أرى فيك إلا الخير كله والإيمان الذي يزيد تعلقي بك واعتزازي بمعرفتك، والمؤمنون لا يخلعون عليك يا تاج الزهور إلا أحلى الصفات وأجمل الأسماء.

- بماذا ينعتني المؤمنون مثلك يا أمين؟

- يدعونك (قانتة). .

- قانتة وماذا تعني هذه الصفة؟

- تعني التي تضرع بدعائها إلى الله وحده طيلة وقتها وعمرها . . فنظرت إليه وقالت:

- الله . . ما أجمل الاسم وما أحلى النعت!!!

وانفرجت أساريرها وبدت مشرقة تتفجر منها السعادة وهي تردد الله. . ما أسعدني اليوم الآن. أشهد مولداً جديداً وأحس بفيض من البشر يغمر حياتي كلها، الله آتاني البلسم الشافي فما عدت أفهم معاني الحزن والهم بعد اليوم. لقد ولت إلى غير رجعة ومال بها عودها نحو الأمين وهي آية في الإشراق وقدمت له الشكر بأحلى عبارة وأرق لفظ.

ثم رفعت وجهها إلى السماء شاكرة لله أن ساق لها ميلاداً جديداً بزيارة الضيف الكريم، وأخذت تتمايل من فرط السعادة وهي تنادي الورود والأزهار . . وتطلب منهم أن يشاركوها الفرح والبشر وأن يملؤا الدنيا بعبير فواح تحمله الرياح إلى كل مكان وتنشر معه البهجة احتفالاً بمولدها الجديد، وسرعان ما سرت موجة من السعادة والهناء جعلت الورود والأزهار تبالغ في تفتحها، وأعوادها تتمايل بها مع النسيم الرقراق الذي تعطر بحمل عبيرها يفوح طيبه في كل مكان.

وقالت (قانتة) هيا عزيزتي ميسا خذي من الرحيق ما شئت فكلنا

بضيفك الأمين مبتهج، ثم ودع الجميع قانتة وانصرفوا، واختلطت أصوات الورود والأزهار والرياحين، كلها تنادي ميسا بصوت عال وتدعوها وشغالتها لجمع الرحيق الذي فاضت به خزائنها، وميسا جذلانة من فرط سعادتها ثم أمرت شغالتها بالطواف على الحقول والبساتين فانطلقت لفورها تغمر الأجزاء بأنغام عذاب وعادت ملأى بما جمعت . . وما هي إلا لحظات حتى كان ما جمعته الشغالة في يوم ـ كأنه أجمل الأعياد ـ يفي بكل ما يحتاجه ضيفهم الأمين.

ـ قالت ميسا للأمين ـ والعرقاب يترجم بينهما ـ:

هذه حاجتك من العسل تفي بها وعودك وتحل ما لزمك من اتفاق وكم يسعدني أن تنبيني من هذا الذي حظي بسعيك لإحضار العسل؟

إنه صديق جديد، سبع البحر.

ـ لعل عسلنا يكون عنده ذا نفع!

ـ طلبه سبع البحر يداوي به مرضاه.

ـ نعم السعي ما تقوم به.

ـ يا ميسا وعدني صديقي بخدمة جليلة لقاء سعيي بإحضار العسل، وكانت ميسا حريصة على الحديث مع ضيفها الأمين تتلمس استرسالاً ما يدور بينه وبينها من كلام فقالت:

ـ وما تكون هذه الخدمة؟

ـ كان لي سيف أعتز به وقع في البحيرة واستقر في قاعها فوعدني سبع البحر بإخراجه لقاء العسل الذي آتيه به.

ـ ألك سيف غير الذي تحمله؟

ـ نعم هو البتار.

ـ لعل بتارك لا يمضي إلا في الخير.

ـ ما دامت يدي عليه قابضة فسترشده إلى الطريق السوي والمضي الصائب.

ـ وما أن أتم حديثه حتى جاءت واحدة من الشغالة إلى ميسا وحيتها ثم قالت:

ـ سيدتي الملكة : جئتك بنبأ خطير.

ـ خيراً !!

ـ صديقتك!!

ـ من؟

ـ سارنا.

ـ ما لها؟

ـ هجم عليها أعداؤها وهم يقتلون الآن شعبها ويهدمون بيوتهم ويحرقون متاعهم وهم في كرب عظيم وهم جسيم.

ـ أو حق ما تقولين..؟

ـ ما حملت لك إلا الصدق، فإن كنت على مساعدتها قادرة فعجلي فقد يكون في معونتك لهم وهم على حالهم خير.

ـ من الذي هاجمهم؟

ـ دابورا الملك.

ـ ويح دابورا وما يفعله بالضعفاء!!

ثم استأذنت ميسا وتركت الأمين الذي مضى في طريقه إلى البحيرة، ولما وصلها رأى سبع البحر في انتظاره يستقبله بالترحاب وما هي إلا لحظات حتى كان سبع البحر قد غاص وعاد للظهور ممسكاً بالبتار في فمه، وقد أقبل على الأمين إقبال البشر وسلمه البتار مبتهجاً بهدية الأمين مغتبطاً بوصول الدواء لمرضاه. كم كان سبع البحر طيب

القلب وهو يخفف الآلام عن مرضاه ويحنو عليهم في عطف بالغ وصبر دؤوب لقد أحبه الأمين كثيراً لحسن خلقه ورقيق حسه فودعه وقلبه به متعلق ثم مضى في طريقه عائداً حتى وصل إلى مفترق الطرق؛ حيث كان يسأل الوزير الخوان عن أي الطرق يأخذ؟ وكان من رأي الوزير أن يأخذ طريق الشمال وهناك عند المفترق تحول الأمين إلى طريق اليمين، وقبل أن يمضي قال: بسم الله توكلت على الله ، ثم مضى يسير فيه أياماً قبل أن يستوقفه الرقراق سيد العصافير في هذا المكان قائلاً له:

«الأمين يمشي الهوينا وتحته التوتان!!

ـ عجباً كيف عرفتني»؟

فاسترسل الرقراق في حديثه قائلاً: «وبتارك في غمده والضعيف يستغيث».

ـ من؟

ـ امضي فستنبيك أحداث الطريق بما يدور.

ـ فازداد الأمين تعجباً وقال ولكنك أنت من تكون؟ وكيف عرفتني؟ ولكن الرقراق كان قد تركه وطار حتى غاب عن الأنظار..

وهنا نترك الأمين يمضي في طريقه لنتابع عامراً وملكة الرودام.

عاد عامر ومعه المقاتلون الذي خرجوا لملاقاة كودر قرب غابة الشافون، وكانوا يسوقون معهم أسراهم من البوشال وتركوا كودر يعود وحده على دابته مقيداً عليها، وقد أركبوه جاعلين ظهره للأمام ووجهه للخلف وكان على كودر أن يقطع بحصانه مسافة كبيرة على هذا النحو المهين كي يصل إلى أخيه ملك البوشال ويخبره بما حدث له ولجماعته، ويحمل له التهديد الشديد الذي أبلغه له عامر..

وكان كودر يعاني آلاماً مبرحة من آثار القيد ومن الطريقة التي أركبوه حصانه بها، والتي لم يعتدها وكلما ارتفع الحصان صاعداً في الطريق مال هو إلى الخلف وزم القيد على أطرافه حتى ليكاد يقطعها، وأذاقته آلاماً وأوجاعاً شديدة، وكلما اتجه به حصانه هابطاً مال هو إلى الأمام فتشتد عليه الآلام.. واستمر على هذه الحال حتى عثر به حصانه فسقط من فوقه ولكنه ظل معلقاً لا يصل إلى الأرض، وانهمك حصانه يعدو به عائداً، واجتاز به أرضاً مليئة بالأعشاب والأشواك فظلت الأشواك وفروع الأشجار ترطمه وتخدش جسمه وأطرافه فسالت دماؤه وخضبت رأسه ووجهه وجسمه وسرواله الذي بقي عليه.

واستمر الحصان يعدو به على هذه الحال حتى دخل به مملكة البوشال، واتجه به نحو قصر الملك حيث كان الحصان يعرف طريقه. وروع البوشال بحصان كودر يمر بهم وهو على هذه الحال وتابعه كل من رآه منهم كي يساعده ويستجلي الخبر ولكن الحصان كان قد دخل ساحة القصر حيث كان ملك البوشال يلهو مع خيله، وزوجته الملكة تتطلع إليه. وكانت في ذلك الوقت شاردة تفكر في العقد الذي سيأتي به كودر وفوجىء الملك بحصان كودر يقف أمامه، وجموع عظيمة من البوشال تتصايح على مدخل القصر، والحراس يقبلون مسرعين وقد بدا الفزع في وجوههم حتى أحاطوا بالحصان أمام الملك وخيم الصمت عليهم جميعاً مأخوذين بهول المفاجأة، وقد أذهلهم رؤية كودر مدلّى إلى الحصان مخضباً بدمائه مثخناً بجراحه.

ثم تقدم الملك منه بخطى وئيدة ونظرات شردها منظر الدم يغمر أخاه كودر ومد يديه يفك قيده، وأقبل حراسه يساعدونه بأيد عجلى وخر كودر على أيديهم غائباً عن الدنيا وهم يستنطقونه دون أن يظفروا

منه بما يهدىء روع نفوسهم. وحملوه إلى فراش المرض وانكبوا يعالجونه ويسهرون على آلامه وجراحه اليقظى وهو على حاله لا ينطق ولا يتحدث.

وأمسى الملك شارد الفكر والنظرات، قليل الكلام، وبعد أيام من علاج دؤوب ظفروا منه بأجفان تنحسر من أعين زائغة ونظرات تائهة.

وجاءه أخوه الملك متلهفاً لعله يجد جواباً لما دار في رأسه من خواطر ولكنه ارتد يائساً أمله فلزم صمته وشروده الذي كان عليهما...

وكان اهتياج البوشال كبيراً لما رأوا ولما سمعوا، والكلمة يحيلها تناقل الألسن قصة والخيط ينسجه الخيال ثياباً تكسوه الظنون والأوهام وأخيراً.. نطق كودر فتطاير الصياح إلى الملك يحمل له البشرى بتحسن الحال.. وأقبل الملك يتعجل الخطو حتى أشرف على وجه أخيه وأقبل عليه يسأل...

ـ ما الذي حدث؟

وبصوت خفيض ونبرة تكسّر نطقها أجاب كودر:

ـ الرودام!!

وبقي الملك المهتاج يحتال على الضعف الذي أصاب أخاه حتى يظفر بالقصة فكان له بعد الجهيد من الجهد ما أراد وعرف القصة كلها.

ونادى المنادي أن هلموا إلى ساحة القصر فالملك يدعوكم، وسرعان ما تجمع البوشال من كل مكان حتى غصت بهم ساحة القصر، وخرج عليهم ملكهم في لباس الحرب فلما رأوه أيقنوا بأنه سيأمرهم بالتجهز للقتال، وكانوا له على طاعة وامتثال ولما ساد السكون واشرأبت الأعناق واتجهت الأنظار كلها إلى ملكهم قال لهم:

«أيها البوشال أعدوا أنفسكم للزحف غداً فقد أصبح الرودام وما يملكون مباحاً لكم!! ولعله لم يخف عليكم ما صنعوه بأخي كودر، ولن يلقوا منا إلا سيوفنا تقطع رؤوسهم، وإني خارج إليهم مع شروق شمس الصباح فلا يفوتكم موعد الزحف، وإلا فاتتكم الغنائم والأسلاب والجواهر التي تعج بها مملكة الرودام».

وعندما طلعت شمس اليوم الثاني كان ملك البوشال يزحف بجيشه الجرار نحو الرودام يريد أن ينتقم للإهانة التي لحقت به وبأخيه، وكان عليه أن يسير أياماً قبل أن يصل إلى خصومه حيث عاد عامر ومعه أسرى البوشال وهم مقيدون جميعاً في حبل واحد..

وكانت ملكة الرودام عندما رأت عامراً يعود ومعه هذا العدد من أسرى البوشال زاد تعجبها لأنها لم تتوقع في يوم من الأيام أن يكون قومها قادرين على مواجهة البوشال فضلاً عن أسرهم وربطهم بالحبال على هذا النحو المبين ونظرت إلى عامر وهي تسأله:

«عجباً من هذا الذي أراه !!! أيقع البوشال أسرى بين أيدينا؟ ما دار بخلدي يوماً من الأيام أن أرى ما أراه الآن»!!!

فرد عليها عامر: إنها قوة صاحب الحق حينما يؤمن به ويدافع عنه، فلا تعجبي.

- ولكن هذا سيجر حرباً لا شك واقعة!!

- ولهذا أعددنا لها هذه الحصون.

- أيها الضيف الكريم كيف تمكنتم من مواجهة البوشال وكيف أسرتموهم على هذا النحو ولم يقتل منا أحد؟

- لقد فاجأناهم فأسقطتهم المفاجأة في أيدينا، وأعدنا كودر شقيق الملك ينذره إذا هو أقدم إليك طامعاً أو مهدداً، وإنهم لا يفهمون إلا

لغة واحدة يتخاطبون بها!! وسنخاطبهم بها وهي لغة القوة، والآن يجب أن نحتاط لقومهم فهم لا شك قادمون للحرب بعد وصول كودر لهم، ولكنهم عند وصولهم لن ينالوا منا شيئاً. فستقف هذه الجدران المنيعة حائلاً بينهم وبين ما يريدون، ثم ينصرفوا عنا خائبين بعد أن يغيروا رأيهم.

ثم طلب عامر من الملكة أن تحث قومها على الاستعداد، وقامت الملكة بالإشراف على المزيد من تجهيز الحراب والسهام ونقل الأحجار وتخزين الغذاء، واستمر الروادم في حركة ونشاط طوال أيام الانتظار لمقدم ملك البوشال..

ثم دقت طبول الإنذار !!!

وسرعان ما دبت في المملكة كلها حركة لم تقم من قبل، وهرع الروادم يدخلون مدينتهم على عجل ثم أغلقوا الأبواب وأحكموا الإغلاق ووقفوا منتشرين خلف أسطح الأسوار العالية يترقبون ظهور ملك البوشال وجيشه. وكان القلق يساور الجميع ولكنهم كانوا مطمئنين لوجود هذه الأسوار العالية التي تحول بين البوشال وبينهم، وساد المدينة سكون شامل لأن الروادم لزموا الصمت استجابة لأوامر الملكة وأخفوا أنفسهم خلف قوائم الأحجار التي انتشرت على طول الأسوار وكانت عيون الجميع تنظر إلى القادمين وهي في مكامنها لا يقوم أصحابها بحركة !!!

وأخيراً ظهر البوشال في جيش جرار، يحملون معهم أدوات الخراب والدمار، يتقدمهم ملكهم على حصان عظيم الحجم، ولما اقتربوا من الأسوار وقف الملك حائراً ووقف جيشه متعجباً لما يرى فلم يكونوا قد رأوا مثل هذه الأسوار العالية المنيعة من قبل، وأخذت

الملك دهشة عظيمة جعلته يتحرك بحصانه هنا تارة وهناك تارة أخرى في هدوء وصمت، يستطلع هذا الإعداد الذي لم يألفه من قبل، ولا عهد له به ثم تبعه أحد حراسه، وهو يطوف حول الأسوار العالية وينظر إليها في تعجب بالغ ودهشة عظيمة، وقد ذهبت به الحيرة مذهباً بعيداً فيما يجب عليه أن يفعله !!! ولا حيلة له أمام هذا الإعداد، وأتم جولته حول المدينة حتى أشرف على جيشه الكبير الذي أعده للدمار. وتعاظمت حيرة الملك، وكلما نظر إلى هذا الجيش الذي لم يخرج بمثله قط أخذته العزة وركبه الكبر، وعندما يحول نظره ناحية الأسوار يشعر بعجزه وقلة حيلته، وقد لمس الجميع في وجهه أثر الحيرة فتقدم منه أحد حراسه ومساعديه قائلاً:

- إن الرودام لم يقيموا هذه الأسوار إلا لفرط خوفهم من بطشنا . وأرى أن نحتال عليهم حتى نخرجهم من حصنهم أو يفتحوا لنا الأبواب ويكون لنا عندئذ معهم شأن آخر . .

- كيف؟

- نناديهم ونخاطب ملكتهم ونقول لهم بأننا ما جئنا معتدين ولكن جئنا فقط لعقد صلح حتى يسود بيننا السلام ونأخذ أسرانا وننصرف عنكم.

- يا لها من حيلة عظيمة، ثم نقول لهم: فلنقم احتفالاً كبيراً نوزع فيه الطعام والشراب ابتهاجاً بالصلح والسلام.

- تماماً. ويخرجون للاحتفال ونخالطهم ويخالطونا وعندئذ يقوم البوشال بتنفيذ الأمر وتطبيق الخطة.

- وانفرجت أسارير الملك ابتهاجاً بهذه الفكر الرائعة والحيلة العظيمة، ثم أمر حارسه أن يتقدم قريباً من الباب وينادي ملكة الرودام

ويخاطبها ويتحدث إليها بما تم الاتفاق عليه، وتقدم حارسه كما أمره الملك وأخذ ينادي الملكة التي كانت ترقب قدومه بعينها وهي مختفية خلف قائم حجري أعلى السور وهمت أن تجيبه لولا أن أشار إليها عامر بالتزام الصمت فسكتت ولم تجب، وظل حارس الملك ينادي ويرفع صوته بالنداء ويطلب أن يرد أحد من الرودام عليه أو يبرز إليه ليخاطبه ولكنه لم يظفر بالجواب وأخيراً قال:

يا ملكة الرودام إننا لم نأتك محاربين، وإنما جئنا مسالمين نعقد بيننا وبينكم صلحاً وننصرف عنكم في سلام ونأخذ أسرانا وليسود بعد ذلك الوئام.

ـ فلما سمعت الملكة هذا الكلام سرت كثيراً وفرحت، ونهضت كي ترد عليه ولكن عامراً قال لها:

ـ أيتها الملكة إن هؤلاء قوم لا أمان لهم فلا تحادثيهم.

ـ ولكنهم يعرضون الأمن والسلام!!

ـ إنها حيلة وإنهم يخدعونك.

ـ كيف عرفت بأنهم يحتالون علينا ويخدعوننا؟

ـ لو كانوا صادقين فيما يقولون لما جاؤا بهذا الجيش العظيم ولأرسلوا واحداً منهم أو اثنين يعرضون السلام والصلح، وإن عرض الصلح لا يحتاج لهذا الجيش الجرار.

ـ ربما أتوا به كي يحتفلوا بالصلح.

ـ لو كان ذلك حقاً لما أحضروا معهم هذه الأسلحة الفتاكة.

ـ وهل رأيت جيشاً يسير دون أن يحمل أسلحة..؟

ـ لقد أبنت لك رأيي وأظهرت لك مخاوفي وإني لا آمن شرهم ومكرهم وخير لنا أن نبقى دون أن نجيبهم حتى ينصرفوا عنا يائسين،

وإنهم ما طلبوا ذلك إلا بعد أن أعيتهم الحيلة أمام هذه الجدران الحصينة المرتفعة.

- إنهم يعرضون علي الصلح والسلام ولا حجة لي بعد ذلك لو رفضت هذا العرض وأضعت الفرصة، وإني أجربهم وأنا على حذر منهم ولم تنتظر الملكة رد عامر، ولكنها أمرت أحد وزرائها بالرد على حارس ملك البوشال وإعلامه بموافقة الملكة على الصلح، وأخذت الملكة تعطي أوامرها بالاستعداد لمقابلة ملك البوشال لعقد الصلح وعبثاً حاول عامر أن يثنيها عن عزمها ولكنها كانت حريصة على عدم القتال والصدام مع البوشال...

بدأ البوشال بعد سماعهم الجواب يحتفلون بالصلح واستجابة لأمر ملكهما فأخذوا يرقصون ويرفعون أصواتهم بالغناء ومدت الموائد وذبحت الذبائح لإعداد أشهى الأطعمة ووضعوا عنهم أسلحتهم، وانصرفوا إلى لهوهم حتى يضفوا على مظهرهم حرصاً زائداً على نشر السلام والوئام.

ثم فتحت الأبواب وخرج منها من كان أسيراً من البوشال يمشون في نظام عسكري وقد اكتسوا بملابس زاهية أهدتهم إياها ملكة الرودام وكان يتقدمهم وفد من الرودام يحمل بعض الهدايا لملك البوشال تقديراً منها لمبادرة الصلح والسلام التي أعلنها...

ووصل الموكب وسط صيحات الفرح وعبارات الابتهاج أمام الملك ثم تقدم رئيس وفد الرودام وحيا الملك أحسن تحية وقدم له الهدايا وأراه كيف أكرمت ملكتهم الأسرى وألبستهم أحسن الثياب ثم قال الملك:

«ما جئنا إلا لمصالحتكم وبدء عهد جديد من التعاون والصفاء وها

هي وثيقة السلام».

ثم قدم لرئيس وفد الروادم وثيقة مكتوبة وممهورة بتوقيعه جاء فيها:

«لقد وافق ملك البوشال وملكة الروادم على بدء صفحة جديدة من التعاون والإخاء وإقامة علاقة طيبة بينهما تحقق النفع والمصلحة لشعبيهما ويتعهد ملك البوشال وملكة الروادم بالوقوف وشعبيهما معاً في أحوال الشدة والرخاء».

وطلب الملك من رئيس الوفد أن يعرض الوثائق على الملكة كي توقعها دلالة على موافقتها.

وعاد وفد الروادم والغبطة تغمرهم مما رأوه من حرص الملك على إشاعة الأمن والسلام وقدموا الوثائق للملكة التي فرحت بها فرحاً شديداً ثم نظرت لعامر وقالت:

«ها قد صدق ظني وها هي وثيقة مكتوبة وموقعة من ملك البوشال تدعم السلام والوئام بيننا وهذا أقصى ما كنا نطمع فيه وغاية ما نتمناه».

ولم يرد عليها عامر ولكنه نظر إليها نظرة إشفاق وسكت!!

وتناولت الملكة قلماً وأخذت توقع الوثائق والبشر يعلو وجهها ثم دفعت بها إلى رئيس الوفد كي يعيدها إلى ملك البوشال الذي ابتهج كثيراً بموافقة الملكة على إقامة الأمن والسلام بين شعبيهما، وأمر الملك قومه بزيادة الاحتفال والفرح بهذه المناسبة ودعا الوفد إلى حلقة من حلقات الرقص والغناء وقدمت لهم أشهى المأكولات وقال الملك لرئيس الوفد:

«ادعوا ملكة الروادم لمشاركتنا الاحتفال». ولما عاد رئيس الوفد للملكة أبلغها بأنباء الاستقبال العظيم والحفاوة البالغة التي قوبل بها، وهو يحمل وثيقة السلام، وأبلغها دعوة الملك إياها لمشاركة البوشال

فرحتهم، وقبلت الملكة الدعوة على الفور وأخذت تتهيأ للخروج والمشاركة في الاحتفال وأمرت قومها بالحضور معها لحضور الاحتفالات الجارية.

كل ذلك يجري وعامر ينظر إليها وإلى قومها نظرة إشفاق، وذهبت محاولاته في إقناعها بالتروي أدراج الرياح.

ثم خرج من البوابة العظيمة موكب للرودام ضخم تتقدمهم ملكة الرودام وهم ينشدون بعذب أصواتهم ترانيم السعادة والسلام، واستقبل ملك الرودام الملكة بالتحية والترحاب العظيم .. وتبادل قومهما المأكولات والمشروبات ودام الاحتفال مدة طويلة قدمت فيها عروض من الطرفين أمام الملك والملكة واختلط الرودام بالبوشال الذين أظهروا لهم الترحاب والود والحفاوة البالغة.

وعامر فوق الأسوار يرقب ما يجري بعين الحزن ونظرات الرثاء ثم وقع ما كان في حسبانه إذ انقض البوشال على الرودام انقضاضاً صاعقاً، وعلت الصيحات تطلب الغوث في كل مكان وماج الجمع بمن فيه وانطلق الرودام هرباً في كل اتجاه ينشدون النجاة ويتلفتون بأنفسهم من سيوف طاحنة وحراب بوارق وسهام موارق، تنثر الأشلاء وتطيح الرقاب وتعجن اللحم بالعظم، والجموع المتلاحقة تميد في كل اتجاه يتطاير الشرر من بينها وتنفجر الدماء في الرؤوس والأجسام تفجيراً.

فما أفلحت الصيحات في إيقاف المجازر ولا أفادت محاولات الإفلات من المهالك ولا نفع استعطاف الضعيف ولا استرحام الصغير.

والملكة المخدوعة أطار لبها هول الأمر، وأرادت أن تقوم، فأشار الملك إليها بسيفه أن اجلسي وهوت المخدوعة على الأرض وقد

أذهب الفزع صوابها، وغارت عيناها من وطأت الجزع والرعب . . وشحب لونها فأصبحت في عداد الموتى وما زالت على قيد الحياة، وكلما همت بالأنين أو الصراخ تخفف البلوى عن نفسها. . احتبس الصوت وجف حلقومها وأوشكت المسكينة على الجنون، وكان الكل في شغل شاغل قاتلاً أو يتوقع بأن يقتل حينما داهم عامر ومعه نفر قليل من الرودام على خيولهم ملك البوشال واختطفوا الملكة من بين أنيابه وأظفاره، وأطاح عامر بسيف الملك الذي همّ برفعه ليرد المغيرين عنه، وانطلقوا بالملكة نحو باب الحصن يسابقون الريح، والملك يصيح في أعوانه ومساعديه للحاق بهم، واندفعت زمرة من البوشال على خيولهم يلاحقون الملكة المخطوفة، وكانت خيولهم أسرع من خيول الرودام فلحقوا بهم عند المدخل الكبير.

وهنا نترك الأحداث التي دارت عند مدخل البوابة لنتابع هشاماً وهو يرقد منهوكاً بين الضفادع من صدمة الحجر الذي أسقطه القرد فوق رأسه. والضفادع حوله يتشاورون فيما يفعلونه والضفدع الشيخ الكبير يشير إليهم بأن يقسروا القرد بالقوة على ما يريدون.

قال أحد الضفادع : وكيف نرغم القرد بالقوة على ما نريد ونحن ضعاف وهو قوي تساعده سرعته على القتال والعراك؟

الضفدع الشيخ: إن لنا الكثير من الأصدقاء الأقوياء إذا علموا قصته فسوف يقدمون على مساعدتنا في أخذ التاج من القرد فالتماسيح وسباع البحر والأفيال كلها أصدقاؤنا . .

قال أحدها: نستعين بالفيل على قلع شجرة الجميز التي يعيش القرد فوقها. . ونلقي القبض عليه عندما يقع من الشجرة.

ـ أتريد عقاب القرد أم عقاب الشجرة؟

ـ طبعاً نريد عقاب القرد. .
ـ إذاً لماذا تفكر في اقتلاع الشجرة. . ؟
ـ هي الوسيلة الوحيدة التي يجبر القرد على الوقوع في أيدينا. .
ـ وما ذنب الشجرة. . ؟
ـ ذنبها !! أنها تحمل القرد وتؤويه وتعطيه الفرصة أن يعلو فوقها فلا تناله أيدينا أو أيدي أصدقاءنا. .

اعلم أن شجرة الجميز قدمت لكم وللمخلوقات أجل الخدمات!

ـ فرد: أي خدمات وهي جاثمة في مكانها وقد ارتضت أن تكون مأوى لهذا القرد القبيح؟.

ـ يا بني كم أنتم متعجلون في حكمكم فاسمعوا.

إن هذا المخلوق حينما قبح عمله وعصى ربه ومسخ قرداً بعد أن كان إنساناً سوياً لم يجد ملجأ يأوي إليه فنبذته المخلوقات كلها لعلمها بمعصيته وسوء طويته فطاردته المخلوقات القوية ونفرت منه المخلوقات الضعيفة ولم يقبل أحدها بجواره أو بإيوائه وعدوا جواره أذىً يتضايق منه الجميع وإيوائه مصيبة تحل بفاعلها، واجتمع أمر المخلوقات على نبذه واحتاروا فيما بينهم أين يذهب، تمنعت الأشجار ورفضت الجبال، وأبت الطيور والحيوانات مجاورته، ووقعوا بعد ذلك في حيرة كبيرة حتى تقدمت إليهم شجرة الجميز هذه التي ترونها أمامكم وقالت لهم:

ـ أنا أريحكم منه، أنا أتحمل عنكم أذاه وسوء جواره إنقاذاً لكم وحفاظاً على طيب عيشكم وصفاء نفوسكم وطهارة حسكم ولست طامعة إلا في ثواب الله بالصبر على حجب الأذى عن المخلوقات.

هذا الذي فعلته شجرة الجميز التي ترونها أمامكم!! فهل نقابل

إحسانها هذا الذي بذلته باقتلاعها.؟

قالت الضفادع : لا ... لا ...

قال الضفدع الكبير: الرأي عندي أن ندعوا التماسيح للقاء حول الشجرة نحاصره فلا يستطيع أن يغادرها للحصول على غذائه.. ونقسره بهذا إما على النزول وتسليم التاج وقبول العقاب وإما على الموت جوعاً فوق الشجرة..

وصاحت الضفادع كلها تستحسن هذا الرأي.

والقرد يستمع لقولها غير عابىء بما تقول وقد ازداد حنقه على الضفادع، وكان يقلب فكره في سرعة كي يواجه ما أجمعت عليه الضفادع ثم انفرجت أساريره لفكرة طرأت عليه، رآها تخرجه من هذا المأزق ، وأخذ يكيل السباب والشتائم للضفدع الشيخ، وتناول حجراً من أحجار الماس الخام رمى بها الضفدع الشيخ يريد أن يقتله، ولكنه أخطأ الإصابة فنجى الضفدع الشيخ واتجه سريعاً نحو النهر وقفز فيه، وكذلك فعلت الضفادع كلها كي تنأى بنفسها بعيداً عن مكر القرد ودهائه، وبقي الضفدع الصغير وحده بجوار هشام خادم النهر لا يفارقه.

وبدأ القرد يرفع ما بقي من أحجار من فرع لآخر حتى وضعها في أعلى الشجرة استعداداً لاستخدامها إذا حاصرته التماسيح .. وظل بعد ذلك يحتال بمعسول الكلام على الضفدع الصغير كي يتركه يمضي دون أن يخبر أحداً، وكان يفكر في هجر شجرة الجميز ويترك التماسيح والضفادع تظن أنه باق داخل البيت الذي بناه، ويطول انتظارها وبذلك يكون قد خدعها خدعة عظيمة، ولكن الضفدع الصغير لزم الصمت ولم يرد عليه وظل القرد يستعطفه ويستميله قبل أن تصل التماسيح ،

ولكن الضفدع الصغير بقي على رقابته لصديقه العزيز خادم النهر، وعيناه لا تغفل عن حركات القرد وسكناته، حتى يئس القرد من إقناع الضفدع الصغير، وانقطع رجاؤه في تنفيذ الحيلة التي فكر فيها، وجلس يفكر في مصيره وهو ينظر إلى أحجار الماس الخام التي تكدست فوق الشجرة، وإلى التاج العظيم الذي بذل فيه جهداً كبيراً حتى أتمه على هذا النحو الفريد ثم يحول نظره إلى خادم النهر المصاب وإلى الضفدع الصغير، ويميل برأسه ذات اليمين وذات الشمال، وهو يقلب النظر، ثم صعد إلى أعلى الشجرة وظل ينظر إلى الدنيا حوله، وهو يعيد التفكير ويبحث عن طريقة للخلاص من هذا المأزق ، ثم ما لبث أن انفرجت أساريره مرة أخرى، وأخذ يضحك بصوت عال ويكيل السباب والشتائم للضفدع الصغير، وبقية الضفادع وبخاصة الضفدع الشيخ الذي توجه بعد نزوله إلى النهر لمقابلة سيد التماسيح، ولما وصل إليه حياة وقال له:

- لقد كنا على وشك الاحتفال بك كسيد النهر المتوج، ولكن أحداثاً تقع تحول دون ذلك..

- أي أحداث؟

- خلاف على التاج الذي تم صنعه لك تمنع بالمكر والدهاء من تسمله.

- من الذي يمنعكم؟

- القرد.

- أي قرد..؟

- هذا الذي يقطن شجرة الجميز.

كيف منعكم؟

صنعه لقاء أجر تسلم أضعافه من خادم النهر، ولما أتم صنعه حسن في نظره وضن به عليك، وفوق ذلك فقد اسقط حجراً على رأس خادم النهر الذي ألح في تسلم التاج وأجهد نفسه في دفع الثمن.

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

ـ تحصل على التاج الذي تتوج به رأسك، ويعود خادم النهر كما كان إنساناً.

ـ ولكن كيف نصعد فوق الشجرة للحصول على التاج؟

ـ إن الحصول عليه يسهل لو حاصرنا القرد ومنعناه من النزول للحصول على طعامه، وخيرناه بين الموت جوعاً أو النزول وتسليم التاج.

ـ إنها لفكرة عظيمة وهل تم صنع التاج وهل رأيته بعينيك؟

ـ أرى أيها السيد أن نقصر الكلام ونعجل بالذهاب، وهناك ترى بعينيك ما تحب أن تراه .. ووافق سيد التماسيح وصاح في أتباعه أن يجتمعوا حول شجرة الجميز وذهب مسرعاً ومعه الضفدع الشيخ.

ولما رأى القرد جموعاً عظيمة من التماسيح تحيط بالشجرة وبينهم سيد التماسيح أيقن بقرب نهايته وبأنه هالك لا محالة، فقال بصوت مرتفع:

ـ مرحباً بسيد التماسيح العظيم، ومرحباً بقومك الكرام، ما أعظم حظي اليوم بزيارتكم الميمونة.

ـ رد عليه سيد التماسيح التحية وقد تعجب لهذا الترحاب..

ثم قال القرد:

ـ لقد أعددت لك تاجاً سيصير حديث الدنيا .. تتيه به على الملوك جميعهم وأهل الأرض كلهم.

انظر: ثم أبرز له التاج وأخذ يديره حتى يراه من جميع الجهات . .
وأخذ سيد التماسيح يظهر إعجابه بالتاج الذي سيوضع فوق رأسه . .
ثم أرسل القرد قائلاً:

وإن هذا التاج العظيم لا يتم تسليمه إلا في حفل بهيج يليق بعظمة هذا التاج الفريد.

- قال سيد التماسيح : نعم إن هذا التاج يحتاج إلى إقامة حفل ومراسيم تليق بالانتهاء من صنعه.

- وبعد ذلك ستصبح السيد المتوج لحيوانات البحر، وكم كان بودي أن آتيك بنفسي لأقدم بيدي هذا التاج ولكني حال دون ذلك سببان . . .

- كلا كلا يا صديقي ليس من الضروري أن تجهد نفسك فوق ما بذلت في صناعته وقد أتيتك بنفسي.

- ألم أقل إن تقديم التاج يحتاج إلى طريقة معينة لا يعلمها سواي؟ وكان ينبغي أن آتيك به كي أقدمه بهذه الطريقة ولكن سببين حالا دون ذلك للأسف.

أما الأول فإني لا أعرف السباحة.

وأما الثاني فوجود من يعكر الصفو بيننا ويقلل من شأن التاج وطريقة تقديمه.

- من الذي يعكر الصفو . . ؟

- هذا العجوز: وأشار إلى الضفدع الشيخ، ثم خادم النهر الذي يريد أن يقضي على المجهود العظيم بجهله وحمقه، وقد اجتمعا على إهانتي إهانة بالغة فصممت على رفع شكواي إلى سيد التماسيح؛ كي يفصل في الخصومة بيني وبينهما ثم أسلم التاج بعد ذلك ابتهاجاً

بالعدالة وطبقاً للتقاليد المعروفة في مثل هذه المناسبات . . وإني أخشى أن يشيع عنك أنك صنعت التاج، ولم تعرف المراسيم المتبعة في تسلمه وهذا يقلل من هيبتك عند الملوك.

- وعندئذ قال الضفدع الشيخ: لا تنصت إليه وإلا وقعت في خداعه، وليس بيننا وبينه إلا أن يسلم التاج.

- قال سيد التماسيح للقرد: إذن انزل وقدم لي التاج طبقاً لما تعرفه من مراسيم.

- سأقوم بهذا ولكن المراسم لا تقام إلا في ظل العدالة.

- إذن ما هي شكواك. .؟

- شكواي من الإثنين الذين أشرت إليهما في حديثي معك، ولست مستفيضاً بشرح ما فعلاه ولكن لي طلب بسيط.

ما هو؟

- هو: أن المراسم لا تبدأ إلا بتقديم القرابين.

- نقدم القرابين.

- والتقاليد تقول إن صانع التاج هو الذي يحدد القرابين. .

- ليس بيننا كبير فرق سواء اخترت أنت القرابين أم اخترناها فالقرابين أمر محبب إلى نفوسنا.

- لقد وقع اختياري على هذا الشيخ العجوز وعلى خادم النهر!!

فصاحت الضفادع والتماسيح وقالت: إن القرد خادع فلا تسمع له . .

فقال سيد التماسيح للقرد:

- إنهم يخالفونك الرأي.

- إن الرأي عندي؛ . . . وهؤلاء الذين يحيطون بك حيوانات لا

رجاحة في رأيها.

- ولكن الضفدع الشيخ عزيز لدينا وكذلك خادم النهر..

- ولذلك اخترتهما؛ لأن التقاليد والمراسم المتبعة في هذه المناسبات تقوم على تقديم القرابين العزيزة.

- تقدم الضفدع الصغير وقال لسيد التماسيح: لقد أعطيت موثقاً وعهداً لخادم النهر إن هو أتاك بتاج من الماس المصقول فسوف يعود كما كان إنساناً عندما تضع التاج على رأسك.. وكلنا يعرف خادم النهر ووفاءه وإخلاصه، ولقد خففت أنت عنه الحكم لما علمته من حسن سيرته، وقد لبى طلبك وبذل جهداً مضنياً في دفع ثمن التاج من أحجار الماس الخام مما تراه مكدساً فوق هذه الشجرة ، والقرد لم يف باتفاقه وهو يماطل في تسليم التاج لك، ولسنا نريد إلا أن ينزل ويسلمك التاج، ثم تفصل بعد ذلك في إصابته خادم النهر بالحجر الذي أرقده أمامك حتى الآن.

- وارتفعت أصوات الضفادع والتماسيح مؤيدة لهذا الكلام.

وقال الضفدع الصغير:

- أرى أن تطلب منه النزول وتسليم التاج واختصار الكلام، فإن هو لبى فسله عن تفاصيل الإهانة التي يدعي أنها لحقته،وإن أبى النزول فاعلم أنه مخادع ويريد أن يخدعك كما خدع خادم النهر من قبل.

فاستحسن سيد التماسيح رأي الضفدع الصغير. وقال للقرد..

- انزل وسلم التاج ثم ننظر بعد ذلك في شكواك.

- أتستمع لقول صغار الحيوانات وتترك رأيي الذي فيه نفع لك ولسيرتك بين الممالك؟

- رأيك ننظر فيه بعد نزولك، انزل أولاً وسلم التاج.

- ليس بإمكاني أن أخالف التقاليد، وعندئذ أمر سيد التماسيح بحصار القرد، ولم يتمكن القرد من استخدام الحجارة حيث كانت التماسيح بعيدة عن مرماه، وحجارة الخام من الماس الصغيرة لا تؤثر فيها، وأخذ يتحرك ويقفز من فرع إلى آخر وقد حار فيما يفعله وحاول أن يحادث سيد التماسيح وهو يناديه ولكن أحداً لم يرد عليه . . وظل القرد قابعاً فوق الشجرة يفكر في مخرج . . والحصار حوله شديد. . وأخيراً انفرجت أساريره لورود فكرة جديدة، ثم دخل البيت الذي بناه فوق الشجرة واختفى عن الأنظار.

ولما جن الليل أطل برأسه يختلس النظر، ويراقب التماسيح التي تحيط به وظل على رقابته المتأنية فترة طويلة حتى مضى من الليل أغلبه، وساعد السكون الشامل على تراخي التماسيح ثم نومها، ونزل القرد في هدوء عجيب لا يستطيعه سواه، لخفته، ورشاقته وما هي إلا لحظة حتى تخطى الحصار وفر من خصومه والتاج معه.

وطلع الصباح وهم على حصارهم للقرد الذي ظنوه داخل بيته فوق الشجرة واستمروا سحابة نهارهم لا يرون للقرد حركة ولا ظهوراً. وتقدم الضفدع الصغير الذي رابه الأمر واقترب من الشجرة ينظر إلى أعلى لعله يلمح القرد داخل بيته من بين الأغصان والفروع المتشابكة ولكنه لم ير شيئاً، ولما حول بصره وهم بالعودة إلى جوار خادم النهر رأى أثر أقدام القرد متجه من الشجرة إلى خارجها، ولما تتبعها وجدها واضحة فأيقن أن القرد قد غافلهم وهرب، وصاح بأعلى صوته:

هرب القرد هرب القرد.

فالتفوا حوله يستفسرون عما حدث فأراهم آثار أقدامه واضحة. وعلى الفور اندفع الجميع في كل اتجاه، ونزلت التماسيح إلى النهر

واتجه أحد التماسيح إلى ممر ضيق يمر منه ماء النهر وكان بينه وبين هذا الممر مسافة طويلة. .

وأعطى سيد التماسيح أوامره بالذهاب إلى كل مكان حول النهر للبحث عن القرد وتقصي أخباره وانتشرت الضفادع تجمع الأنباء وتتبعت بعض التماسيح آثار الأقدام ولكنها انقطعت بعد قليل في منطقة مليئة بالصخور وجلس الضفدع الصغير بجوار صديقه المصاب خادم النهر . . وقد زاد حزنه لمرض صاحبه وإفلات القرد بالأمل الذي كان سيفك أسره ويطلق سراحه، وانقطع رجاؤه لعلمه بسرعة القرد في الهروب وبطء التماسيح والضفادع في متابعته، وجلس يفكر كيف يعالج صاحبه، ومشى نحو النهر يبحث عمن يساعده، فالتقى بضفدع يهم بدخول الماء فناداه وشاوره فيما يفعلان لمساعدة خادم النهر وعلاجه. قال الضفدع الآخر:

لقد سمعت عن طبيب تحبه حيوانات البحر كلها، ولست أدري إن كنت سأعثر عليه أم لا . .

ورجاه الضفدع أن يبذل جهده في البحث عنه وإحضاره. . وانطلق الضفدع الثاني يبحث عمن يقوم بالعلاج واقتضاه الأمر أن يستعين بأحد التماسيح كي يوصله بسرعة وقطعا مسافة طويلة حتى وصلا إلى حيث يعيش الطبيب وصاح الضفدع: ها هو الطبيب لقد رأيته واندفع التمساح نحوه حتى وقف أمامه، وسلما عليه فرد عليهما التحية والسلام. . ورجاه الضفدع أن يصحبهما لعلاج خادم النهر.

فسأل الطبيب «ما الذي أصاب خادم النهر» وكان يسمع عن أخلاقه وسلوكه. فشرح له الضفدع ما حدث له، ولم يكن هذا الطبيب إلا سبع البحر الذي تسلم العسل من الأمين ليعالج مرضاه. وما أن سمع

سبع البحر القصة من الضفدع حتى توجه معهما على عجل إلى حيث يرقد خادم النهر.. وفوجىء الضفدع الصغير بقدوم سبع البحر واستبشر كثيراً برؤيته، وأقبل سبع البحر يعالج خادم النهر في همة ونشاط وبقي بجواره يرعاه الليل والنهار والمريض تتحسن صحته ويسترد قوته ووعيه.

وهناك عند الممر الضيق كان القرد يحاول اجتيازه دون أن يراه أحد، وكان يعلم أنه إذا نجح في اجتيازه فقد نجا بنفسه حيث يستطيع أن يعيش في مملكة الأفيال التي لا تعبأ كثيراً به، وبقي مختبئاً يترقب ويتحين الفرصة للإفلات بسلام، وكان على عادته حريصاً شديد الحرص، وطال ترقبه بضعة أيام حتى واتته الفرصة وأحس بهدوء كبير في النفق الضيق وشعر بالطمأنينة، فأخذ يسرب داخله، وهو يتلفت في حذر ذات اليمين وذات الشمال ويمشي على الصخور الضيقة بجوار الماء، وكان يتوقف بين الحين والحين، يرقب طريقه وينصت إلى الأصوات، وتمكن القرد من اجتياز النفق كله ووقف على صخرة صغيرة في نهاية الممر يتنفس الصعداء لنجاته بسلام، وأخذ ينظر خلفه إلى النفق الوعر وعليه ابتسامة كبيرة ملؤها السخرية من تماسيح البحر والضفادع التي حاولت أن تحتال عليه وتحصره فأفلت منها دون جهد كبير، وكان التاج محمولاً على إحدى يديه فأخذ ينظر إليه نظرة ملأتها نشوة الفرح للنجاة بما صنعت يداه، والسعادة التي أحس بها غامرة، ومد يده يتناول بعض الماء يرتوي قبل رحلته إلى مملكة الأفيال فأعجبته عذوبة الماء وانهال يجرع بفيه جرعاً حتى ملأ بطنه وهم بمتابعة سيره فأذهله وقوف تمساح على نهاية الصخرة الضيقة يسد عليه الطريق، وينظر إليه بنظرة الظفر.. وارتاع القرد ولم يقو على الحركة

ثم قال للتمساح:
«مرحباً بالصديق العزيز، ما أسعدني بلقياك».
ـ لا مرحباً بك وما أشقاني برؤيتك !!
ـ عجباً ما عهدت في صديقي أن يرد علي بما لا يليق به.
ـ أرد عليك بما يليق بك بعد الذي فعلته.
ـ فعلته؟ ماذا فعلت؟
ـ أسقطت حجراً على خادم النهر تريد قتله، ثم امتنعت عن تسليم التاج بعد أن وفى إليك بالثمن مضاعفاً.
ـ كلا . . كلا لم أمتنع عن تسليم التاج.
ـ أين أنت ذاهب به؟
ـ آه . . أين أنا ذاهب به؟
ـ آه . . ذاهب إلى مملكة الأفيال حيث أريد أن أطعمه بالعاج كي يكتمل جمالاً ويزداد حسناً.
ـ لا مانع من ذهابك إلى مملكة الأفيال، ولكن بعد حضور سيد التماسيح وحيوانات البحر كلها وهي في طريقها إلينا الآن.
ـ أحقاً ما تقول؟
ـ ثم تنال جزاءك على ما فعلت.
ـ أنا . . وهل فعلت شيئاً. . ؟
ـ وأظن التماسيح كلها مجمعة على تمزيقك إرباً إرباً، ورميك طعماً للأسماك حتى يريحوا المخلوقات من مكرك وعدم وفائك.
ـ أنا طيب . . أليس كذلك؟ ألا تشهد لي أنت أمامهم بأني طيب. ؟
أفعل الخير وأنا أحبكم، أحبكم جميعاً . . وإذا حضروا فقل لهم بأني أحبهم. . هل تؤذون وتقتلون من يحبكم؟

ـ ولحبك هذا ستكون قرباناً يقدم قبل مراسم الاحتفال بتسلم التاج.
ـ أنا . . لا . . لا . . لن أكون قرباناً . . لا أحبكم . . . أحبكم . . . لا أحبكم . . أحبكم !!!.

ثم أخذ يستعطف التمساح حتى يسمح له بالمرور ويبكي . . والتمساح صامت لا يجيب ولما سمع القرد جلبة تدل على مقدم التماسيح قفز قفزة عظيمة من فوق التمساح يريد أن يجتازه فضربه التمساح بذيله ولكن الضربة لم تكن قوية فلم تؤلمه، ولكنها لمست جسمه فافقدته توازنه، وطار التاج من يده وسقط في الماء، ووقع القرد على ظهره، ولكنه تمكن من الاعتدال والفرار قبل أن يتابعه التمساح بضربة أخرى أصابت الأرض حيث كان القرد قد وقع، وجرى التمساح خلفه بأقصى سرعته يريد أن يلحق به، ولكن القرد كان سريعاً واستدرجه إلى منطقة صخرية مرتفعة والتمساح منهمك في مطاردة القرد يريد أن يلحق به، وتمكن القرد من اعتلاء الصخور العالية وقذف رأس التمساح بحجر كبير فأصابه وجعله يترنح من شدة الألم ثم عاجله بأخرى أشد منها فأفقده الوعي، وما زال يرمي عليه الأحجار الثقيلة حتى قضى عليه تماماً، ثم أطلق لساقيه العنان وولى هارباً.

وظل يعدو هارباً لا يقعد للراحة إلا وقتاً قصيراً ثم يتابع الجري حتى وصل إلى مملكة الأفيال وأرشدوه إلى مكان الملك الذي ظل يسأل عنه حتى وصل، واستأذن في الدخول ولم يسمحوا له بذلك إلا بعد أن حلف الأيمان المغلظة أن الأمر هام وأنه يخص ملك الأفيال العظيم وسمح له بالدخول.

ولما دخل أحنى رأسه وظل يحنيها حتى ركع وتقدم نحو الملك راكعاً حتى وقف بين يديه وحياه قائلاً:

«ليقبل مولاي الملك أسمى آيات الولاء والطاعة».
ـ قال ملك الأفيال : قبلنا ولاءك وطاعتك.
ـ فليسمح لي مولاي برفع رأسي حتى أحدثه بخبر عظيم.
ـ ارفع رأسك وتكلم.
ـ ما وراءك من أخبار؟
ـ عدوان بالغ.
ـ أي عدوان؟
ـ هذا الذي فعله المجرمون!!
ـ عم تتحدث؟
ـ مولاي جرؤت التماسيح على مقام مولاي الأسمى.
ـ أفصح ما الذي حدث؟
ـ كنت قد أزمعت الرحيل إليكم لعلمي ويقيني بأن مملكتكم هي أعظم الممالك قاطبة، وأن مولاي الملك هو أوسع ملوك الأرض عدلاً وإنصافاً، تعيش الحيوانات كلها إلى جواركم مطمئنة إلى وجود حاكم كبير يرعاها ويوفر لها العدل والطمأنينة. وقد عرف القاصي والداني أن مملكة الأفيال هي أسعد الممالك وأهنؤها فعيشها رغيد ويومها سعيد ولذلك فعمرها مديد.!!

وقد عزمت على شد الرحال إلى رحابكم والعيش إلى جواركم والاطمئنان إلى عدلكم، وقبل الرحيل ما كان يليق أن أنسى الهدايا وظللت أعصر أفكاري لإخراج الرحيق، وأقدم لمقام مولاي ما يليق، حتى جاءتني الفكرة التي لم تخطر من قبل على بال، ولا تقدر بمال وعكفت الليل والنهار أجوب شواطىء الأنهار وأردف الصبر بالصبر على صناعته تحفة الدهر وخرجت بعد طوال الأيام والسنين بالتاج

العظيم آية في الروعة وغاية في الإتقان، ولفرط فرحتي دعوت الحيوانات كلها لمشاهدته فأكبرته وأجمعت أنه لا يليق إلا بمولاي ملك مملكة الأفيال وحملته فرحاً مسروراً ويممت وجهي نحو جلالتكم وحدث ما لم يكن في الحسبان إذ اعتدت عليّ في الطريق تماسيح النهر واغتصبت مني التاج وقالت: إن سيد التماسيح أولى أن يتوج به، وجالدتهم عليه جلاداً عظيماً ولكنهم تغلبوا عليّ وسقط التاج في الماء، وخلصت بنفسي بعد جهد جهيد وشيعوني باللعن والسباب وقالوا عن مولاي...

ثم سكت القرد.

- ماذا قالوا؟

- أعفني يا مولاي فقد قالوا كلاماً قبيحاً لست قادراً على التفوه به.

- قل ولا تتحرج.

- قالوا.. قالوا يا مولاي قالوا.. أبلغ ملك الأفيال بأنه أغبى من البغال.

- ثم ماذا؟

- ثم جمعوا الضفادع يقودها شيخ هرم سليط اللسان وأخذوا يكيلون لمولاي السباب واللعان وأرى أن يقوم مولاي بإرسال من يتحقق من صدق الكلام ويرى التاج فقد يكونون ألبسوه سيدهم الحاقد عليكم المغتصب لهديتكم، وليسأل من طرف خفي من الذي صنع التاج ثم يعود لمولاي بالجواب.

- قال ملك الأفيال لأحد الفيلة:

- اذهب إلى النهر في زيارة إلى سيد التماسيح وتحسس عندهم أخبار تاج عظيم واسأل من الذي صنع التاج؟

قال القرد:

مولاي لو رأى التماسيح فيلاً بعد الذي كان منهم فسيكونون منه على حذر، ولن يمكنوه من معرفة الأخبار وأرى أن ترسل حيواناً آخر لا ترتاب لرؤيته التماسيح.

قال ملك الأفيال: نعم الرأي ما ترى!!

كم أنا في حاجة إلى أصحاب الرأي الحصيف مثل رأيك، ولو استبان لي صدقك بأنك قد صنعت لي التاج فستكون بعد ذلك مستشاري الخاص جزاء على هديتك وحسن رأيك.

قال القرد: أعز الله مولاي فداك رأسي وأبي وأمي.

قال ملك الأفيال: من تراه يصلح لهذه المهمة؟

القرد: الرأي عند مولاي..

ملك الأفيال: لي ثور صديق أثق فيه كثيراً.

قال القرد: نعم الرأي، هو أصلح من يكون لأداء هذه المهمة.

فأرسل ملك الأفيال في طلبه، ولما حضر طلب منه أن يذهب إلى النهر، كي يتحسس الأخبار ويسأل عن الذي صنع التاج، وتوجه الثور لساعته كي يجمع له الأخبار عن التماسيح وسيدها، وكانت التماسيح قد أقبلت في أعداد كبيرة نحو النفق لما علمت بمرور القرد فيه، وكان التمساح الذي قتله القرد والذي كان على تتبع له منذ دخوله، قد أرسل لهم بذلك وعند وصول التماسيح راعها مقتل صاحبها، وجن جنونها، وجرت في كل مكان تبحث عن القرد ولكنها لم تعد إلا بخيبة الأمل، وأثناء بحثهم وجدوا التاج في قاع النهر وكان شعورهم مزيجاً من الفرح والحزن في وقت واحد؛ الفرح لعثورهم على التاج والحزن لمقتل صاحبهم وفرار القرد.. ثم إنهم أخذوا التاج وتوجهوا نحو سيدهم

وهم يتصايحون.

وكان خادم النهر قد استرد قوته واستعاد عافيته، وبينا سبع البحر جالساً بجواره يتجاذب أطراف الحديث إذ شعر خادم النهر بتغير غريب، وبعض الآلام تشمل جسمه كله فظنه أول الأمر من الدواء الذي يعالجه به سبع البحر، وأخذ ينظر إلى نفسه وهو متأثر بهذه الآلام التي طرأت عليه ثم ما لبث أن صاح بأعلى صوته، وهو يجري هنا وهناك من فرط السعادة: الحمد لله، الشكر لله. الحمد لله، الشكر لله. لقد أصبحت إنساناً، عدت إنساناً ثم خر ساجداً لله وهو يقول سبحان ربي الأعلى وطال سجوده..

وكان هذا التحول الذي حدث لهشام في نفس اللحظة التي ألبست فيه التماسيح التاج لسيدها واحتفلوا به احتفالاً عظيماً وشاركتهم الضفادع الفرح وكانت على علم سابق بأن هذه هي ساعة الخلاص لخادم النهر واتجهت كلها إليه لتشاهد إطلاق سراحه وتشاركه شعوره وفرحه فلحقوا به وهو ساجد لله شكراً على نعمته فأحاطت به وهي تتأمل جمال خلقته وحسن مظهره وبهاء طلعته.

ولما رفع رأسه من سجوده، وجد الضفادع كلها قد أقبلت نحوه تهنئه بإنسانيته وهي فرحة مغتبطة ثم سارت كلها تزفه في زيارته لسيد التماسيح فكان لقاء رائعاً هذا الذي استقبلته به التماسيح، وجلس إلى جوار سيدها ينظر إليه وإلى التاج البراق فوق رأسه.

وكان للتاج على روعته وندرته في نظره ثمن غاية في الزهد لقاء عودته كما كان إنساناً سوياً؛ وأخذ يتذكر هذه الفترة العصيبة التي مر بها والمحنة التي اجتازها والمعرفة التي حصلها والصداقات العديدة التي خرج بها فيبدو ذلك كله في بريق عينيه الممتلئتين بحمد الله

والشكر له.

وبينما الجميع يحتفلون إذ أتاهم الثور محيياً سيد التماسيح فرد عليه التحية.

فقال الثور موجهاً كلامه لسيد التماسيح : إن هذا التاج عظيم من الذي صنعه؟

فرد سيد التماسيح : صنعه القرد..

قال الثور: فهمت.

سيد التماسيح : هل لضيفنا الثور حاجة نقضيها؟..

الثور: لا ..

سيد التماسيح : ففيم القدوم على غير عادة؟.

الثور: أرسلني ملك الأفيال وصاحبه القرد كي أرى ماذا تفعلون وأروي لهم أخباركم..

فتصايحت التماسيح جاسوس، جاسوس.. ثم انهالوا عليه ضرباً مبرحاً من كل اتجاه ودهش الثور لهذه المفاجأة العجيبة وانهمك يجري طلباً الخلاص بنفسه.. وظل يعدو ويعدو حتى وصل إلى ملك الأفيال وهو على أسوأ حال ..

قال له ملك الأفيال: خيراً ما الذي حدث؟

- آذتني التماسيح إيذاءً شديداً دون ذنب..

- كيف؟.

- استقبلوني بالخداع ولما هممت أن أتحدث إليهم فاجأوني بالغدر والضرب المبرح..

- ألم ترَ سيدهم؟.

- بلى رأيته متكئاً وعليه تاج غاية في الروعة والإتقان علمت أنه من

صنع القرد. .
ـ وحينئذ ركع القرد أمام ملك الأفيال وقال له:
ـ هذا يا مولاي دأب المعتدين أخذوا تاجك وضربوا صانعه واعتدوا على صديقك الثور وأهانوا رسولك لهم. .
ـ ملك الأفيال: وماذ ترى؟
ـ الرأي عند مولاي، وهم لا ينفعهم إلا التأديب بحرب لا ينسونها طوال حياتهم. .
ـ نعم الرأي، ثم أمر أعوانه بجمع الفيلة من كل مكان استعداداً للحرب. . .

***

وهنا نترك أخبار التهيؤ للحرب لنتابع عامراً وملكة الرودام فقد فر بعض الرودام بخيولهم بعد أن اختطفوا الملكة، وكان عامر يقودهم ولحقت بهم خيول البوشال السريعة عليها فرسان أشداء عند مدخل البوابة، وكادوا يقبضون على الملكة، وعامر ومن معهم من الرودام، ولكن البوابة الثقيلة أنزلت بقوة بعد أن اجتازها عامر والرودام، ومعهم الملكة، وكان أحد فرسان البوشال يهم بولوج البوابة حائرين فيما يفعلون، وهم يحاولون رفع البوابة دون جدوى، وتكاثروا حول البوابة من الخارج، وهم في محاولتهم مستغرقون. وفاجأهم عامر ومعه بعض الرودام من أعلى البوابة بسيل منهمر من الحراب والأحجار الثقيلة، فما هي إلا لحظة صغيرة إلا وقد قضي عليهم جميعاً، وكانت هذه الأحداث تجري أمام ملك البوشال الذي قدم يتبعه عدد كبير من مقاتليهم، ثم أوقفته المفاجأة بعيداً عن فعال الرودام، وهو حانق مهتاج لما فعله عامر، ومن معه، وظل يجري كالمجنون هنا وهناك، وقد

اضطرب تفكيره وعلا صوته بعبارات الغيظ والحنق لإفلات الملكة بعد أن كانت بين يديه كالفريسة. وتجمع البوشال كلهم خلف ملكهم بعد أن فرغت سيوفهم من قبل الرودام، عادت خيولهم من مطاردة من أسعده حظه بالإفلات ، وكانت المقتلة الغادرة شديدة الوطأة على من بقي من الرودام للقيام بها فقام على مدخل البوابة ينادي:

«يا معشر البوشال ليست لنا القدرة على قتالكم فإذا أعطيتمونا الأمان والعهد بأنكم لن تقتلونا فسنفتح لكم الأبواب ونقدم لكم ما تريدون».

فأجاب منادي الملك بعد أمره:

ـ أعطيناكم العهد والأمان ولن نقتلكم. وتحت نشوة الظفر والشعور بضعف الحيلة أمام هذه الجدران والتعجيل في التفكير، أجاب الملك على النحو السابق..

وأمر عامر.. ففتحت البوابة الأولى وما أن رأى ملك البوشال الفرصة مواتية للدخول حتى أمر رجاله وفرسانه بالدخول بأقصى سرعتهم واندفع البوشال يتزاحمون على الدخول، وكان تدافعهم عند البوابة يكاد يعصرهم وهم عما ينتظرهم لاهون، ودخل منهم المئات تحت وطأة التدافع ، ثم نزلت البوابة فجأة وانهالت الرماح والأحجار والسهام على جموعهم المكتظة خارج الحصن، وارتاع البوشال لهذه المكيدة، وقد سقط منهم جرحى كثيرون وقتلى عديدون ، وارتدوا عن البوابة فزعين مذهولين ذهولاً دونه ذهول ملكهم الذي يرقب ما يدور..

أما أولئك الذين دخلوا الحصن، فقد وجدوا أنفسهم محصورين في ممر ضيق بين بوابتين عظيمتين وجدران مرتفعة وتزاحمهم يكاد يزهق

نفوسهم، والرودام ينظرون إليهم وهم على الأسطح على جانبي الممر، وصراخهم يتعالى والملك خارج الحصن لا يدري ما الذي يدور، واختفى الرودام من فوق الأسطح الخارجية فلم يعد الملك يرى أمامه أحداً منهم، ولكنه استمع إلى صيحات وصراخ ظن أن قومه يقاتلون في الداخل، ولم يكن صراخهم إلا لأن عامراً كان قد أعطى أمراً بسحب ألواح الخشب التي تكسو أرض الممر الضيق وتغطي خندقاً عظيماً مليء بالماء، وأخذ الرودام يسحبون كل الخشب من الغرف الجانبية وهم يرقبون البوشال من ثقوب ضيقة على جانبي الممر ومن أسطح الممر وهم يسقطون في خندق الماء بأعداد عظيمة، ودأب الرودام يسحبون الألواح واحداً بعد الآخر دون كلل رغم ثقل هذه الألواح حتى سقط جميع البوشال في الماء يعلو بعضهم على بعض طلباً للنجاة من الغرق ويجذب بعضهم بعضاً، وظلوا يتصايحون ويصرخون حتى أخمد الغرق أنفاسهم جميعاً.

وفتحت البوابة الداخلية وبدأ الرودام يرفعون جثث الغرقى إلى الأسطح ويخرجون الخيول التي غرق أصحابها، ثم بدأوا يقذفونهم خارج أسوار الحصن أمام أعين الملك المرتاع لهول ما يرى لا يجرؤ واحد من البوشال على الاقتراب منهم، حتى تكونت منهم كومة عظيمة يتعاظم مع ارتفاعها اضطراب ملك غدر بمملكة مخدوعة، وازداد اضطرابه عندما رأى الرودام يدفقون الزيت عليهم ويوقدون فيهم النار لإحراقهم، وقد فعلوا ذلك توقياً للتعفن الذي يصيب القتلى والموتى..

وقد دب الرعب والفزع في قلوب البوشال لما يرون دون أن يقدر واحد منهم على الاقتراب، فالنار مشتعلة في قتلاهم والسهام والحراب

تحرسها من أسطح الحصن.

وعندئذ علم الملك الغادر أن خدعة كبيرة قد وقع فيها لا تقل عن خديعته التي قام بها، ثم أخذ مقاتليه وبعد بهم عن الحصن حيث أقاموا يستريحون ويفكرون فيما يفعلونه، وأمر ملك البوشال بجمع قتلى الرودام وإحراقهم من شدة الغيظ.. وطال مقامه دون أن يهتدي إلى حيلة يقتحم بها على الرودام حصنهم..

وملكة الرودام مريضة من هول ما رأت .. لزمت فراشها ولم تقو على الحركة، وكانت تهذي بين الحين والحين بينما عامر يقوم بإرشاد الرودام داخل الحصن عما يفعلونه، وقد صمم على تأديب ملك البوشال الغادر وأخذ يتجهز لذلك..

قاد كوكبة من الفرسان الذين انتقاهم: نفس المجموعة التي داهمت الملك في مجلسه أثناء مشاهدته المذبحة والملكة أمامه. ثم اقترب من البوشال ليلاً وهاجم مجموعة منهم ارتاعوا لهول المفاجأة فحدث هرج عظيم واضطراب شامل عند البوشال، وكانت فرصة سانحة للنيل منهم بالسيوف فقتل منهم عدداً ثم تركهم في اضطرابهم وعاد مسرعاً إلى الحصن الذي أغلقت بوابته فور دخوله، وظل البوشال يتخبطون فيما بينهم ويقتتلون وكل منهم يحسب أنه يقتل الرودام ، ولما تبين ملكهم ما حدث لهم في الصباح جن جنونه، وأخذ يهذي ويضرب رأسه وقد وجد نفسه أمام خصم عنيد عظيم الحيلة كبير الدهاء، فجمع مساعديه وأخذ يستشيرهم فيما يفعله، ولكنهم كانوا على مثل حيرته واضطرابه، وما تعودوا من قبل مواجهة مقاتلين على هذا النحو من المكر والخداع، ثم قرروا العودة إلى ممكلتهم ليأخذوا فرصة أخرى للتفكير والاستعداد، وعاد الملك الغادر كسيراً مهموماً، وقد فقد عدداً كبيراً

من مقاتليه وهو يجر أذيال الخيبة ويلملم أشتات الهزيمة..

وقبل أن يصل البوشال إلى ممكلتهم بقيادة الملك الغادر ظهرت مجموعة من الرودام خلفه، تناوشه وتغريه بالانقضاض عليها، وأخذت تقذف البوشال بسهام مشتعلة، واغتاظ الملك وقفل راجعاً خلفهم يطاردهم، وهم يراوغونه مراوغة الثعلب ويزوغون منه، مما جعله يصر على ضرورة الظفر بهم كي يشفي غليله وظلوا يستدرجونه ويغرونه بالعودة حتى عاد الطريق كله، ووجد نفسه أمام الحصن مرة أخرى، وقد دلف إليه الروادم وأقفلوا البوابة دونهم واعتلوا أسطح الأسوار وقد تعالت أصواتهم وصيحاتهم تسخر من الملك الغادر مما زاد حنقه وجعله يصمم على البقاء حتى يهتدي إلى حيلة يقهر بها هؤلاء المختفين خلف الأسوار ذوي المكر والخديعة.. وكان مقامه أمام الحصن هو غاية ما يتمناه الروادم، وما قصد إليه عامر وظلوا يتوعدونه بالنزول إليه لقتاله وهو ينتظر فرصة خروجهم من الحصن دون جدوى، وقد اتضح أن البوشال على قوتهم وحسن استعدادهم ليست عندهم قيادة رشيدة ولا رأي حصيف..

وبينما كان ملك البوشال مقيماً أمام الحصن يتشاور مع خاصته وقد بلغ به الغيظ مبلغاً حال دون الإنصات إلى رأي من حوله إذ أتاه تابع من أتباعه يلهث من شدة التعب ووقف أمام الملك وقد تقطعت أنفاسه وهو يقول:

ـ الروادم يا مولاي!! الروادم يا مولاي.

ـ ماذا .. ما الذي حدث؟

ـ الروادم يهجمون على مملكتنا ويحرقون ديارنا..

فصرخ الملك في وجهه قائلاً:

ـ ماذا تقول؟ انطق ما الذي حدث؟..

ـ أفلت يا مولاي بأعجوبة وقد تركتهم يحرقون وينهبون كل شيء..

فصاح الملك في البوشال أن يتبعوه فوراً لإنقاذ بلادهم، والقبض على الرودام والانتقام منهم، وما أن تحرك الملك عائداً إلى مملكته في عجالة المجنون، وسار نصف يوم حتى فتحت بوابة الحصن ليدخلها عامر بعد أن دبر هذه الحيلة لإبعاد الملك الغادر عن بلاده حتى يغير عليها فيحرق بيوتهم ويهدمها ويعود على عجل ومعه أسرى من بينهم كودر شقيق الملك وزوجته، وأنزلت البوابة دونهم وأخذ الرودام يستريحون من عناء الجهد المتواصل ويصلحون من شأنهم ويعودون ملكتهم في فراش مرضها يواسونها ويحملون إليها أخبار المعارك العظيمة، والحيل الفريدة التي قام بها عامر في تأديب الملك الغادر..

وقد ترامت الأنباء وانتشرت الأخبار في كل مكان.. ولما اطمأن الرودام الفارون من سيوف الغدر جمعوا شملهم وعادوا إلى بلادهم واستقبلهم أهلوهم بشوق عظيم وقد عوضتهم انتصاراتهم عن الآثار الدامية التي تركتها المذبحة في نفوسهم.

دخلوا إلى الحصن لا يصدقون أعينهم عندما شاهدوا ملكة البوشال حبيسة السجن وكودر شقيق الملك رهين القيد في غرفة مظلمة وأعداد كبيرة من البوشال تغص بهم غرف أخرى، يخرجونهم كل صباح يعملون في نقل الأحجار للبناء وإصلاح البيوت ورفع الماء من الآبار ثم يعيدونهم مع المساء تحت حراسة الأسواط والسيوف..

دخل عامر إلى الملكة يزورها بعد أن تحسنت صحتها، ولما رأته أمامها نظرت إليه بعين الندم لأنها لم تسمع لنصحه وقبل أن يحييها

دعته فسلم ثم دخل وبقي واقفاً وقال لها:

لقد كتب الله لك النجاة وخذل الملك الغادر فلحقته هزيمة تلو هزيمة وقومك الآن أصبحوا على خبرة بفنون القتال وعاد المشردون منهم...

وعندك ملكة البوشال التي كانت تريد عقدك ونشبت الحرب للمحافظة عليه.. نزيلة السجن وكودر شقيق ملك البوشال رهن القيد في يديه وقدميه تضمه غرفة مظلمة.. وجئت أودع حيث انتويت الرحيل لشأني، وأظن أن واجبي نحوكم قد انقضى وسلم عامر، ونهض يهم بالانصراف فنظرت إليه الملكة، وهي لا تصدق عينيها بأن عامراً سيفارقهم وهو يخطو خارجاً والملكة تنظر إليه ولا تحول نظرها، وبنبرة أثارها جزع الفراق وعبرة أفاضتها مرارة الوداع صاحت الملكة:

ـ عامر..

فاستدار عامر والتقت عيناه بعينيها وسكت.

ـ أفراقاً نويت؟

ـ هي الضرورة أمضي لها..

ـ لعله لم يطب لك عيشنا!!

ـ هكذا الحياة تفارق ما طاب جرياً وراء المجهول الذي لا نعرفه..

ـ أو لعله لم يؤنسك جوارنا !!

ـ أيتها الملكة طالما هجرنا الأنس إلى الوحشة، وما لنا في ذلك حيلة..

ـ أعامر، تزمع الرحيل حقاً؟ أم هذيان الضعف يغشانا؟..

ـ لو دام حال ما جئتكم ولا حظيت ولو لبعض الوقت لجواركم..

ـ لعل اختلاف الجنس يشدك عنا بعيداً حيث الأهل..

ـ إنها نواميس الخلق تحكم سلوكنا وتضبط مرادها ومرماها.
ـ قالت والدمع يتفجر من مقلتيها أو حيث الأحباب؟..
ـ تجلدي فإنه حب الخير للخلق كلهم..
ـ أنى لي التجلد؟ أنسبح في سماء الخيال فنطلب المحال ممن يعيشون فوق التراب؟ أم نكلف نفوسنا ما ليس من طبعها ونحمل أثقالاً دونها قدرتنا؟ وما الماء يفجر الصخور على صلابتها ويفتت الأحجار على قساوتها؟ أم تحاكي قلوبنا الصخر والحجر؟.
ـ هدئي من روعك أيتها الملكة الكريمة فكل حي إلى افتراق صائر..
ـ ما أثرنا قلوبنا حتى نهدئها . ولكن أثارها زائر يمر بنا كطيف خيال أهاجها فما تعرف القرار، واقتلعها من مكانها برحيله فعلقت بين الأرض والسماء. ويحك عامر!! أنت بين الأخوة والأهل وبين ..ثم أجهشت في البكاء.. وعلا نحيبها، وتتابعت زفراتها، وقد أخفت وجهها بكفيها، وتقطعت كلماتها وهي تقول : ويحك عامر إلى أين ؟ ويحك!!..
ـ أيتها الملكة الكريمة، فقد داهمتنا الحرب وفارقنا الكثير، وإن قلوبنا لفراقهم لحزينة، والحزن والفرح من طبع الحياة، وفراقي حي ليس بأعز من فراقهم موتى..
ـ أفاتك أن الأحياء يواسي بعضهم بعضاً فيمن فقدوه؟.
ـ ما فاتني ذلك وقلبي يواسيك..
ـ أبالفراق عامر تواسيني؟ متى كانت الجراح تطيب الجراح؟
ـ أيتها الملكة الكريمة لقد رغبت في أن أكف عنكم ملك البوشال، وأوضحت عن رغبتكم في أن أحمل عناء الفكر فيما أهمكم ، وكان

ذلك في مقدم زيارتي ولم يكن بعد ذلك شيء.

- أكنا نعلم الغيب والغيب لا يفصح إلا ساعة الحضور؟ أم كنا نملك القلب وصمامه عن منال أيدينا بعيد بعيد.

- كذلك القضاء أيتها الملكة نزوركم ونرحل وهكذا القدر يفرح ويحزن.

ما أغناك عن إنقاذي أو ما تركتني مع الراحلين عن الدنيا..؟

- إن قومك إليك في حاجة، فشملهم بك يجتمع وقوتهم بك تشتد، وليسوا الآن في غنى عنك.

- وقلوبنا .. من عامر لها ..؟

- يعمرها حب الخير لمن أنت عليهم راعية ومسئولة.

وفاض بها الحزن واضطربت شفتاها تتمتم، وضاع بينهما الكلام، وعقد اللسان، فما عاد ينطق وزاغ منه البيان وتولى الدمع بعد ذلك ما فاق في فصاحته سحبان ومدت بيد الرجفة يدها تخلع من إصبعها خاتماً يزينه، وناولته إياه متمتمة وهي تغالب الدمع...

- احتفظ به.

- فتناوله عامر شاكراً، وتمنى لها الخير وسلم، وخرج وخرجت هي في أثره تطوف على قومها معه، وهو يودعهم وهم أشد ما يكونون حزناً وألماً لفراقه إياهم، وقد أظهروا له وداً دونه كل ود وحباً دونه كل حب.

كم كان مشهداً يهز القلوب، وقد خرج الرودام عن بكرة أبيهم يودعونه وهو يلوح لهم بيده وقد ابتعد عنهم بفرسه الأشهب الجميل.. وظلوا يلوحون له حتى غاب عن أنظارهم وانكفأوا إلى دورهم يفيضون بالحزن وألسنتهم وقلوبهم لا تفتأ تذكره إلا بالخير..

استمر عامر في طريقه عدة أيام، ولم يكن يدري أين يذهب ولكنه سار حيث يقوده الدرب الذي مشى فيه وكان فكره معلقاً في صاحبيه كيف يجدهما . .

نزل يستريح من عناء السفر ثم جلس متكئاً إلى جذع شجرة وقد ربط بها مقود فرسه. وما هي إلا لحظة حتى أخذته غشية عميقة أفاق بعدها ليجد البوشال قد أحاطوا به من كل مكان.

وهنا نترك عامراً لنتابع الأمين وقد مضى في طريقه بعد أن تركه الرقراق دون أن يفصح له كيف عرفه، وكان الرقراق قد استحثه على المضي سريعاً بالتوتان الذي يحمله وقد فهم أن ضرورة ستلجؤه إلى استخدام سيفه البتار فوكز الأمين التوتان وانطلق يسابق الريح لعل في سرعته نجدة للضعيف الذي أشار إليه الرقراق ولكنه لم يدر من هو الضعيف الذي عناه الرقراق ولا الأرض التي يقطنها وكانت عنه بعيدة. . اجتاز في طريقه الفيافي والقفار وتحايل بالتوتان على اجتياز الغابات والأنهار، ولا يرى معلماً يدل على حاجة لنجدة ولا أثراً يرشده على ضعيف يطلب العون حتى أجهده السفر وبلغ به الإعياء مبلغاً عظيماً. فنزل عن التوتان وأخذ يستريح من عناء جهد متصل كل ذلك والعرقاب لا يفارقه والجنداب الذي أهوى إليه يطير حيناً ويحط على رأس التوتان كلما استوقفه الأمين. . وأشفق الأمين على الإجهاد الذي ظهر على العرقاب وبعده عن موطنه الذي يضم أصحابه وقد كان يحسب أن السفر قريب والشقة دانية. .

قال الأمين للعرقاب:

صاحبي: لقد أجهدتك معي إجهاداً مضنياً وما كان في الحسبان أن الغاية بعيدة وأنها مجهولة. . وأرى أن تعود فقد كفاني منك ما كان من

يد المساعدة في الحصول على سيفي البتار. . وإخوانك الآن وعشيرتك يفتقرون لوجودك بينهم فرحمة بهم أرى أن تعود ولك من الشكر أجزله.

العرقاب : بل أبقى معك فقد تكون في حاجة إلي.

لقد قضيت ما أحتاجه وأكثر وأرجو ألا تشق علي في إحساسي بجهدك فإن هذا يؤلمني أكثر مما يريحني وما زال الأمين بالعرقاب يحاوره حتى أقنعه بالعودة فعاد. .

ثم وقع نظره على الجنداب فإذا به يحني رأسه ملتفتاً إليه بعينه اليمنى تارة واليسرى تارة أخرى فقال له الأمين:

ـ وأنت أيها الجنداب: خذ رسالتي هذه إلى ملك الدوشيم تطمئنه بها وربط رسالة في قدمه يطمئن بها الملك، وطار الجنداب وبقي الأمين وحده ومعه التوتان.

كانت الرياح خفيفة ولم يكن يسمع إلا حفيف الأشجار والأعشاب العالية التي تكسو غالب المكان، وظل الأمين مستغرقاً يتأمل تمايل الأشجار العالية والسحب المتناثرة الناصعة البياض التي تسبح في فضاء اشتدت زرقته وظل على تأملاته لا يحول نظره عن الأشكال والرسوم العجيبة التي تتكون في السحاب، فمرة يخالها ترسم فارساً على حصانه ومرة يراها ترسم وجوها تضحك، وأخرى تبكي ثم تعود الرياح تفرقها لتجمعها على شكل جديد لحيوانات عجيبة ضخمة الجسم والرأس وهكذا مما لا يعد ولا يحصى من الأشكال يصورها الخيال الخصيب في ظلال السحاب؛ الأمر الذي منحه متعة غريبة يتسلى بها ويسري بهما عن نفسه عناء الجهد الذي يناله السفر . . .

وبقي هكذا سحابة نهاره حتى هدأت الرياح وهدأت معها

الأصوات، ثم سكنت وسكن معها صوت الأشجار والأعشاب، وطال السكون وعم الدنيا حوله إلا من تغريد عذب النغم يأتيه متفرقاً من بعيد ويصدر عن بعض البلابل التي يطيب لها أن تفخر بغنائها وتغريدها في هذه اللحظات العزيزة، ثم جاءه الصوت الذي استرعى انتباهه أنفاساً لاهثة تصدر عن مكان جد قريب، وانتفض الأمين واقفاً وفي سرعة البرق كان فوق التوتان وقد سل البتار، ثم أقدم فوق التوتان يتبين الأمر واقتحم به العشب الكثيف الذي حوى مصدر الصوت حتى وقف فوقه.. فإذا هو يصدر عن غزالة ترقد لا تقوى على الحركة، وتحرك الأمين في هدوء يمد إليها يداً حانية يهدهدها على رقبتها ويمسح بيد الرحمة رأسها، ثم هم أن يرفعها بيديه إلا أنه وجدها تتوجع بغير صوت، فعلم أنها مصابة ثم ما لبث أن رآها ترقد على جرح غائر في فخذها، فقدم لها فشربت وكانت عطشى .. أخذ الأمين يعالجها، وأوقد النار يغلي الماء في كوب صغير كان معه ولما فترت سخونته أخذ يغسل جرحها ولم يكن معه ما يطببها به إلا عسل النحل فغمر الجرح به ثم ضمدها بقميص له.. وظل يرعاها بعد ذلك .. يقدم لها الطعام والأعشاب الخضراء المورقة ويداوي جرحها . ومرت الأيام يوماً بعد يوم وحالها يتحسن ولما تماثلت للشفاء تماماً وأخذت تقفز هنا وهناك وتجري ذات اليمين وتعدو ذات الشمال، كان الأمين ينظر إليها فرحاً مغتبطاً، ثم قفز فوق التوتان ومضى في طريقه والغزالة تتبعه تحوم حوله في قفزات رشيقة إذا وقف، وتسابقه إذا جرى وهي لا تريد فراقه. ثم عبر بالتوتان مسيلاً للماء حال بين الغزالة وبين متابعته، ووقفت في الجانب الآخر لا تقوى على العبور كلما حاولت وتنظر إليه تميل رأسها يميناً وشمالاً وهو يبعد عنها مرتحلاً، ولم يرعب الأمين

إلا في أن يتركها لشأنها ترتع في موطنها. واستمر هو في طريقه عازماً على المضي قدماً رغم وعورة الطريق . . وبعد المغيب كان قد أشرف على الدخول إلى بلدة كبيرة ووقف يطل عليها من فوق ربوة عالية. فبدت البلدة كأنها مهجورة وقد لحظ أن بها مباني مهدمة بدت كأن حريقاً أكلها . . وكانت هناك بعض الأضواء المتناثرة التي انبعثت من مصابيح علقت على مداخل الدور . . ثم دفع الأمين التوتان متجهاً نحو هذه البلدة وما زال يقترب الهوينا حتى دخلها من الطريق الكبير الذي ينتهي إلى قصر الملك ووقع بصر الأمين عليه فأدرك أنه قصر الأمير أو الملك لكبره ووجود كثير من السرج معلقة على مدخله الكبير، كما أنه رأى سوراً على جانبي المدخل يخفي الدور امتداده ولمح أشجاراً كثيرة خلف السور فاتجه نحو بوابة القصر ولما اقترب جفل حصاناً الحارسين اللذين يحرسان المدخل لرؤية التوتان وأصابهما خوف عظيم، وعبثاً حاول الحارسان أن يتحركا بحصانيهما ولكن رؤية التوتان وأثره على نفسيهما كان كبيراً، ولم يكن عجب الحصانين من رؤية التوتان بأقل من عجب الحارسين الذين لم يروا في حياتهما حصاناً مثله يبعث المهابة في نفوس الفرسان والخيل على السواء، وما زال الأمين يدنو والحصانان يزداد تصلبهما حتى صارا كأنهما تمثالان، وحينئذ أدرك الحارسان أن الزائر القادم ذو شأن كبير فترجلا بعد أن بدأهما الأمين بالسلام ثم ردا التحية وطلب أحدهما من الأمين الانتظار حتى يستأذن له في الدخول على الملك وهرول الحارس داخلاً، حتى مثل بين يديه وقال مولاي: بالباب زائر يستأذن، عليه مهابة لم أعرف لأحد مثلها ويمتطي صهوة حصان هابته خيل الحراسة حينما رأته فجمدت في مكانها لرؤيته فما تقوى على الحراك.

دعه يدخل، وكان الملك يجلس في حاشية له في طرف من أطراف الحديقة ازدان بمصابيح وسرج انتشر ضوؤها فملأ المكان، وكان الملك ينظر إلى من حوله وهم ينظرون إليه تعجباً مما سمعوه من الحارس .. وما هي إلا لحظة حتى رأوا الأمين على ظهر التوتان يقترب من مجلس الملك فأخذتهم جميعاً مهابة من الزائر لا تقل عما وصفه الحارس من قبل، وكانت مهابتهم من طلعة الأمين عليهم لا تقل عن مهابتهم لرؤية التوتان العجيب، ولم يملك الجالسون إلا الوقوف إجلالاً لهذا الزائر الذي أثار في نفوسهم أحاسيس شتى ووقف الملك مع الواقفين وقد نسي ما جرى من عادة الملوك بعدم الوقوف لأحد . . .

وكان الجمع صامتاً بينما كان الأمين يزداد اقترابه حتى أشرف عليهم وبدأهم بالسلام قبل أن يترجل وردوا عليه التحية، ولم تخطئه فراسته في تمييز الملك من بين الواقفين فأقبل نحوه يصافحه واستقبله الملك مرحباً وكثرت على لسانه عبارات الترحاب ودعاه للجلوس بجواره وقد تشتت نظره بين الأمين وبين التوتان.

قال الملك : مرحباً بالزائر، مرحباً بالكرام ثم أشار إلى خدمه فوزعوا الشراب بادئين بالأمين، وكان من عادة القوم أن يقدموا شراب الليمون ساخناً ممزوجاً بقليل من «الهيل» يمر الخدم به مرات ثلاث بادئين بالضيف ثم يشرب الملك بعده من نفس القدح ويليه الجالسون يفعلون فعل الملك ويتغير القدح والخادم الذي يقدمه في كل مرة. . .

وقدم الملك الحاضرين إلى الضيف يعرفه بهم وهم يجلونه بنظراتهم، وقد لزموا الصمت جميعاً يريدون أن يسمعوا الزائر ولكن الملك كان بالغ الحرص في الترحيب بضيفه ومدت الموائد وجاء

الطعام فأكلوا وشربوا والأمين لا يزيد عن إجابتهم بالابتسامة أو الردود التي تناسب المواقف في مثل هذه المناسبات ثم أخلى الملك مجلسه وانفض الجميع وعندئذ ذهب الأمين للنوم والراحة من عناء السفر.

ولما كان اليوم التالي خلا الملك بالأمين يحادثه فقال:

ـ لقد طاب فألنا بزيارتك فاستبشرنا وحسن طالعنا بقدومك فارتاحت نفوسنا، ولقد كنا في حيرة قبل مجيئك فما عاد للحيرة وجود بعد قدومك.

ـ كم يسعدني أن أكون في خدمتكم، وإن إكرامكم وفادتي يشدني إليكم ويطوق عنقي فما يحلني من الطوق إلا أن أقضي لكم ما ترون حتى يفيض عندكم الرضا.

ـ من أين القدوم وفيم زيارتك؟

ـ جئت من بلاد الدوشيم وهي عنكم بعيدة وأنا بكم عابر سبيل فخرجت في خير أبتغيه ومعروف أرتجيه.

ـ إذن فقد حظينا بك . .

ـ وحظيت بكم.

ـ لعل في وقتك فسحة نغتنمها.

ـ وإن لم يكن فدونكم الوقت كله.

وهنا استأذن الحاجب في دخول قائد الجيش، ولما دخل حيا الملك وقال مولاي لقد وقع في أيدينا وقبضنا عليه.

قال الملك : أحقاً؟

ـ أحضرناه ولقد أودعته السجن.

فقام الملك وخرج مع قائد جيشه ثم غاب ساعة أو بعض ساعة عاد بعدها فرحاً مغتبطاً. . .

وقال الأمين: لقد جاءني مع قدومك من الأخبار ما لم أستبشر به من قبل كما استبشرت اليوم.

ـ خيراً!!

ـ إنه النصر الذي تهش له كل نفس..

ـ أفي حرب بينكم وبين أعدائكم؟

ـ بلى. وهي بيننا وبينهم سجال يوم لهم ويوم لنا.

ـ وهل الدور التي رأيتها محرقة ومهدمة من آثارها؟

ـ نعم؟.

ـ ولماذا لم تمنعوهم من الوصول إلى دوركم؟

ـ وكيف نمنعهم وقد تستروا بالليل فلم يرهم أحد . . .؟

ـ تمنعونهم بسور عظيم تقيمونه حول المدينة فلا ينفعهم الليل ولا النهار في النيل من دوركم.

ـ كم هي فكرة عظيمة حقاً، وإن أعداءنا لهم حول بلدهم مثل هذا السور، وما يحول بيننا وبين بنائه إلا قلة الخبرة في رسمه والدراية في إقامته.

ـ أرشدكم قدر استطاعتي، وإن حماية الأهل والدور دونها كل بذل.

ـ أحقاً تستطيع . . .؟

ـ أبذل غاية الجهد وما توفيقي إلا بالله.

ففرح الملك كثيراً وقام يصافح الأمين بحرارة زائدة ثم دعاه للخروج معه فأخذا يطوفان البلدة، وخرج الاثنان والأمين على التوتان لا يقوى حصان الملك على الاقتراب منه.. فاقترح الملك أن يطوفا راجلين واستجاب الأمين، واستمرا في سيرهما ومقود التوتان في يده

حتى طافا البلدة وتفحصا الأرض حولها، وعادا من جولتهما إيذاناً ببدء العمل في اليوم التالي وانهمك أهل البلدة جميعهم كباراً وصغاراً نساءً وأطفالاً، يشيدون سوراً عظيماً يحيط بالبلدة إحاطة السوار بالمعصم ولقد تعلموا كثيراً أثناء تشييده لكثرة ما جربوه. . .

ومضت عدة أشهر قبل أن يكتمل العمل العظيم الذي بدأ . . وامتدت يد التعمير بعد ذلك إلى كل مكان في البلدة، والأمين يرشدهم وكم أفادته هذه التجربة كما أفادتهم، وتطورت خلال هذه المدة الصلة بين الأمين وأهل البلدة جميعهم يحيونه إذا مر بهم ويجلونه إذا نزل بينهم، ومضت بضعة أشهر أخرى بدت بعدها المدينة كلها مثل عروس يوم زفافها، جميلة دورها، نظيفة شوارعها، منسقة حدائقها، منظمة أسواقها، مؤمنة حدودها، وقد تعاظم حب الملك للأمين لكثرة ما أسدى إليهم من أياد طوال في هذه الفترة، وقد حدث تحول غريب في خلق القوم بعد أن رأوا بلدتهم على هذا النحو الفريد؛ فقد تعودوا على العمل طوال نهارهم وسرت بينهم موجة من التنافس على تحسين أحوالهم وتزيين دورهم والتمتع بأوقاتهم في أنديتهم.

أراد الأمين أن يودعهم بعد ذلك كي يمضي إلى سبيله، ولكنه وجد مسحة من الحزن تغشى وجه الملك، وأراد أن يطمئن إلى أنه ليس هناك ما يسوءه، ولما سأله أجاب الملك:

ـ حقاً إن بلدتنا بلغت بجهودك غاية الجمال ولكنه لم يكتمل.

ـ إن كان نقصاً تراه فنحن دونه حتى يبلغ الكمال.

ـ ليس النقص في جديد نشيده.

ـ ففيم إذن؟

ـ في القوم الذين غاب هذا الجمال عن عيونهم.

ـ ألك في قومك من ناءت به الأسفار؟

ـ ليست الأسفار.. إنها الحرب !!

إنها سنة الحياة وما كان للموتى أن يدركوا ما يقوم في أجيال لاحقة، والآجال مرهونة بأوقاتها لا تستقدم ولا تستأخر.

ـ ليسوا موتى هؤلاء الذين أحدثك عنهم.

ـ أين يكونون إذن؟

ـ لقد وقعوا في الأسر، وما لنا من حيلة نفتديهم أو نستنقذهم بها..

ثم أطرق الملك رأسه وعلامات الحزن والتفكير بادية على قسمات وجهه، وأطرق الأمين يفكر فيما أهم الملك ثم قال له:

ـ أو ما تستطيع استنقاذهم؟

ـ لو كان ذلك بالإمكان لفعلته أو لطلبت ذلك منك.

ـ إذن دعنا نحاول..

ـ فيم المحاولة ؟

ـ في اختطافهم ..

ـ كيف؟

ـ أعطني مائة من الرجال الأقوياء ومرهم بالطاعة لي...

ـ ولكن كيف ستستطيع أن ....

وقبل أن يتم الملك كلامه قاطعه الأمين...

ـ نحاول ما وسعنا الجهد...

وتحرك الأمين صباح اليوم التالي على رأس مائة من الفرسان الأشداء .. ومعهم ما يكفيهم من الزاد وما يلزمهم من عدة وعتاد .. في طريقهم إلى بلاد الأعداء. واستمروا في طريقهم سائرين على طاعة

كبيرة لقائدهم الأمين، وأقاموا عسكرهم على مسيرة يوم من خصومهم وتابع الأمين الطريق وحده، يرافقه أحد الفرسان حتى أشرفا على بلدة أعدائهم بعد مغيب الشمس بساعة أو نحوها . .ودار الأمين دورة كاملة حول البلدة يتفحص أسوارها، ثم أعاد الدورة واختار بقعة وضع عليها معلماً من أحجار متجاورة وطافت على ثغره ابتسامة وقال لرفيقه:

ها هنا وكان رفيقه بعيداً عنه كما هي عادة الخيل إذا اقترب منها التوتان. . ثم قفلا راجعين . . إلى بقية الفرسان وبدأ العمل في همة كبيرة ونشاط عظيم من البقعة التي حددها الأمين وكان العمل يتم دائماً بالليل ثم يبتعدون مع الفجر عن أعين أعدائهم . . ومضى شهر في هذا العمل الدائب قبل أن يكتمل تحت الأرض نفق يطل على ساحة المدينة تمكن الأمين من مراقبة كل ما يدور بالداخل، وعرف موقع السجن، وعدد غرفه فقد ميزته أبوابه وقضبانها . . واستمر العمل بعد ذلك بهمة أكبر متجهين بالنفق تحت غرف السجن جميعاً. . .

ولم يمض بعد ذلك يومان حتى كان الأسرى جميعهم قد خرجوا من النفق بعد مغيب الشمس بقليل . وركبوا على الخيول خلف الفرسان، وانطلق الجميع عائدين إلى بلادهم.

كان الملك يقف كل يوم فوق الأسوار يوجه نظره بعيداً حيث غاب الأمين ومعه أشد الفرسان،. . ولقد استبد به قلق عظيم لمَّا طالت غيبتهم ، وكثيراً ما أسلم نفسه فريسة سهلة للظنون السود والوساوس المظلمة والهواجس الكئيبة. ومضى أسبوعان ولم تأته الأخبار، وبدت بعد ذلك ألفاظه وحركاته تنقلب وتخرج عن مألوفها كلما مضى يوم دون أن يأتيه ما يطمئنه،وفي مطلع الأسبوع الرابع غالبه يقين بأن الأمين هلك مع رفاقه، وعبثاً حاول أن يدفع عن خياله هذه الظنون والأوهام

ولكنه لم يستطع، وتلفت حوله فيما يفعله ولكن عقله لم يهده إلى طريقة للخلاص مما هو فيه..

وفكر .. ودام تفكيره طويلاً، وزاد مع طول تفكيره شعوره بالحنق والغيظ من أعدائه ، ولم يكن تحت يده منهم إلا سجين واحد، كان شأنه بينهم كبيراً .. وصب الملك جام غضبه على هذا السجين، فكان يأمر بإخراجه كل يوم فيوضع على مشهد من جميع أهل البلد في الساحة الكبيرة ثم يبدأون جلده بالسياط حتى يغشى عليه، ثم يدفقون عليه الماء كي يفيق ليعاودوا جلده من جديد، واختلط لحمه بثيابه الدامية تحت لسعات السوط، وكانوا يعيدونه إلى سجنه يستريح مساءه ليقوى على تلقي المزيد من ضربات السياط في يومه التالي . وكان الملك لا يتصور أن يقوم أعداؤه ـ الذين لم يكن قومه يتصورون فقدان المزيد من فرسانهم وبخاصة الأمين الذي تعلقوا به وقد دفعهم هذا التصور إلى أن يكيلوا لهذا السجين من الضرب ما لو وزع على أعدائهم جميعاً لكفاهم..

وفي ليلة قام الملك على صيحات لقومه تعالت فجاوزت عنان السماء، واتصلت هذه الصيحات في دوي عظيم هز أركان البلدة كلها، وخرج الملك مهرولاً يستطلع النبأ وقد فقد القدرة على تمييز ما يسمع، أيسمع. أهي صيحات غضب أم صيحات استحسان؟ ولم يستمع ما قاله له حراسه وهو يجتاز ساحة القصر متوجهاً إلى البوابة الكبيرة، فقد لحظ حشداً عظيماً من قومه خارج القصر ولما وصل .. إذا به يفاجأ برؤية الأمين على ظهر التوتان وخلفه الفرسان الذين خرجوا معه مكتمل عددهم، وقد حملوا جميع أسراهم على الظهور خلفهم.. وعانق الملك الأمين عناقاً حاراً وكان يبعده لينظر في وجهه

ثم يعاود عناقه مرة أخرى وأخذ يفعل ذلك مع بعض من جاؤوا به من الأسرى ودامت الاحتفالات طوال الليل، وهجر النوم أجفان القوم وهم يستمعون إلى الطريقة التي نجوا بها. . يتسامرون بها في مجالسهم التي عمت البلدة كلها. . وكانت دهشة الأسرى كبيرة فقد حسبوا أنهم دخلوا مدينة غير مدينتهم لكثرة ما نالتها يد التعمير والتغيير، وطاف بهم أهلوهم ليلاً ليطلعوهم على ما تم في بلدتهم والأسرى قد أخذتهم دهشة أهلها بعودتهم سالمين. .

واحتار الملك بما يفعله لهذه المكرمة التي أسداها إليه الأمين وإلى قومه، وكم كانت أياديه عليهم بيضاء فأقام الملك إكراماً له الولائم أياماً ثلاثاً، وترك قصره مفتوحاً بابه لقومه يأتون إليه في الصباح إن شاؤوا أو المساء لو أرادوا لا يرد لهم طلب ولا يخيب أمنية لصاحبها فمن طلب مالاً بذله له بسخاء، ومن طلب عفواً عفا عنه، ومن طلب بيتاً أقطعه أو كساء ألبسه إياه أو طعاماً، فالموائد ممتدة يطوف عليها خدامه بما لذ وطاب، ولم تشاهد البلدة ولا أهلوها أياماً مثل هذه الأيام لما فيها من السرور الشامل والبهجة الغامرة.

وفي اليوم الثالث لهذه الأفراح كان الملك قد أخذ على نفسه عهداً أراد أن يفي به وأمر أن تتم التجهيزات وفاء لهذا العهد الذي قطعه على نفسه . . ودعا الأمين لمشاركته . . وجاء الأمين إلى الساحة الكبرى في البلدة ليجد جمع القوم قد انتظم كل من في البلدة صغيرهم وكبيرهم، وجلس عن يمين الملك ورأى نصباً قد أقيم في وسط الساحة لمشنقة، فراع الأمين مزاج القوم الذين يخلطون أفراحهم بالأحزان وقال للملك:

ـ عجباً هذا الذي أراه أتخلطون أفراحكم بالأحزان؟.

ـ كلا إنها أفراح فوق أفراح . .
ـ الموت يكون فرحاً؟ . .
ـ أحياناً يكون الموت غاية الفرح . .
ـ كيف وأنتم تقتلون بأيديكم؟ .
ـ عندما نقتل الشر فذلك غاية الفرح . . .
ـ لقد فاتني هذا المعنى وحسبت أنكم تقتلون رجلاً لا تقتلون معنى، ورؤية هذا الحبل هي التي خلطت علي هذا الفهم . . .
ـ لم يختلط عليك الأمر ولكننا نقتل الشر ونفتك برجل في نفس الوقت . .
ـ كيف يكون هذا؟
ـ الرجل الذي نقتله قد تلبسه الشر ونحن نريد أن نخلص من الرذائل التي واجهناها في الماضي بقتل هذا الرجل وبذلك لا يبقى لدينا منها شيء . . .
ـ أما يكون العفو أقتل للرذائل من هذا الحبل؟ . .
ـ إن ما فعله هذا الرجل فينا من شر لا تفي به مئات الحبال . . .
ـ ألهذا الحد بلغت أفعاله؟

نعم . . وقد قطعت على نفسي عهداً لست مخلفه، واليوم أفي بهذا العهد قصاصاً عادلاً إكراماً لقومي كلهم، وسكت الأمين، وكان الحراس قد أمسكوا بشخص لا تقوى قدماه على حمله يجرونه إلى حبل المشنقة جراً، وقد غطوا رأسه بحجاب أسود تدلى إلى كتفيه، وما زالوا به يجرونه حتى وضعوا الحبل في عنقه وانتظروا إشارة الملك . . .

قال رجل يجلس على يسار الملك أريد أن أنظر في عينيه أراه

ويراني قبل موته، فأذن له الملك ووقف الرجل حيث حجب وجه الشخص عن أعين الأمين، والأمين منصرف عن رؤية ما يدور حوله.

كم عاش الأمين بين هؤلاء القوم يسدي إليهم من معروفه الكثير ومن مآثره العديدة وقد أفلح في أن يغير فيهم خصالاً وعادات وعرف عنهم أشياء كثيرة وحجبت عنه أشياء، حجب عنه أن هذا الذي يواجه الموت بحبل المشنقة إن هو إلا صديقه عامر الذي بقي في سجن هذه البلدة الأشهر الطوال منذ قدومه، ولم يدر أن جسده قد مزقته السياط تنهال عليه طوال عشرة أيام بينما كان الأمين ينقذ أسرى القوم من حصن الرودام، وأنه عاش بين البوشال الذين ذاقوا على أيدي عامر ما لم يذوقوه من قبل.

لم يكن الأمين يدري أنه قد استنقذ كودر شقيق الملك وزوجته الذين كانوا أسرى وكان يحسبهم كباقي القوم .. ولم يكن يدري أن الملك هو دابورا التي سمع ميسا ملكة النحل وهي تقول ويح دابورا، ولم يكن يدري أن سارنا ملكة الرودام هي التي كانت تأسر من سعى لإنقاذهم بحيلته وجهده، ولم يكن يدري أن الرجل الذي كان يجلس على يسار الملك هو كودر شقيقه وقد قام ينظر في عيني عامر يشفي غليله ويقتله بهذا المعنى قبل أن يقتله الحبل ...

واستأذن الأمين في الانصراف معتذراً عن مشاهدة ما يدور فأذن له الملك فقام منصرفاً وعاد كودر بعد أن ملأ عينيه بحقد التشفي وأعطى الملك الإذن بالإعدام.

وهنا نترك ما يدور لنتابع هشاماً وسيد التماسيح والقرد الذي حرض ملك الأفيال على قتال التماسيح واستعادة التاج الذي زعم أنه صنعه ليهديه إليه، وكان ملك الأفيال قد أمر أعوانه بجمع الفيلة من كل مكان

كي يوجهها لحرب التماسيح، ولم تمض أيام قلائل حتى اجتمع من الفيلة عدد عظيم وضج المكان بأصواتها .. ونادى ملك الأفيال بعضهم وقال لهم: اذهبوا إلى التماسيح فاقتلوهم هم وسيدهم. فما أن سمعت الأفيال الماثلة أمامه هذا الأمر حتى استدارت وأخذت تصيح وهي سائرة والأفيال تتبعها والصياح يتعالى، ولما رأى القرد ما حدث كان يدور في رأسه تدبير آخر، وقد اختلف ما فعله ملك الأفيال مع ما يدور في رأس القرد، فأسرع القرد ووقف أمام ملك الأفيال منحنياً وقال له:

- ليأذن لي مولاي برفع رأسي حتى أحدثه.

وكان ملك الأفيال قد أعجب كثيراً لهذا الأدب الجم الذي يتحلى به القرد، والذي لا يفارقه أبداً في حديثه وحركاته، وكلما زاد القرد من مظاهر التأديب ازداد به ملك الأفيال تعلقاً وتمكن القرد بحرصه الدائم على هذا المظهر من إفهام ملك الأفيال بأنه وحده الذي يدرك من القدرة ما لم تدركه باقي الحيوانات، وفي غمرة هذا الإحساس أجاب ملك الأفيال:

- ارفع رأسك وتحدث يا من لا غنى لنا عن رجاحة رأيه.

- مولاي والرأي رأيكم قبل الآراء وبعدها، ولكن الحرب تحتاج إلى روية وإحكام تدبير مما يعود على مولاي بأعظم المنافع..

- ماذا ترى؟..

- الرأي أن ترسل بعودة الأفيال وانتظارها حتى ننتهي إلى خطة ونحكم تدبيرها...

- ثم إن الأفيال قد علمت أن بينك وبين سيد التماسيح خصومة لا جواب عليها إلا الحرب .. وليس من المصلحة أن يعلم سيد

التماسيح بما نعده له ولقومه. . .

ـ ولكن أنى لسيد التماسيح بمعرفة ما نفعل. .

ـ قد يتسرب الخبر من الأفيال المتصايحة والتي سرها أن تفتخر سلفاً بما سنفعل. .

ـ كم يعجبني فيك التيقظ ورجاحة العقل.

ـ ولتقل مولاي للأفيال بأنك صرفت النظر عن هذه الحرب حتى لا يبقوا على شعورهم بأنهم جمعوا لمحاربة التماسيح. .

وأرسل ملك الأفيال من يأمرها بالعود فعادت ثم أخبرها بأنه غير رأيه وصرف عن محاربة التماسيح نظراً، ثم قال للقرد:

ـ ما هي خطتك في محاربة التماسيح؟. .

ـ ليأذن لي مولاي في يوم كامل وليلة أعتكف فيها، وأعرض عليه ما يسر قلبه.

فأذن له الفيل وبقي القرد يقلب في رأسه وجوه ما يدور فيها، ثم عاد من غده فرحاً مستبشراً مغتبطاً ودخل على ملك الأفيال وحدثه بعد أن أذن له كعادته قائلاً:

ـ أبشر يا مولاي. . .

ـ بم؟.

ـ بالنصر . .

ـ أي نصر؟

ـ هذا الذي ستنتزعه حيلتنا. .

ـ أفصح لست أفهم ما تقول. .

ـ أحدث مولاي على انفراد. .

فأمر ملك الأفيال بإخلاء المكان من الحاضرين حتى ينفرد بمحادثة

القرد في بعض الشؤون الهامة ثم قال له:

ـ ما عندك؟

ـ إذا أردنا أن نحارب التماسيح فيجب أن نصادقها..

ـ كيف؟ أنحاربها ونصادقها في وقت واحد؟ لعمري ما سمعت بهذا من قبل .. إما أن نحاربها ونتخذ للحرب عدته أو نصادقها فنصرف النظر عن الحرب ..

ـ مولاي حينما تريد الحرب ألا تحتاج إلى رصد العدو وجمع الأخبار عن حركاته وسكناته!

ـ نعم فإن رصد العدو أمر هام ..

ـ إذا كنا أصدقاءهم وأقصد لو تظاهرنا بصداقتهم لاستطعنا أن نرقب حركاتهم عن كثب، ولاستطعنا أن نطلع على خفايا ما يدور في تفكيرهم لأنهم حيثما يطمئنون لصداقتنا سيفصحون لنا عما في صدورهم وقد يشركونا في الكثير مما يدور عندهم.. وهذا ما رميت إليه..

ـ يا ويحي، كيف خطر لك هذا التدبير؟

ـ هذا من وحي مولاي الملك..

ـ ولكن التماسيح لن تطمئن إلينا وهي تعلم بوجودك مما حدثهم به صديقي الثور ...

ـ نرسل لهم رسالة..

ـ أي رسالة، وماذا تقول فيها؟

ـ تقول فيها لسيد التماسيح: لقد جاءني رسولك الثور يسمعني عنك كلاماً تعجبت له كثيراً فقال إنه جاءني يستطلع أخباري ويتجسس على مملكتنا ليحملها إليك نزولاً على رغبتك وعملاً بإرشادك لأنك تستعد

لمحاربتي وإنه قد أسر إليّ بهذه المعلومات لمعرفته السابقة بي، وقد أزعجتني جداً هذه الأخبار وأريد أن أستوثق منك حقيقة هذا الثور. وقد جمعتنا صداقات قديمة فأنتم تحبون الماء قدر ما نحبه وطالما عشنا سوياً لم نر في جواركم إلا كل خير ولم تروا في جوارنا إلا كل خير، كما قال لي : إن عندك قرد تستشيره في هذه الأمور وهو الذي يعاونك على هذا التدبير.

ـ ما هذا الذي تقوله، هو لم يبعث بالثور نحن الذين بعثنا به، وأنت هنا تشير علي ولست هناك تشير عليه فلم الكذب؟ لا . . لا . لا أوافق على هذا الكلام . .

ـ مولاي . . أنت تعلم أن الحرب خدعة . .

ـ نعم خدعة، وليس كذباً . .

ـ مولاي الكذب في هذه الشؤون كلها وما يلزمها من تدبير وإعداد وإجراء وحديث وسياسة ومفاوضة مع التماسيح، هو الخدعة الكبرى . . ماذا يكون إذن؟

ـ إن الحكماء الذين عشت معهم طويلاً . . وتعلمت على أيديهم يقولون : إن الكذب في مثل هذه المواطن يعتبر قمة الفضائل . . .

ـ من الذي قال هذا؟

ـ قال بذلك خاشو ورابا ودوبي وكوبال وسيدور من أساطين الحكمة في السياسة، كما أيد أقوالهم عفراك ومانوباك من مشاهير علماء الأخلاق . . .

ـ فعلاً . . لقد تذكرت أقوال هؤلاء جميعاً وكنت قد درست أقوالهم في الحكمة بينما كنت تلميذاً ولكن طول العهد أنساني إياها . . ثم استمر الفيل في حديثه قائلاً : أتعرف أنك نسيت اسماً من هؤلاء

الحكماء يكاد الآن يجري ذكره على لسان . . إنه . . إنه . . إنه . . .

ـ طافيل . . .

ـ تماماً . . تماماً إنه هو ذاته الذي أعنيه، تعجبني جداً ذاكرتك، إن له أقوالاً عظيمة . .

ـ تماماً يا مولاي أتعرف أشهر أقواله يا مولاي؟

ـ طبعاً أعرفها ولكن ذكرني بها . .

ـ قال طافيل : «الكذب هو المقعد الطبيعي لسياسة الملك».

ـ تماماً تماماً . . تذكرت الآن وقال كذلك:

ـ لا يصلح حاكم لا يجيد الكذب . .

ـ تماماً تماماً . .

ـ وبهذه المناسبة يا مولاي أقترح أن نسمي مولودك الجديد الذي رزقت به طا . .

ـ طا . . ما معنى طا ؟ . .

ـ أنت أبوه، وهو طا فيكون اسمه كاملاً: طافيل تيمناً بهذا الحكيم العظيم، وإني أتوقع أن يكون له في سياسة الحكم مستقبلاً باهراً . .

ـ ما أروع هذا الاختيار؟ . .

ـ والذي نرمي إليه يا مولاي برسالتنا لسيد التماسيح أن ننفي عن أنفسنا شبهة إرسالنا للثور أصلاً فيعتقد أن الثور يسعى بالوشاية والقطيعة، ولكنه لن يفلح ويؤمن بأننا لا نضمر له حرباً فيطمئن إلى صداقتنا ونتمكن من الاقتراب منه ثم ذكرنا بأني هناك سيجعله يعرف بأنني لست هنا فيزداد اطمئنانه لأنه يعلم أنني حزين لضياع التاج وإنني سأسعى إلى استرداده . .

ـ أعد علي هذا الكلام مرة أخرى . . ولكن اشرح لي كل فكرة فيها

حتى أستطيع متابعتك فإن أفكارك أصبحت سريعة وكثيرة، ومتداخلة وما هكذا تشرح السياسة للملوك..

ـ معذرة يا مولاي .. ثم أعاد القرد على ملك الأفيال أفكاره بهدوء وظل يكرر ويعيد حتى تمكن ملك الأفيال من استيعابها تماماً.. وعندئذ أخذ يضحك ويميل رأسه للخلف ورفع رجله يربت بها على كتف القرد من شدة استحسانه فكاد القرد ينفق تحت رجلي الفيل التي تنزل على كتفه .. وضحك القرد مجاملة وأخذ يبتعد عن منال الفيل خشية أن يستحسن أفكاره القادمة ويعبر عنها بهذا المزاح الثقيل .. ثم استطرد القرد قائلاً:

ـ وبالطبع فإن سيد التماسيح سيرد رداً ينفي فيها بعثه للثور ويستنكر هذا الفعل، وسيقول لنا: إن الثور قال له مثل هذا الكلام ، وإن ما سعى إليه الثور من الوقيعة لن يتحقق ثم إنه سيقول لك: وليس عندي قرد أستشيره في مثل هذه المسائل ، ولكن الذي عندي إنسان..

ـ إنسان ؟...

ـ نعم يا مولاي إنسان ..

ـ أخطر ما خلق على وجه الأرض وأنا يا مولاي كذلك إنسان..

ـ أنت؟..

ـ نعم يا مولاي أنا إنسان ولكني إنسان متطور.

ـ وهل هو يشبهك؟

ـ بعض الشبه، ولكن ينقصه الذيل والشعر، أو بمعنى أصح أنا أزيد عليه الذيل والشعر، ولكن سمعتك تقول قرد في الخطاب لسيد التماسيح هو عندي وليس عندي .. وليس عند التمساح وعنده..!!

ـ قرد ..؟ هي زلة لسان يا مولاي وقومنا لا يمزحون بهذه الألفاظ

.. ثم أطرق القرد يفكر ملياً وقد امتلأ صدره بالغيظ مما ذكره به ملك الأفيال ولكنه تمكن من إخفاء غيظه ودار تفكيره سريعاً، ثم قال لملك الأفيال:

ـ ننتهي من هؤلاء أولاً ثم نعود لمولاي .. ولم يفهم ملك الأفيال ما عناه القرد ولكنه كعادته يفهم بعض الكلمات ولا يفهم البعض الآخر .. واستطرد القرد في حديثه:

ثم إنه يا مولاي عند تسلمنا رد ملك التماسيح نرسل له هدايا عظيمة رمزاً للوفاء والإخلاص والصداقة والأخوة ونرسل له فيلين يكونان في خدمته وتحت أمره هدية أخرى..

ـ أنرسل له فيلين كهدية؟

ـ نعم يا مولاي وهذين الفيلين يقومان في خدمة التماسيح ويظهران له الولاء والإخلاص والغيرة على العمل والحرص على الخدمة حتى يصبحا محل ثقته وهذا هو ما نرمي إليه..

ـ أنرمي إلى أن تكون الأفيال مخلصة لسيد التماسيح..؟

ـ كلا ليست مخلصة ولكنها تتظاهر فقط بالإخلاص حتى يقربهما جداً وبذلك نعرف منهما كل الأخبار، ويجب أن نعطيهما تدريباً خاصاً على القيام بهذا العمل.

ـ يا ويحي .. كيف ورد لك هذا الخاطر ...؟.

ـ وهنا استأذن أحد الأفيال في الدخول.

فقال له ملك الأفيال: .. لا أستطيع الآن مقابلة أحد فإني مشغول...

فأسر القرد بصوت منخفض ـ بأمور عليا ...

واستطرد ملك الأفيال بصوت عال بأمور عليا.. وأمر الفيل

بالوقوف للمراقبة وعدم السماح لأحد بالدخول عليهما وقال:

ـ نعم أكمل . . .

ـ إن أهم ما يعنينا هو التاج وسيكون الفيلان قريبين من سيد التماسيح وعند تهيئة الأمور فسيكون في متناول أيدينا.

ـ يا لها من حيلة رائعة. . !!

ـ ولكننا لن نكون قادرين على إتمام خطتنا هذه طالما كان سيد التماسيح قادراً على التفكير السليم. .

ـ وهل يملك سيد التماسيح عقلاً مثل عقلنا . .؟

ـ كلا . . كلا. فعقل مولاي أعظم بكثير ولكن الذي أقصده ألا نجد مضايقات في أعمالنا.

ـ من الذي يضايقنا؟

ـ وجود الإنسان الذي حدثتك عنه بجوار سيد التماسيح فإن هذا سيفسد علينا كل خططنا، والأفضل أن نبعده كي يخلو الجو للفيلين الذي سنهديهما لسيد التماسيح فيستطيعان بذلك القيام بما سنكله إليهما من أعمال.

ـ ولكن كيف نبعده؟

ـ ندعو سيد التماسيح لزيارتنا هو ومن يحب من المقربين إليه وبالطبع سنوحي إليه بالاعتذار، وسيقوم الفيلان بهذا بحجة أن الأعمال كثيرة وسيقترحان عليه أن يرسل نائباً عنهِ وسيكون هذا النائب هو الإنسان وسوف يقدمه سيد التماسيح فخوراً بأن في مملكته من الشخصيات من يتباهى بهم أمام الغير من الأمراء والملوك. .

وبعد ذلك يموت هذا الإنسان.

ـ كيف؟ وافترض أنه لم يمت!!

- مولاي: أرجو أن يكون الكلام مفهوماً ويموت هذا الإنسان. هذا التعبير معناه أن نفتعل حادثاً نقتله به ثم نشيع أنه مات موتاً طبيعياً. .
- ولكن كيف سيصدقنا الجميع. . .؟
- الذين يبحثون عن الحقائق والأسرار قليلون، وهم في مملكتنا لا وجود لهم والكل سيصدق ما يرون.
- ماذا سيرون؟
- مولاي: نقيم مأتماً عظيماً ونبالغ في مظاهر الحزن والأسى ونقبل التعازي في كل مكان ونتحدث عن مآثر الفقيد وأقواله وأفعاله. وبذلك تضيع الحقائق يا مولاي في مظاهر العزاء.
- يا ويحي من أين لك هذا العقل الذي تفكر به؟
- مولاي : ألم أقل لك إني إنسان متطور؟
- ما أعظمك من مستشار أتعرف؟
- نعم مولاي. . .
- إننا نحن الاثنين نستطيع أن نفكر سوياً بعقل واحد تفكيراً عظيماً.
- بالطبع يا مولاي.
- وأن هذه الأفكار التي فكرنا فيها سوياً والتي تركتك تسردها لي أفكار عظيمة.
- بالطبع يا مولاي.
- وجديدة. .
- بالطبع يا مولاي.
- إذن أكمل سرد ما نفكر فيه. .
فاستطرد القرد قائلاً: وإننا بالتخلص من هذا الإنسان سنضعف التماسيح وسيدهم؛ بعدم وجود مستشار لهم ويكون مولاي أقوى

بوجود مستشار إلى جواره..

ـ تماماً ثم نحاربه ونقضي عليه.

ـ كلا كلا يا مولاي، لن نحاربه..

ـ لن نحاربه .. وما هذا الذي نحكي فيه ونعده..

ـ نسلط عليه الآخرين أولاً حتى يضعفوا قوته فإذا أشرف على الهلاك فلن يحتاج منا بعد ذلك كبير جهد.

ـ ومن الذين نسلطهم..؟

ـ بعض الأغبياء يا مولاي ممن لا يفهمون هذه المكائد المعقدة وهم كثيرون.

ـ مثل من؟

ـ الثور ...

ـ الثور !! أويستطيع الثور وحده أن يحارب التماسيح وقد أفلت منهم قبل الهلاك؟

ـ ولهذا فهو أصلح من يحاربه..

ـ أقول لك أفلت من الهلاك وتقول أصلح من يحاربهم؟

ـ مولاي: إن الثور بعودته على هذه الحالة المهينة قد تكوَّن في نفسه شعور بالغيظ وحب الانتقام .. وهذا هو الشرط الأول لقيام الحرب...

ـ ماذا تقول أيها المستشار؟ أنت تهذي، ويبدو أنه ليست لك خبرة بما تتطلَّبه الحروب من عدة وعتاد...

ـ مولاي : .. أقول : إن هذا أول الشروط ولم أقل إنه الشرط الوحيد.. والآن لا شك أن الثور ممتلىء بالحنق والغيظ .. وكل ما سنعمله هو حشد باقي الثيران والأبقار ونسعى لضمان ولائهم له

وطاعته إياه . . وحينئذ لن يتردد في محاربة التماسيح لاسترداد سمعته وللانتقام لنفسه.

ـ إنها فكرة ماكرة . . ماكرة جداً . . ولكنها . .

ـ عظيمة يا مولاي. . .

ـ آه . . عظيمة. .

ـ وبذلك يا مولاي . . فقاطعه الفيل قائلاً: ولكن الثور صديقي فكيف أتركه وحده يحارب.

ـ مولاي؟ لن نتركه وحده يحارب ولكنك سوف تبذل جهوداً مضنية وتسهر الليالي في تجميع باقي المؤيدين والأتباع.

ـ المؤيدين من الفيلة؟

ـ كلا يا مولاي: من الثيران والأبقار فهي حربهم أما نحن فسنظهر بمظهر الأصدقاء للتماسيح.

ـ ولكن هذا الفعل ليس من كريم الأخلاق.

ـ مولاي : يبدو أنك نسيت ما كنت تدرسه في المدرسة وأنت تلميذ. .

ـ لا . . لا لم أنس ولكني أذكر تماماً أننا يجب أن نتمسك بالأخلاق الكريمة.

ـ أتعرف ما معنى الأخلاق الكريمة يا مولاي؟ قال فلابان: «الأخلاق قسمان: أخلاق كريمة وأخلاق كريهة والأخلاق الكريمة أن تسلك كل السبل التي تحقق لك ما تريد والأخلاق الكريهة هي ألا تسلك هذه السبل فلا تحقق ما تريد».

ـ ومن يكون فلابان. . ؟

ـ فلابان يا مولاي هو عالم يعيش في دنيا الحضارة له بحوث

مستفيضة ونظريات جريئة، يتتلمذ على يديه كبار المعلمين والفلاسفة ويعدونه حجة العصر وصاحب القول الفصل، ولا يمكن لنا أن نخالف ما جاء به من أفكار وإلا حلت بنا المصائب. ورمتنا الأمم والممالك بعدم الفهم وضيق الأفق والأخطر من ذلك أن يرمونا يا مولاي بالجمود وعدم القدرة على إدراك الحكمة.

ـ كلا .. لن نخالف رأي الحكيم «فلابان» وإننا قادرون على فهم ما جاء به من أقوال وقادرون على تنفيذ ما يريد .. ما دام هذا سيرفع من قدرنا بين الأمم والممالك. والآن قد اقتنعت تماماً بما أبديته لي من آراء وأفكار، وما يطمئني إليك أنك دائماً تؤيد أقوالك بما قالته الفلاسفة وتبرر أفعالك بما رسمه لك كبار الحكماء وعلماء الأخلاق، فلنبدأ فوراً بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه..

ـ قد كان لي رأي يا مولاي؛ ولا رأي قبل رأيكم ولا رأي بعد رأيكم.

ـ ما هو ؟ فإن آرائك حكيمة أيها المستشار.

ـ كنت أفضل ألا أرهقك بأمور التنفيذ وأحملها على عاتقي إكراماً لمولاي؛ فإن عادة الملوك العظام جرت على أن تترك أمور التنفيذ كلها وما يتعلق بها لأمثالنا من المستشارين الأمناء المخلصين الذين يتصفون بالصبر، وتتفرغ هي لأمورها الخاصة وتأمر بأن يعرض عليها نتائج الأعمال كل أسبوع، ثم تتحلى بقلة الحديث إلا من كلمة أو اثنتين على الأكثر، فإن ذلك أدعى لمهابتها واحترام رغبتها.. وما أحب مولاي إلا أن يكون على قمة الملوك والأمراء العظام في عاداتهم وتقاليدهم.

ـ لك ما تريد ما دام ذلك سيجعل الأمور تسير في وفق ما رسمنا

.. ولكن كلمة أو اثنتين في الأسبوع لا تكفي للتداول في الأمور.

ـ الرأي رأي مولاي، ولكن الملوك العظام جرت عادتها على ألا تزيد في حديثها عن لا ونعم أو موافق وغير موافق وسأعرض على مولاي دائماً فكرتين حتى تكون له الحرية الكبيرة في اختيار إحداهما والحرية الأكبر في رفض الأخرى، وليكن جواب مولاي على أي طالب لحاجة هو غير موافق، إلا إذا جاءت عن طريقي حتى نضمن دراستها وتمحيصها والتفكير فيها بروية قبل أن تقول نعم؛ لأن كلمة نعم تلزم الملوك يا مولاي ولا نريد أن نلزم أنفسنا بما لم ندرسه..

ـ نعم موافق..

ـ مولاي لقد ألزمت نفسك الآن بالخير فأبشر، فإن مستقبل الأيام سيريك مني العجب الكثير، ثم انحنى القرد يحيي ملك الأفيال وانصرف وهو على حالته من الانحناء زيادة في إظهار الولاء.. وكان ملك الأفيال قد بلغ غاية السرور لوجود هذا المستشار الداهية إلى جواره...

ولما خرج القرد من مقابلة ملك الأفيال اتخذ لنفسه مقراً يضم مجموعة من الأشجار الكبيرة العالية التي تشابكت أغصانها ليتمكن من الانتقال بينها بحرية، وأخذ يستقبل الأفيال التي ذهبت لمقابلة ملكها ثم حولها لمقابلة القرد لدراسة ما تحمله من طلبات، والقرد يلبي حاجتها وأكثر قليلاً كي تتعلق به الأفيال حباً ... ثم أعد رسالة إلى سيد التماسيح واستدعى الكردان وهو طائر طاب له العيش في مملكة الأفيال ولما جاءه قال له القرد:

ـ لقد سمعت مولاي الملك يثني عليك كثيراً.

ـ أحقاً ..؟

ـ ويعدد لي من حميد خصالك واستقامة خلقك ما حببني فيك وفي التعرف عليك؟

ـ هذا شرف لي كبير

ـ ولعلك علمت بأن الملك قد اتخذني له مستشاراً ولا يقطع في أمر إلا أن أشير عليه به.

ـ نعم اختيار الملك.

ـ وإن الملك يحتاج إلى أعوان له يقومون بمهام خاصة لا يعلمها أحد وإنه سيجزل العطاء جداً لمن يقع عليه الاختيار . . وكنت أريد أن أستنير برأيك.

ـ فيم . .؟

ـ في معرفة الذين يصلحون لهذا العمل . .

ـ إنهم كثيرون على استعداد لتقديم خدماتهم لإرضاء الملك.

ـ كلا . . كلا ليس كل من عنده استعداد يبديه يصلح لمثل هذه المهام، فهي تحتاج لصفات خاصة توفرها ليس سهلاً . . وقد كنت أفكر في أنك أولى بالأجر الجزيل الذي سيعطيه الملك لمن يقدم هذه الخدمات.

ـ أنا !! وهل أصلح لعمل شيء مما تقول؟

ـ طبعاً أنت الآن غير صالح . . والأجر كبير، كبيراً جداً ولكن يمكن أن نعلمك ونرشدك والباقي يتوقف على اجتهادك.

ـ ماذا تطلبه مني؟

ـ كل ما أطلبه منك هو طاعتي بغير تفكير مهما كان الأمر، لأن هذا العمل يتطلب صفة الطاعة العمياء التي لا تعرف التردد.

ـ إن كان هذا فهو في مقدوري . . .

ـ ليس هذا فقط ولكن يتطلب الكتمان، لأن كثيراً من الأعمال يجب أن يقوم بها الملك، ولكنه لا يستطيع ذلك بنفسه ويجب أن يقوم بها أعوانه في هدوء دون أن يعلم بذلك أحد. . .

ـ فهمت، وإن كان هذا هو المطلوب لأداء العمل، فإن ذلك في مقدوري.

ـ المطلوب الطاعة العمياء والكتمان فهل توافق . . ؟

ـ أوافق . .

ـ وإن جزاء الذين يترددون أو يفشون الأسرار أمر واحد أتعرف ما هو؟

ـ لا . .

ـ الموت.

فلما سمع الكردان كلمة الموت دبت في نفسه خشية وأخذته رعشة . . فقال القرد:

ـ وموت أطفاله وباقي أسرته.

وعندئذ ازداد الكردان خوفاً ثم استطرد القرد:

والأجر الكبير لمن يعملون بإخلاص ودون تردد، وأنا أنصحك بالموافقة فإن الملك يمدحك كثيراً، ولا أظن أنك تمانع في أن تحظى بشرف العمل في هذه المعاونات الخاصة. وانتظرني هنا لحظة . . ثم دخل القرد على الملك. وقال له بعد التحية المعتادة:

ـ إني سأبذل كل جهدي في خدمتك وسأبدأ من الآن.

ـ موافق.

ـ ثم خرج القرد واقترب من الكردان وقال له:

ـ لك مني أحر التهاني.

ـ خيراً.
ـ لقد أقنعت الملك بتعيينك وتمت موافقته على ذلك.
ولكن ... !!!!
ـ إني سأعلمك فلا تخش شيئاً، والآن استمع لما أقوله لك: .. امش أمامي جيئة وذهاباً. ولم يتمكن الكردان من إبداء رأيه لأن القرد قد تعجله في كل أمر وأخطره بموافقة الملك وليس له أن يرفض .. ووجد نفسه ينصاع لأوامر القرد دون أن تكون له فرصة التفكير وأخذ يمشي جيئة وذهاباً ثم يرفع أجنحته ويخفضها ويقوم ببعض الحركات كما أمره القرد ثم يطير ويعود ويقوم ويقعد وينط ويقفز .. ثم قال له القرد:
ـ لقد اجتزت امتحان القبول وهكذا أخطر الأعمال نريدك أن تقوم بها دون تردد؛.
أين عشك؟
ـ فوق تلك الشجرة....
ـ هيا بنا إلى هناك...
ولما وصلا وجد القرد للكردان فرخين صغيرين فقال له:
ـ هل هذه فراخك؟
ـ نعم.
ـ إن شكلها جميل، وأمسك الفرخين بيده وهو يظهر له أنه يداعبهما، ثم قال: والآن...
وهمس في أذنه: أول عمل لك هو خدمة عظيمة لملك الأفيال فإنه على خلاف كبير مع زوجته وهو يكرهها جداً، ويريد أن يتخلص منها كي يتزوج بأخرى تفضلها.

ـ وكيف؟

ـ لا تسأل : أنت تسمع فقط، وقد وقع عليك الاختيار للقيام بهذه المهمة اذهب إلى شجر البندوب وأحضر بعض أوراقه واخلطه بعلف الملكة وافركه جيداً برجلك حتى لا يظهر.

ـ ولكن أوراق هذا الشجر ذات سم قاتل!!

فنظر إليه القرد نظرة لها مغزاها، وضغط الفرخين الصغيرين بيديه تهديداً بقتلهما وهو يقول للكردان: افعل ما آمرك به وإلا .. ثم سكت قليلاً وقال: وإني منتظرك هنا .. فإذا ماتت الملكة فأخبرني ولا تجعل أحداً يراك وعجل.

ـ وطار الكردان المسكين وعقله يكاد يصاب بالمس من هول ما سيقوم به، ولكن صورة أفراخه في يد القرد جعلته ينقاد أملاً في تخليص أفراخه .. ولم تنقض ساعتان حتى كان الكردان قد طار وأحضر أوراق البندوب وخلطها بعلف الملكة ووقف يرقبها بهدوء حتى أقدمت وبدأت تأكل ولم تمض لحظة حتى هوت وفارقت الحياة وعاد الكردان إلى القرد سريعاً، ولما وصل وجده ممسكاً بأفراخه فقال له:

ـ لقد قمت بالمهمة..

ـ حينما تخاطبني لا بد أن تقول : سيدي.

ـ سيدي لقد قمت بالمهمة.

وترك القرد أفراخه ورد عليه قائلاً:

ـ أية مهمة.

ـ سيدي التي كلفتني بها.

ـ أأنا كلفتك بشيء..؟

ـ ألم تكلفين بـ....

ـ قل : سيدي.

ـ سيدي ألم تكلفني بقتل الملكة؟

ـ قتل الملكة، أقتلت الملكة؟

ـ سيدي ألم . . ؟

ـ أقتلت الملكة يا مجرم. . وبدأ القرد يصيح وهو يتوعد الكردان، ونزل من الشجرة مسرعاً وهو يقول سأذهب إلى الملك فوراً وأقول له: إنك قتلتها ولم يطلب أحد منك هذا الجرم الفظيع، والملك يحبها جداً وكانت الفيلة قد شعرت بموت الملكة وحدث هرج كبير، وسمع الملك بذلك وأقبل كالمحموم وتجمعت الفيلة من كل مكان وشعر الكردان بأنه وقع في مكيدة خطيرة، وهو الذي كان بالأمس أعظم صديق لجميع الأفيال، واحتار في أمر نفسه ثم لحق بالقرد، وهو يستعطفه ويطلب منه ألا يبوح بشيء مما حدث، ولكن القرد أظهر له بالغ حرصه على إبلاغ الملك وبقية الأفيال، وهو ينظر إلى الكردان ويقول له يا مجرم. . يا مجرم أقتلت الملكة.؟ ثم وقع الكردان يقبل قدم القرد ويطلب منه ألا يبوح بشيء، وإنه سيصبح خادمه المطيع وعندئذ قال القرد:

ـ اذهب إلى بيتك ولا تغادره حتى أرسل لك.

ـ نعم سيدي . . وانصرف المسكين والجنون يكاد يسيطر على عقله لسرعة الأحداث التي وقع فريسة لها، وبقي في عشه وهو ينتحب لشعوره بالجرم الذي ارتكبه ولكن القرد بهذه الخدعة تمكن من أن يسيطر على الكردان الذي كان بالأمس بريئاً طاهراً، ويسخره لأطماعه وشهواته دون أن يتمكن من معارضته خشية افتضاح الأمر الذي لا يعرفه إلا القرد.

وكان المجلس الذي جمع الفيلة كبيراً كلهم جاء يعزي الملك في مصابه الكبير. ودخل القرد حزيناً يسوق العزاء إلى الملك بعبارات بلغت غاية الرقة، مما كان له وقع طيب في نفس الملك ثم خرج من عنده بعد أن أنهى واجب العزاء . . وتوجه نحو الكردان وقال له:

ـ انتبه إلى ما أقوله لك:

ـ نعم سيدي. . .

ـ اذهب إلى سيد التماسيح وأبلغه بأن ملك الأفيال أرسلك إليه، وأن الثور قد جاء إلى الملك يقول إن سيد التماسيح بعثه كي يتجسس على الأفيال ويحمل له الأخبار حتى يتمكن سيد التماسيح من محاربتها، وقال الثور إن سيد التماسيح يستعين بآراء القرد الذي يلازمه في مثل هذه الأمور، وقد أزعجت هذه الأخبار ملك الأفيال جداً لأنه صديق قديم يعرف عن التماسيح حسن الجوار، ويطلب ملك الأفيال من سيد التماسيح معرفة حقيقة هذا الثور لأنه لم يطمئن إلى حديثه.

وبعد ذلك أحضر لي رد هذه الرسالة حتى أعرضها بنفسي على الملك ولا تعطيها لأحد سواي.

سمعاً وطاعة يا سيدي. ثم توجه الكردان من فوره ميمماً وجهه شطر سيد التماسيح، وقد شعر أمام القرد بأنه ضعيف ومسلوب الإرادة ولم يعد يقوى على التفكير، وأسلم نفسه للقرد يوجهه كيف شاء ولما غادر الكردان المكان توجه القرد يبحث عن الثور حتى وجده يستظل بشجرة كبيرة، وسمات الحزن بادية على وجهه، فقد عاد لتوه من زيارة ملك الأفيال وكان يقوم بواجب العزاء فحياه القرد قائلاً:

ـ طاب عيشك أيها الصديق الحميم.

ـ مرحباً بك نعم الزائر.

ـ كنت أبحث عنك منذ أيام لزيارتك، ولم يحل بيني وبين القدوم إلا كثرة الأعمال . .

ـ سلمت أقدامك وعلا قدرك والخير في قدومك .

ـ كنت أتوقع أن تكون معنا تشاركنا تدبير الأمور وبخاصة وأنا أتوقع لك منذ رأيتك مستقبلاً كبيراً، فإن فيك خصالاً فريدة، وقدرات حرمت منها المخلوقات أتعرف؟ . . .

ـ ماذا؟

ـ لقد قضيت الكثير من العمر أقرأ الكتب وأتعلم العلم، فما تركت كتاباً لحكماء في السياسة والفلسفة والأخلاق والآداب إلا قرأته، ولا تركت علماً في دراسة المخلوقات وطبائعها وسلوكها وعادتها إلا واستوعبته، وكان اهتمامي عظيماً بعلوم الفلك وعلاقتها بأحداث المستقبل، وقراءة الطالع، وقد استرعى انتباهي أن وجدت فيك أوصافاً مشابهة لما ذكره عالم جليل هو «لابلادون» في معجمه المشهور «القائد المنتظر» وقد أعطى هذا العالم في كتابه أوصافاً لهذا القائد غاية في الدقة .

ـ أتعرف؟ . . .

ـ ماذا؟ . . .

ـ لقد طفت البلاد كلها، جبالها، وسهولها، وأوديتها، وغاباتها وأنهارها وبحارها، وما تركت ركناً من أركان الدنيا إلا وذهبت إليه فما وجدت فيمن عرفتهم والتقيت بهم من ينطبق عليه أوصاف هذا الحكيم قدر ما وجدته فيك، ولذلك فقد استحوذت على انتباهي كله منذ لقائنا الأول . .

ـ أحقاً ما تقول؟ سأل الثور القرد بكثير من الاهتمام والتعجب وقد

فارقته سمات الحزن وعلت قسمات وجهه علامات البشر، وأطربه هذا المديح وتحرك بجسمه الثقيل مقترباً من القرد زيادة في الإصغاء؟ ثم أردف قائلاً: أتعرف كذلك أنني أحببتك من أول لقاء وأنني ما ذهبت إلى سيد التماسيح إلا إكراماً لخاطرك، وهناك من لا يرتاح القلب لرؤيتهم من أول مرة، ولكنك مختلف عمن قابلتهم اختلافاً كبيراً، وقد ارتاح قلبي لك قبل قدومك ورؤيتك وقلبي يشعر بالحدث قبل حدوثه. . .

- طبعاً لعل قلبك أشعرك بأنك ستكون سعيداً بصحبتي.

- جداً . . جداً غاية السعادة . . وغاية السرور. ثم تحرك الثور مدنياً نفسه من القرد . فقال القرد:

- إذاً أبشر بمستقبل زاهر أيها الثور. . .

أتعرف؟ . .

- ماذا؟ . .

- إن الحكيم «لابلادون» قال: إن علامات هذا القائد وسمات القيادة فيه تكون أوضح ما تكون فيه عند مطلع الشمس صباح كل سبت. . وإني قد وجدت فيك جميع العلامات التي تظهر في الأيام الأخرى واليوم يوم الخميس وسوف آتيك بعد غد السبت مع شروق الشمس كي أفحص باقي هذه العلامات والقسمات، فإن وجدتها فيك فسيكون حظك بقدومي لا يدانيه حظ . . والآن أستأذنك حيث ينتظرني الكثير من العمل. . .

- أيها الصديق الحميم ابق معي، فإني أسعد جداً بزيارتك وآنس لحديثك والأيام كثيرة لهذه الأعمال. . .

ولكن القرد استأذن وانصرف، ولما غاب عن نظر الثور انتفض الثور

واقفاً من شدة الفرح وظل يجري يميناً وشمالاً، ويحوم هنا وهناك ويضرب الأرض بحافره ويقول: «لابلادون» قال ذلك.. «لابلادون» قال ذلك. ولم تترك له سعادته فرصه للنوم طوال الليلتين التاليتين وكلما أنهكه التعب يجلس للراحة وهو يرد بأنفاسه المتقطعة آه «لابلادون» . قال هذا «لابلادون» قال هذا . . .

ولما انصرف القرد قفل راجعاً، حتى قابل فيلاً ضخماً يقال له «داغي» فحياه ورد عليه الفيل التحية فقال له القرد:

ـ لعلك علمت أن مولاي الملك قد اتخذني مستشاراً خاصاً في جميع شؤونه، وإنه لا يبرم أمراً دون مشورتي؟ . . .

قال «داغي» قد علمت ذلك . . .

ـ وإنه يفكر في تعيين ولي للعهد يخلفه في الملك بعد مماته، ولكنه لم يستقر رأيه على اختيار أحد، وطلب مني أن أعاونه في هذا الاختيار، وفي الغالب فإنه يوافق على الرأي الذي أبديه له.

فاعتدل «داغي» وأخذ يتنحنح ثم قال:

ـ كم يسعدني أن أكن في خدمتك وخدمة الملك. .

ـ ولكن يحول دون الموافقة عليك أمر لست أدري ماذا نفعل فيه؟

ـ ما هو؟ . . .

ـ إن هناك إثنين آخرين يفكر مولاي الملك فيهما إلى جوار التفكير فيك، وإني شخصياً أرتاح جداً لوجودك كولي للعهد، كما أرتاح للتعاون معك ولكن يبقى أن تثبت أنهما غير صالحين لهذا العمل الجليل، وإن عيوبهما البارزة لا ترشحهما لملء هذا المنصب . .

ـ ومن هما؟

ـ «شغوار» و «ماروغ».

ـ إنهما لا يصلحان أبداً لهذا العمل وإنهما مليئان بالعيوب . .

ـ إني أدرك ذلك تماماً مثلك، ولكن كثيراً من الأمور تخفى على مولاي الملك، ولا سبيل لإظهار حقيقتهما إلا أن تصبح عيوبهما حديث جميع الفيلة، فإذا علم هو بذلك فسوف تنفرد أنت بهذا المنصب.

ـ إذن اترك لي هذا الموضوع وهو غاية في البساطة. . . .

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأعلن عن هذه العيوب في كل مجلس. .

ـ كلا . . كلا، ليست هذه وسيلة حكيمة في كشف ما بهما من عيوب . . .

ـ وماذا ترى أنت من وسائل؟ .

ـ الأفضل ألا تواجههما أنت بنفسك، حتى تحتفظ بالمظهر اللائق أمام الجميع . .

ـ ولكن كيف أنشر عيوبهما على جميع الفيلة؟

ـ تتخذ لنفسك أعواناً يزيدون يوماً بعد يوم وهم يقومون بأداء هذا الواجب في مجالسهم وأنديتهم ومع أصدقائهم ويجمعون لك الأعوان حتى تتقوى بهم فيظل الجميع يخشاك. .

ـ إنها فكرة جيدة. .

ـ وحتى يكون عملك مثمراً احرص على كتمان ما تقوم به أنت وأعوانك وتابعوك حتى تبديا أقوالهم في المنتديات والمجالس غير مثيرة للشك، ويفضل أن تتصل بهم دائماً بالليل مستتراً في الظلام كي تعطيهم الإرشادات فلا يراك أحد.

ـ إنها فكرة رائعة. .

ـ وإني سأعاونك كلما احتجت إلى رأي، وأفضل أن تطلعني دائماً على كل ما ستقوم به حتى أساعدك على إحكام التدبير.

ـ طبعاً طبعاً . . ولا غنى لي أبداً عن آرائك الحصيفة.

ـ وإني قد أسافر في مهمة خاصة فلا تتصل أبداً بالملك خلال هذه الفترة، وضاعف الجهد حتى إذا عدت من سفري تكون الأمور قد هيئت تماماً وتكون أنت قد نجحت في نشر عيوبهما على كل لسان، صغيراً كان أم كبيراً، ثم ودعه القرد وانصرف بعد أن قطع داغي العهد على نفسه بالعمل فيما تم الاتفاق عليه ليلاً ونهاراً دون انقطاع حتى يعود القرد من سفره. .

وغاب القرد عن نظر داغي كي يكرر نفس الكلام «لشغوار» و «باروغ» كل على انفراد. . حتى ظن كل منهم أنه الوحيد المقرب إلى مستشار الملك، ولما أدار القرد لهم ظهره منصرفاً إلى أعماله كان نشاطهم قد بدأ.

وعنَّ للقرد أن يعتلي الأشجار العالية التي يتخذها سكناً له وظل يصعد حتى بلغ قمتها، وجلس ينظر إلى الأرض تحته حيث تقطن الأفيال ويجاورها الثور، وظل يسبح بخياله بعيداً وقد طفح صدره بالحقد على هذه المخلوقات التي تحيط به، وجعل ينظر إليها بعينين ملؤهما السخرية والاحتقار والازدراء، وأخذ يناجي نفسه قائلاً:

«إيه أيتها الحيوانات الدميمة، والآن حانت فرصة الحساب فما الذي ينجيك مني ومن عقابي، كم تحملت أذاك وأذى آبائك وأجدادك الذين لا يفهمون ولا يعقلون،وكم نالني على ألسنتكم من شتائم وسباب، غداً ستخضعي أيتها الحيوانات لحكمي فليس لرؤوسك مكانة إلا موطىء قدمي، أنت لا تستحقين مني إلا التدمير أيتها الحيوانات، فلن

أتركك تهنئي بعيش أو تنعمي بأمن، حياتك سأزلزلها، وجموعك سأفرقها، وأخلاقك التي تحول الآن دون خضوعك لي، سأفسدها، قتلك عندي أعظم وسائل ترويضك، وغداً أجعل الابن يتمرد على أبيه، والزوجة تعصي زوجها، والسفلة تزاحم السادة، وأنتم عندي سفلة لا تستحقون الحياة، وغداً يعمكم الجهل وتتعطل عندكم الحواس فلا تسمعون ولا تبصرون.. سأبتسم في وجوهكم وخلف ابتسامي منيتكم أدبرها، وأصادقكم ومع صداقتي ذل ينتظركم، يا ويلكم على يدي من شر مستطير، أيتها الحيوانات لقد حانت ساعة القصاص...

ولما كان يوم السبت توجه القرد قبل مطلع الشمس إلى الثور فحياه ورد عليه الثور التحية وكان مغتبطاً بحضور القرد.

قال القرد:

- قبل أن تطلع الشمس وأفحص باقي العلامات أحب أن أروي لك ما رأيت الليلة في منامي.

ماذا رأيت؟

- رأيتني أجلس بجوارك وقد جاءتك الحيوانات كلها كبيرها وصغيرها ووقفت أمامك الواحد خلف الآخر وهم يمرون بك وأنت تضع يدك على رأس كل من يمتثل أمامك منهم ثم أناولك أعواداً خضراء تعطيها كلاً منهم حتى لم يبق منهم صغير ولا كبير إلا وفعلت معه مثل هذا، ولما انتهيت إذا بك تنهض واقفاً وإذا بالحيوانات كلها تجلس على الأرض فقلت لي: انظر ماذا تفعل الحيوانات ثم وكزتني وكزة شديدة استيقظت من نومي على أثرها وكان ضوء الفجر قد ملأ الدنيا فجئتك من فوري.

ـ إنها رؤية عجيبة . . عجيبة حقاً . . أتعرف؟
ـ ماذا؟
ـ لقد رأيت كذلك الليلة رؤية أخرى. . .
ـ ماذا رأيت ؟
ـ رأيت أنني كنت أحاول إخراج دلو من الماء وأنا أقف على البئر فسقط مني الدلو فهممت أن أمسك به قبل سقوطه فزلت قدمي وهويت في البئر وظللت أهوي وأهوي ولم أصل إلى قاعه واستيقظت من نومي وأنا ما أزال أهوي وبدا لي بأن هذا البئر ليس له قاع.
ـ ما أعظم هذه الرؤية . . أبشر أبشر إنها رؤية عظيمة حقاً. .
ـ أتعرف تأويلها؟
ـ طبعاً . . .
ـ إذن فسرها لي . . .
ـ أفسر لك رؤيتي أولاً . .
ـ أسمعني فإن حديثك شيق وصحبتك لها حلاوة خاصة.
ـ أما وقوف الحيوانات أمامك الواحد تلو الآخر فهو قدومهما لتهنئتك وحدك بأمر جليل، وأما وضع يدك على رؤوسها فإنها رفعة لك على سائر الحيوانات، وأما إعطاءك لها الأعواد الخضراء التي تناولتها مني فإنه إطعامك لها ولا يكون ذلك إلا من الملوك الكبار وأنا أساعدك في تدبير الملك، وأما جلوس الحيوانات عند وقوفك فهو خضوعها كلها عندما تتولى قيادتها . . .
ـ يا لها من رؤية صادقة . . ما أجمل ما تقول إنك تحمل إلي بشرى سارة ما أجمل هذا الصباح الذي رأيتك فيه، وما تأويلك للرؤية التي رأيتها. . .

- أما محاولتك أخذ دلو الماء فهو محاولة لتناول الحكمة التي تعرض عليك، وأما سقوطك في البئر خلف الدلو فإنه محاولتك الإمساك بالحكمة سترفع قدرك ومقامك وإن السقوط في الأحلام يفسر على أنه رفعة في القدر.. وأما استمرارك في السقوط فإنه زيادة في الرفعة التي لا نهاية لها..

- يا ويحي ما أحلى الذي تقول إنك موفق جداً في تفسير الأحلام ويا لها من مصادفة عجيبة أن ترى لي رؤية طيبة وأن أرى لنفسي رؤية طيبة في نفس الوقت لعل هذا لا يكون إلا في الأحوال الهامة النادرة كحالتي هذه.

- طبعاً فإنها أمور يندر تكرارها. وما أن أتم القرد حديثه حتى بدأت الشمس تطلع، فاستطرد القرد قائلاً:

- طبعاً اليوم يوم السبت وأنا لا أعمل يوم السبت لأنه يوم راحتي وقد جئتك في زيارة أستأنس فيها بصحبتك وأستبشر فيها بفحص العلامات الهامة للقائد المنتظر.. افتح عينيك، ففتح الثور عينيه إلى أقصى حد مستطاع ليعطي القرد فرصة كبيرة لفحصهما.

وقال له القرد:

- أدر وجهك نحو الشمس. فأداره الثور حتى ملأهما نور الشمس. ونظر القرد فيهما ثم أمسك بأجفان الثور يفتحهما بأصابعه وهو يحملق في عينيه وعليه سمات الجد.. ثم أخذ يقول: عجيب.. عجيب.. غير معقول.. لا أصدق ما هذا؟ عجيب.. وكان لهذه الكلمات فعل السحر عند الثور فأخذ يرفع برأسه مقترباً بها من وجه القرد، ويقرب عينيه من عيني القرد الذي استمر في فحصه وهو ما يزال يقول: غير معقول.. العلامة.. ها هي.. العلامة، ها هي، والثور يقول: هل

وجدتها. .؟ انظر جيداً هل وجدتها انظر جيداً فقال القرد:
ـ إنها هي .. رأتها عيناي اللتان لا تكذبان إنها هي .. هي التي أبحث عنها من مدة طويلة..
ـ آه .. أصحيح؟ صفها لي ..
ـ صحيح .. لا أشك أبداً .. فقد رأتها عيناي .. آه لقد وجدتها: إني أراك تجلس على كرسي الملك .. هذه هي العلامة .. أراك تجلس على كرسي الملك، والآن أفحص العلامة الثانية.. افتح فمك، ففتح الثور فمه كأوسع ما يكون وبصق فيه القرد وصاح قائلاً: آه لقد وجدت الثانية .. آه إنها العلامة الثانية.. وجدتها .. لا أشك في ذلك.
ولم يشعر الثور بما فعله القرد، ولكنه سأل: أصحيح؟ صفها لي .. أرى حكمة القيادة تتفجر على لسانك لا أشك في ذلك .. والآن أفحص العلامة الثالثة والأخيرة أعطني أذنك، فأدنى له الثور أذنه وقال القرد: سأقول لك كلمات السر فإذا أجبت الإجابات الصحيحة فستظهر العلامة الثالثة والأخيرة..
ـ أتطيعني؟
ـ أطيعك.
ـ أنت ثور ؟
ـ أنا الثور.
ـ أنا سيدك فماذا تكون؟
ـ أنا خادمك.
ـ أنت ثور.
ـ أنا الثور..

- من تكون؟ . .
- خادمك المطيع . .
وعندئذ صرخ القرد قائلاً:
- لقد ظهرت العلامة الثالثة، ظهرت العلامة الثالثة . .
- إنها هي . . إنها هي . .
- أصحيح؟ صفها لي . .
- سيرتك تملأ أسماع الدنيا . . أنت القائد المنتظر أنت القائد المنتظر.
فما أن سمع الثور هذا الكلام حتى أخذ يعانق القرد ثم أخذ يرقص من فرط السعادة وشدة الفرح . . وهو يقول أنا القائد المنتظر. أنا القائد المنتظر . .
- اخفض صوتك لا تجعل أحداً يسمعك وإلا كادوا لك كيد عظيماً . . فخفض الثور صوته وهو يرقص طرباً، ويهمس أنا القائد المنتظر . . .
- والآن قد تحققنا من كل شيء وظهرت العلامات كلها . . عليك بتنفيذ الرؤيا التي رأيتها . . أتذكرها؟ . .
- نعم أذكرها تماماً . . دلو الماء يسقط مني و . . و . .
- إنه دلو الحكمة التي سأعطيك إياها، وعليك باتباعها حتى تبدأ منزلتك في العلو وقدرك في الصمود . .
- وما هي الحكمة؟ . .
- الصمت التام حتى أدبر الأمر . . .
ثم تركه القرد وانصرف عائداً إلى مسكنه كي يجد الكردان قد عاد من المهمة التي كلف بها.

قال الكردان:

ـ سيدي: عدت برسالة سيد التماسيح.

ـ لا تزعجني اليوم، فاليوم سبت أرتاح فيه، وعد مع صباح الغد الباكر.. ولا تحادث اليوم أحداً.. ولما كان صباح الغد عاد الكردان ووقف أمام القرد ينظر إلى الأرض غير قادر على رفع رأسه لمواجهة نظرات القرد، وقال:

ـ سيدي...

ـ أين الجواب؟

ـ ها هو.. ثم سلمه رسالة سيد التماسيح فأخذها القرد وتصفح ما بها بنظرات عجلى، ثم سأل الكردان عند مقابلته لسيد التماسيح، وكانت الأمور تسير كما توقعها القرد تماماً، وجاءت الرسالة مؤيدة لهذه التوقعات فأخذها القرد ودخل على ملك الأفيال محيياً تحيته التي أخذ يقلده فيها كل من دخل عليه، ولما جلس القرد بجوار الملك أخلى المكان من الحاضرين وانفرد القرد بملك الأفيال، قال القرد:

ـ السعادة في ركاب مولاي..

ـ خيراً، ماذا وراءك؟..

ـ يسوءني أن أرى مولاي حزيناً، وإن ما يخفف أحزان مولاي وجود ملكة إلى جواره تواسيه وتدخل السرور في قلبه والبهجة في حياته..

ـ أفكر فيما تفكر فيه.

ـ وإني أرى أن يكل إلي مولاي اختيار الملكة الجديدة، فإنك مقبل على أمور عظام لا يليق بالقرب منك فيها إلا ملكة جمعت فيها أعظم الخصال.

ـ حسناً ما رأيت.

ـ وأنا كذلك يا مولاي راحل كي أنتقي عروساً أعود بها وتكون في خدمة الملكة الجديدة.

ـ أيها المستشار أنت كريم الخلق رقيق الحس وما يصدر هذا الفعل إلا من نبلاء.

ـ وقد تطول رحلتي بعض الشيء ولكنني سآخذ معي الفيلات المرشحات لمنصب الملكة الجديدة كي أقارن بينها ويأتي اختيارنا لها بعد فحص دقيق..

ـ يا لك من مستشار عظيم الوعي !!

ـ وبهذه المناسبة فقد جاءتني اللحظة رسالة من سيد التماسيح رداً على رسالتنا وقد حدث ما توقعته تماماً، إذ نفى أنه أرسل الثور وأنه يسعى لحربنا، ولكن الثور لا بد وأنه كان يسعى بالوقيعة لأنه قال إن مولاي ملك الأفيال قد بعثه للتجسس وذكر في رسالته: أنه لو شاهد الثور بعد ذلك فسوف يقتص منه وقد نفى كذلك وجود قرد إلى جواره يستشيره في أمور الحرب، ولكن إنساناً يضمه مجلسه لا يتحدث إلا في الخير.

وهكذا فإن الأمور كلها تسير في خطها المرسوم ...

ـ أيها المستشار إنك جدير بثقتي.

ـ وإني متمم ما سبق الاتفاق عليه وشاغل نفسي باختيار الملكة الجديدة وقد رتبت لك الأمور ترتيباً جيداً..

ـ حسناً ما تفعله.

ـ أستأذن مولاي في السفر، وإذا عرض لمولاي أمر ذو شأن فأرجئه حتى أعود، ثم خرج كعادته منحنياً ومر في طريق عودته بالثور الذي

استقبله مرحباً وقال:
ـ ها قد جاءت البشائر.
ـ أي بشائر؟ عجل فإني في لهفة لسماع أخبارك!!!
ـ سيد التماسيح يتوعد بقتلك إن هو رآك..
ـ وأي بشرى في هذا ...؟
ـ يا ثور، البشرى أنك تحاربه لهذا السبب وتقهره، وتفوز أنت بالتاج وعندئذ يتحقق الحلم الذي تترقبه.
ـ وأنى لي بمحاربة التماسيح وسيدهم ...؟
ـ هذا أمر بسيط.
ـ عجباً يا صديقي هذا الطبع فيك تستسهل كل صعب، وتستيسر كل عسير. أقول لك حرب التماسيح تقول لي: أمر بسيط وأنا وحدي!!
ـ من قال إنك وحدك..
ـ من إذاً معي في حرب لا صالح له فيها.
ـ هذا عملي ألم أعدك بالمساعدة؟
ـ أو نحن الاثنان كافيان على مواجهة التماسيح؟
ـ يا ثور: هل فهمت مساعدتي على أني أحارب بيدي معك.
ـ هذا لعمري ما فهمته من حديثك.
ـ إن هذه الحرب كي تفوز فيها لا بد لها من إعداد جيد وسوف أجمع لك الأنصار والأعوان من الثيران أمثالك والأبقار؛ حتى تنتظم خلفك أعداد كبيرة تدين لك بالولاء والطاعة وتعظم أنت في عيونها وقلوبها حتى تستسهل الموت إكراماً لك وتستعذب الفداء سبيلاً لما تشرحه لها من أفكار.

ـ اسمعني . . أيها الصديق. أتمم حديثك فكلي أذن صاغية:

ـ ولنترك الأمر يقضي في هدوء حتى تبدو نتائجه طبيعية . . وسوف أوصي بعض الأفيال الصديقة بأن يجمعوا لك أعشاب المراعي الخضر بكثرة كثيرة تغري بتجمع الثيران حولك، وعليك أن تفهمها بين الحين والحين، إن خدمة الأفيال التي تقوم بها لم تتم إلا بالكثير من إدراك أعماق السياسة التي أتيحت لك وحدك ولا يتيسر لغيرك إدراكها أو الإلمام بها. .

ـ فهمت.

ـ سأمضي في رحلة طويلة تستغرق بعض الشهور، وعند عودتي تكون الثيران والأبقار قد تجمعت حولك وجاءتك من كل مكان، وعندئذ تكون قادراً على الزحف نحو سيد التماسيح لتأديبه وانتزاع التاج منه.

ـ ولكـن : ألن يطالـب ملك الأفيال بالتاج بعد ذلك لأنك صنعته له . . ؟

ـ ملك الأفيال صديق زاهد، هل لمست فيه حمية لحرب عندما علم بضياع التاج؟

ـ كلا.

ـ وهو لن يهتم كثيراً إذا فزت أنت به واترك لي الأمر حتى أعالجه ، ثم تركه القرد وانصرف كي يقابل داغي وشغوار وباروغ كل على انفراد، يوصيهم ببذل الجهود في تجميع علف الثيران وأبان لهم أن هذه سياسة عليا، ليست مما يقبل فيها التهاون، وإن النجاح في هذه المهمة من دواعي الترجيح عند اختيار ولي العهد . . وكذلك أحضر فيلين أمرهما بطاعة الكردان، وأوصاه بأن يعلمهما آداب المجالس قبل

أن يأخذهما إلى سيد التماسيح كهدية لخدمته والسهر على راحته وقد زوده بوصايا كثيرة حفظها الكردان عن ظهر قلب ولما اطمأن إلى أنه سيقوم بآداء مهمته، تركه وجمع عشرين فيلة وأفهمهن بأن الملك يريد ملكة وإن كل واحدة منهن مرشحة لهذا الشرف الكبير، وإنه قد تقرر خروجهن مع المستشار الخاص في رحلة طويلة يقدم في نهايتها تقريراً عن كل واحدة منهن، وإن المفاضلة ستكون على أساس ما يأتي في هذه التقارير.

وفي صباح اليوم الثاني كان القرد يقود قافلة تضم العشرين فيلة، ويركب فوق رأس أولاهن وقد توجه بهذه القافلة حيث يزمع أن يجد له عروساً تشاركه حياته، وأعماله التي بدأت تكثر شعابها.

ونترك القرد يمضي في رحلته لنتابع هشاماً مع سيد التماسيح وقد ضمهما حفل بهيج جمع الكثير من التماسيح والضفادع كلها جاءت تحمل التهنئة الحارة لتتويج سيدهم وخلاص هشام صديقها العزيز، وكانت هذه المناسبة فتحاً جديداً للعلاقة بين حيوانات النهر على اختلافها وبين الإنسان، ولم يكن هناك ما يحد من البهجة التي شملت النفوس إلا إحساس هشام بموت التمساح الذي استنقذ التاج من يد القرد، ألا ما أروع الدور الذي قام به هذا التمساح في مواجهة القرد، وكم كان لصلابة موقفه الأثر الكبير في انتزاع تاج ظل يراوغ في تسليمه الأشهر الطوال ونال الجميع إيذاء بالغ المكر والدهاء والخديعة وكم قاسى هشام بسبب احتباس القرد لتاج تسلم أضعاف ثمنه وتعرض للقتل لا لشيء إلا لأنه ألح في المطالبة بحقه.. أو ينجو القرد بعد إقدامه على جريمة القتل من قصاص عادل.. لقد كانت خاتمة عهده بهم هذه الجريمة البشعة جاءت نهاية لسلسلة متصلة الحلقات من

الأعمال الشائنة .. لا لن يذهب دم هذا التمساح هدراً، لقد أدى واجبه ودفع حياته ثمناً لهذا الواجب وكان يبتغي الخير فيما أقدم عليه واستخلص بدمه تاجاً كان شرطاً في انعتاق هشام من قيد عجيب وعاد ينعم بعد تسلمه بأسمى ما في هذه الدنيا من حسن وشعور يتصدر الخلق حوله، ويتفرد دونهم بإدراك لا يرقون إليه متربعاً على قمة سامقة هي الإنسانية، وما يحف بها من تكريم خالقها جلت قدرته.

كانت هذه الخواطر تدور في رأس هشام، وكان يعلم بأن أحداً لا يستطيع أن يرد للتمساح حياة بعد موت، وماذا بعد الموت؟ إن الحقوق هناك يقضي فيها الحكم العدل لا تضيع عنده مثقال حبة من خردل.

وعلى ظهر الدنيا لا حيلة لنا إلا القصاص هكذا أمرنا الله حتى تستقيم الحياة ولا يجد الأشرار الأرض مرتعاً لشعورهم.

لا .. لن يفلت القرد من القصاص ولا بد من البحث عنه .. في كل مكان ، وإحقاق الحق وقطع السبيل على الجريمة وفاعليها، وإذا أدركت الجريمة أن أرضاً لن تؤيها قلَّت وذوت واستراح الخلق منها ونعموا بالطمأنينة والأمن وهذا قيمة القصاص...

كان هذا المجلس ينعقد كل يوم يتصدره سيد التماسيح المتوج، وهشام والضفدع الشيخ الكبير وأعداداً كبيرة أخرى من التماسيح والضفادع حينما جاءهم الثور برسالته المشهورة، وطردوه شر طردة وجاءهم بعد ذلك الكردان برسالة من ملك الأفيال، أجابوا عنها، وكان هشام قد أزمع الرحيل بحثاً عن صاحبيه حتى يعاونا في البحث عن القرد، ودار هذا الحديث بين الجالسين مراراً وتشاوروا فيما يفعلونه للبحث عن القرد، ولكنهم في كل مرة لا يهتدون إلى طريقة ولا

ينتهون إلى رأي، وكان هشام تساوره بعض الشكوك في زيارة الثور، وفي رسالة الكردان التي حملها من ملك الأفيال، وكلاهما قد ذكر فيها القرد، وقد أفصح لصديقه الضفدع الشيخ الكبير عن هذه الشكوك فوجده هو الآخر غارقاً فيها ولكنهما بعد كثير من التفكير كانا يميلان إلى الاعتقاد بأن القرد عند ملك الأفيال، ولم يكن هناك وسيلة بها من صحة هذا الظن، وظلا يتشاوران فيما بينهما، هل يبعثان إلى ملك الأفيال من يتحسس هناك أخبار القرد؟ وظلا على ترددهما إلى أن جاءهم الكردان مرة ثانية ومعه فيلان هدية من ملك الأفيال لسيد التماسيح يقومان على خدمته فاعتبرها هشام فرصة طيبة لاستجلاء الحقيقة، وأسر بذلك إلى سيد التماسيح كما أسر إلى صديقه الضفدع الشيخ الكبير، ودعا سيد التماسيح الكردان إلى مشاركتهم جلساتهم إكراماً له ففعل، وظلوا يتجاذبون أطراف الحديث حتى انفرد هشام بالكلام، وظل يتحدث عن قصته مع القرد حديثاً مستفيضاً، وهو يلحظ من طرف خفي تغيراً في وجه الكردان، وحزناً دفيناً يبدو على قسمات وجهه كلما ذكر فعلاً من أفعاله، وكان هشام عذب الحديث بليغ العبارة مؤثر القول؛ استحوذ على انتباه الحاضرين فنسوا أنفسهم وعاشوا في قصة القرد مع هشام، وكان أن نسي الكردان نفسه أمام بيان هشام وبدأ يسأل عن بعض ما فعله القرد، وقد أدرك هشام أن وراء هذه الأسئلة أخباراً تحتاج من يجليها، ويكشف عنها وانتهز فرصة استغراق الكردان في الاستماع وفاجأه قائلاً:

ـ ما الذي طلب القرد أن تفعله بعد عودتك؟

وفي حالة من الاستغراق أجاب الكردان دون أن يفطن؟

ـ طلب مني أن أحتفظ بالجواب حتى يعود من سفره، واستمر

هشام في حديثه وهو يبادل سيد التماسيح والضفدع الشيخ نظرات المتيقن بعد الظن، واستطرد هشام حتى لحظ استغراق الكردان في الإنصات ثم سأله فجأة:

- لعل القرد لم يمسك بسوء!!

وكان الكردان قد علم الكثير عن تاريخ القرد إذ كله جاء على وتيرة واحدة من الكيد والإيذاء والتسلط ونظر إليهم الكردان ثم انهار باكياً. واستمر على بكائه وهشام يهدىء من أحزانه التي فجرت بكاءه وما زال به يواسيه حتى هدأ. . .

قال هشام:

- كلنا أصابه القرد ببالغ أذاه، وقد قتل تمساحاً وفر ولسنا بتاركيه إلا أن نقتص منه فهون عليك الأمر إن كان أذى لحقك منه فكلنا في أذاه سواء.

- أي أذى؟ إن ما أوقعني فيه ليس من صنف أذاكم وإلا لكان بلائي أخف ومصيبتي أهون.

- حسبه من الشر ما جعل المصائب والبلايا تأتي على يديه.

- أي شر هذا الذي أتانا به؟ وأنى لنا المخرج من شرور وقعنا فيها؟

- تحمل يا صاحبي؛ فإننا لن نزال به حتى نحيط به بإذن الله. .

- إن المصائب لو كانت جراحاً لهانت أو خسارة في النفس والمال لصبرنا عليها . . ولكنها أمر آخر. .

- غريب ما أسمع يا صاحبي !! أوجاوزت المصيبة هذه الحدود. . ؟

- بلى. وأعظم لقد دمر نفسي تدميراً وسلبني القدرة على التفكير، فأصبحت أنفذ أوامره لا أستطيع دفعها أو الامتناع عنها، ليس ما أعانيه

شراً أرده عن نفسي، ولكنه الشر تقترفه يداي، أنا الكردان يعلم الجميع عني حسن السيرة وطهارة الصفحة ألطخها الآن بالأوحال وأملأها بسود الأفعال وأشارك القرد، أشاركه . . . ثم أخذ الكردان يبكي.

ـ هون عليك فإن لكل مشكلة حلاً.

ـ أي حل . . إنه اللغز الذي لا حل له.

ـ يا صاحبي علنا نستطيع معاونتك فأفصح.

ـ لقد وضعني القرد في موضع أحاطت به النار من كل اتجاه إحاطة السوار بالمعصم أنى اتجهت للخروج فالنار تحرق.

ـ عجباً هذا الذي تشبه حالتك به!!

ـ والأعجب من ذلك يا صاحبي أن ما يطلبه مني داخل هذه الدائرة هو زيادة هذه النار والإبقاء عليها مشتعلة وليس لي إلا أن أفعل هذا، وهكذا ينقطع الرجاء في خروجي بسلام مما أنا فيه.

هذا يا صاحبي هو اللغز فهل عندك فيه رأي؟ أو ترى له حلاً يخرجني بسلام . . ؟

ـ وهبك عصيته فيما يطلب!!

ـ يحرقني بهذه النار.

ـ القرد قادر على إحراق أحد . . . ؟

ـ وكيف لا وهو يستدرجهم بمكره ودهائه لمشاركته الذنوب والخطايا . . .

ـ وإن أطعته . .

ـ فمزيد من الذنوب والخطايا . . .

ـ فقد وجدت الحل . . .

ـ أعني ـ أعانك الله وكتب لك السلامة من شروره.

ـ اعلم يا صاحبي أن أشد ما يرد كيد القرد في نحره هو الجهر له بعدم طاعته، وإعلامه بأن النار ستحرقه هو إن مست الآخرين، وإنك بذلك توقفه عن مزيد من توريطك في مشاركته آثاماً يقترفها، واعلم أن العزم على ترك الآثام توبة، والتوبة رحمة من الله بابها مفتوح يدخله من شاء من عباد الله ليلاً أو نهاراً، وهي وحدها المرتجى في تكفير ما فات وتطهير الصفحة من أوساخ تلطخها أو سود أعمال تملؤها، وحيثما تكون التوبة صادقة تعود الصفحة بيضاء ناصعة، وأكثر من ذلك، فإن السيئات يمحوها صالح الأعمال فتنقلب حسنات.

ـ عجباً !! ما تقول.؟

ـ لم العجب؟ إنها رحمة الرب بالعباد. وهو أولى بالخشية وليفعل القرد ما شاء. فليس بمقدوره الحيلولة بين قلوب العباد وبين رب العباد .. فالله يقبل التوبة عن عباده.

ـ ولكن الفعل الذي نفعله !!!

ـ ماذا؟

ـ خطير.

ـ مهما جل خطره...

ـ إنه .. جريمة ....

ـ أكنت عازماً عليها أم مكرهاً ...؟

ـ هددني بقتل أفراخي وقتلي فكنت مكرهاً، وما عزمت عليها ولا نويت فعلها، وقد أبان لي أنه أمر ملكي. وقال: نحن مجبرون على سمعه وطاعته..

ـ خسىء القرد، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إن إعلان الأمر يخيب كيده ويفضح مكره فلا يقع فيه بعدك أحد ثم ينال جزاءه

الأوفـى، وما يصيبك في هذه القضية فتكفير تتقرب به إلى الله، واعلم أن الله يغفـر الذنوب جميعاً. وأن رحمته واسعة وسعت كل شيء . . . .

ـ آمنت بالله هو المرتجى. . .

ـ يا صاحبي : إن باب التوبة مفتوح على مصراعيه كلنا قادر على دخوله متى شئنا.

ـ ما أعظم الأمل في بقاء هذا الباب مفتوحاً، ولكن ماذا نفعل ومكر القرد يا صاحبي . . . . !!!

ـ الله من ورائه محيط، هو يحبط كيده ومكره، أما سمعت قصتي معه وما كان لي معه حيلة فقيض الله لي من يعاونني على خذلانه وانتزاع حقي منه؟

ـ بلى سمعتها.

ـ ولكن لي أفراخاً يهددني بقتلها.

ـ أين هي ؟

ـ هنالك عند مملكة الأفيال. . .

ـ أحضرها حتى تكون في مأمن وأقم معنا حتى ندبر الأمر وننظر في هذه القضية وفيما يثار حوله من قضايا . . .

ـ فرج الله كربك، لا خاب من استشار ولا ضل من التمس الهداية، ثم استرسل الكردان يقص على هشام ما كان من سلوك القرد معه تفصيلاً، وما أوصاه أن يفعل مع الفيلين الذين جيء بهما كهدية يخدمان ملك التماسيح، حتى يتجسسا الأخبار عن قرب تمهيداً للحرب. . .

ثم طلب منه هشام أن يعجل بإحضار أفراخه حتى يبقى معهم في

مأمن، وطار الكردان من فوره لإحضار أفراخه... والتقى هشام وملك التماسيح والضفدع الشيخ الكبير بعد أن اجتمعت لهم هذه الحقائق، وتداولوا الأمر فيما بينهم وقد اتضح أن القرد يعد العدة لفتنة كبرى ويريد أن يشعل حرباً ضروساً بين مملكة الأفيال والتماسيح، وكان جل همهم منصرفاً لمنع هذه الحرب تخيباً لآمال القرد...

قال الضفدع الشيخ: يجب أن نعجل بتضييق الخناق على القرد قبل أن يفلت الزمام...

قال سيد التماسيح : الذي لا أشك فيه الآن أنه قد أقنع ملك الأفيال بالحرب، وأنه قد رسم له الطريق وما حضور هذين الفيلين إلا دليل على اقتناع ملك الأفيال بما دبر له القرد.

الضفدع: ترى ماذا عساه أن يكون قد دبر له؟

وما هي الأسباب التي أقنعت ملك الأفيال أن يشرع في التحضير للحرب؟ لا بد أنه قد ضخم له أموراً ونسجها من خياله نسيجاً محكماً حتى جعلها تبدو أمام ملك الأفيال كالحقيقة التي لا رد لها .. ووضعه بين الطمع في كسب شيء عظيم له قيمته وبين الخشية من فقدان أشياء لا تدرك أو يحافظ عليها إلا بالحرب...

سيد التماسيح: لقد كانت تربطنا بالأفيال علاقات قديمة نشأت بحبهم للماء الذي نعيش فيه وما وجد عندنا شيء يطمع الأفيال فينا أو يخيفهم منا ...

الضفدع ـ لعله التاج الذي تفتت قلب القرد عليه حسرات لفقدانه أو لعل رد الثور على هذا النحو الذي تم أثار حفيظته!!.

سيد التماسيح: إن كان الثور قد بعث يتجسس الأخبار فلا بد أن يكون السبب سابقاً لحضور الثور، وقضية التاج لا شك عندي أسبق لو

كانت سبباً . . . ثم إن هناك أمراً يلفت النظر وهو أن الثور عند قدومه لم يسأل إلا عن التاج وعن صانعه. . .

الضفدع الشيخ: هذا صحيح وأرجح الآن أن يكون التاج هو السبب، ولكن ماذا عساه ينفع ملك الأفيال أو يفيده. .؟

سيد التماسيح : لست أدري . . لعل القرد قد زين له الأمر ، ولم يترك له فرصة للتفكير ملياً. .

الضفدع الشيخ: ولم لا يكون قد أقنعه بأنه قد صنع له التاج وأننا اغتصبناه منه، وإذا حدث هذا فهو كاف أن يوغر صدر ملك الأفيال علينا. . .

سيد التماسيح: أو ملك الأفيال لا عقل له يفكر به؟ أو حجم رأسي يماثل حجم رأسه؟ كيف يصلح له تاجاً؟ إنه لم يعد لرأسه البالغة الضخامة.

الضفدع: هو لم يره حتى يحكم في الأمر ولكن الأرجح أن يكون القرد قد زين له القول.

سيد التماسيح: أو هكذا تفعل الملوك تبني فعلها على الظن لا على اليقين .. كيف تستقيم الأحوال إن أصبح الظن أساساً لسلوكها وأفعالها وعلاقاتها؟

الضفدع الشيخ : لا تعجب إن جاء فعلها وسلوكها على هذا النحو ما دام القرد يجاورها ، والعجب أن تستقيم المسالك في حضور قرد تعلم ونعلم ماضيه.

وهنا تدخل هشام في الحديث قائلاً :

ـ لقد تتبعت حديثكما وإنكما في رأيي قد أصبتما كبد الحقيقة ووضعتما اليد على عقدة الأمر، وإن جهودنا تحتاج أن نحصرها في

إعلام ملك الأفيال بالحقيقة إعلاماً يذهب عنه ما التبس عليه من فهم، والأهم من ذلك أن يعدل فهمه للقضية كلها ويضم جهوده إلى جهودنا في القبض على القرد ومحاكمته .. وقد كنت أثناء حديثكما أفكر في الأمر وانتهيت إلى رأي فانظروا رأيكما . قالا: ماذا رأيت؟

هشام: أرى أن ترسل إلى ملك الأفيال من يقص عليه الحقيقة كاملة دون زيادة أو نقصان، فإن صورتها مكتملة ومحكمة الحلقات لا يقف أمامها نسيج خيال، ثم نحن ندعم هذه الأقوال بما يؤكد حسن نوايانا، ونعيد إليه الفيلين اللذين بعث بهما استجابة لتدبير القرد، ونحملهما أحجار الماس الخام التي كانت للقرد فوق شجرة الجميز فإن لمحنا من ملك الأفيال اعتقاداً عنده قد نشأ بأننا اغتصبنا تاجاً كان قد صنع له فتكون المسألة عندئذ قد قضيت تماماً. . . .

- كيف؟

- سيتضح بالبيان كذب القرد ونقدم له التاج المصنوع فيقيسه على رأسه ثم يراه على رأس سيد التماسيح، وحينئذ سيتأكد ملك الأفيال بأن التاج لم يصنع إلا لسيد التماسيح ونطالب عندئذ بعقاب القرد بعد أن نصحح الخطأ، والتكفير عن الذنب الجديد. . .

الضفدع الشيخ: وكيف يصحح خطأ بعد وقوعه في أيدينا واقتدارنا عليه؟

- إن كان قد ادعى بأنه صنع هذا التاج لملك الأفيال، ثم اتضح كذبه فيلزمه أن نبقيه محبوساً في قفص كبير يعد له خصيصاً، ونضع في هذا القفص جميع أحجار الماس التي سيحملها الفيلان، ثم نطلب إليه أن يصنع تاجاً آخراً لملك الأفيال يناسب حجم رأسه ، ولا يخرج من هذا القفص إلا إذا أتم صنع التاج، وبذلك يكون قد وفى لملك

الأفيال ادعاءه بأنه صنع له تاجاً.

سيد التماسيح: ومحاسبته على جرائمه.

ـ لا نبدأ فيها ولا نشير إليها من قريب أو بعيد حتى نطفىء الفتنة التي كان يريد إشعالها، ويتم صنع تاج كبير لملك الأفيال، فنزيل من صدره أي حفيظة يكون كلام القرد قد تركها...

سيد التماسيح: نعم الرأي ما رأيت!! ومن تراه يصلح لأداء هذه الرسالة عند ملك الأفيال...؟

هشام: أذهب أنا لأداء هذه المهمة...

الضفدع الشيخ: نخشى عليك مكر القرد فقد كان حريصاً أن يقدمك قرباناً لما كان يدعيه من مراسم ضرورية للبس التاج...

هشام: لا تخافوا عليَّ.. فإنني أسعى بخير والله معي يعصمني من مكر القرد...

وقبل أن ينهض هشام واقفاً كان الكردان قد عاد بأفراخه فسر هشام لقدومه وسأله عن الأحوال التي تدور في مملكة الأفيال فقال الكردان:

ما زال القرد على سفر وغالب ظني أنه سيتأخر في سفره فقد سمعت أنه سيبحث عن عروس، وأخذ معه عشرين فيلة...

وكل الأمور تسير على ما كانت عليه من قبل إلا أنني لحظت أن أفيالاً كثيرة تجمع أعشاباً خضراء للثور الذي بدأت تأتيه ثيران وأبقار يتجمعون حوله لينعموا برغد العيش الذي يتوفر حوله وأجده يمشي منتفخاً على غير عادته...

ـ قال هشام هذا أمر جديد يدبر لا بد أن نستجلي جوانبه.. فاترك أفراخك هنا في مأمن وعد إلى الثور وجاذبه أطراف الحديث حتى تفهم أسباب هذا التغير الذي طرأ عليه وجعل الثيران والأبقار تجتمع حوله

وتقوم الفيلة على خدمتها .. فقفل الكردان عائداً ليقابل الثور وقام هشام يجهز نفسه لهذه الرحلة. وجعل يجهز أحمال الفيلين من أحجار الماس الخام التي كانت للقرد فوق شجرة الجميز يضعها في قرع كبير مجوف يجمعه من شواطىء النهر .. وقد لفت نظره عندما عاد إلى شجرة الجميز أمراً غريباً فقد وجدها مثمرة فكاد يختلط عليه ثمارها بالأحجار أول الأمر ولما سأل الضفدع الشيخ عن ذلك أجابه لقد جلا القرد عنها والبركة بعد رحيله تعم ...

كان حمل الفيلين اللذين جهزهما هشام كبيراً وقد أحكم ربطه جيداً بالفيلين اللذين كانا يمتثلان لما يقال لهما من أوامر وقبل أن يتحركا كان الكردان قد عاد بالأخبار وقص على هشام ما كان بينه وبين الثور من حوار. قال الكردان للثور:

ـ أراك هذه الأيام مغتبطاً وكم يسعدني أن أراك هكذا فبشر حتى نشاركك الفرح...

قال الثور للكردان: اخفض صوتك..

قال الكردان ـ بصوت منخفض ـ: خيراً..

قال الثور: انظر في عيني، فنظر الكردان في عينيه.

قال الثور: هل ترى شيئاً..؟

ـ لا...

ـ انظر في فمي، هل ترى شيئاً.؟

ـ لا

ـ انظر في أذني هل ترى شيئاً؟

ـ لا.

ـ ما دمت لا ترى الأشياء الواضحة فماذا تريدني أن أقوله لك؟ أنتم

لا خبرة لكم ولا علم ولا فهم هو وحده الذي يفهم دونكم جميعاً وقد بشرني . .

ـ من الذي بشرك . . ؟

ـ قال الثور ـ بصوت منخفض ـ: مستشار الملك .

ـ سأل الكردان بصوت منخفض كذلك بماذا بشرك؟

ـ أنا القائد المنتظر . . أنا القائد المنتظر . . ولكن لا تبح بهذا الكلام لأحد . . وغداً أجلس هكذا ثم أضطجع إلى الوراء وأضع التاج على رأسي وأصبح سيد الجميع . . هل فهمت سيد الجميع بلا منازع . . .

ـ أي تاج . . . ؟

ـ هذا الذي يلبسه سيد التماسيح . . .

ـ ولكن كيف سيعطيه لك سيد التماسيح . . .

ـ يعطيني؟ الحرب . . ألا ترى هذه الثيران والأبقار التي تتجمع . . ؟ وهذا الفيلة التي تقوم بالخدمة إنها من أسرار السياسة التي لا يعلمها غيري! ماذا تظن؟ . . أيها الكردان . . غداً بعد النصر أضعك في منصب كبير، ولكن احتفظ بهذه الأسرار فإنها عليا . .

وقام هشام بإطلاع سيد التماسيح على هذه الأخبار، وقد تبين للجميع مدى الإفساد الذي يسعى القرد لنشره وجددوا العزم على ضرورة مواصلة السعي وبذل الجهد لحصره، حتى تنجو المخلوقات من الفتن التي يدبرها . . ثم توجه هشام ومعه الفيلان بما حملا إلى مملكة الأفيال وقد جلس هشام يستريح عندما بلغ مشارفها؛ فقد كانت المسافة كبيرة والطريق وعرة، وبعد أن أخذ قسطاً من الراحة قام ليواصل سيره ويدخل مملكة الأفيال، وقال: بسم الله «رب أدخلني

مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» وظل سائراً في طريقه حتى دخل على ملك الأفيال في مجلسه، فحياه تحية طيبة ورد عليه الملك التحية وقد بهرته طلعة هشام وحسن خلقته، ولم يكن قد رأى من قبل إنساناً، وظل ينظر إليه متعجباً ويرحب به. قال هشام:

- معي أحمال من الماس الخام جئت أستعين بسلطانك الواسع على تسليمها لصاحبها فقد أعياني البحث عنه وهي أجر له على جهد قام به...

- ومن يكون صاحبها...

- صاحبها قاتل فر من وجه العدالة ...

- من هذا الذي تتحدث عنه؟

أيها الملك الكريم، لقد حيرني أمره لطول قصته فإن شئت ففي قصته ما ينبي عن شخصه فإن كان عند الملك فضل وقت أعلمته بما كان..

- وكان ملك الأفيال لم يدرك بعد ما يرمي إليه هشام، كما كان حريصاً على الاستماع إلى حديثه، واسترسل هشام في أسلوب بديع وبيان فصيح يروي قصة القرد معه دون أن يشير إليه بكلمة واحدة، وقد أفاض هشام في بيان فترة حبسه على هيئة تمساح، مما جعل ملك الأفيال يقدر قيمة الجرم الكبير لهذا القاتل الذي لم يفصح عن شخصيته. وقال هشام فيما قاله: لقد بذلت له كل هذا الماس الخام ثمناً لوثيقة خلاصي التي صنعها لسيد التماسيح، ثم رفض تسليمي إياها حسداً أن أعود كما كنت إنساناً، ولما ضيقوا عليه الخناق ووجد ألا مناص من انتزاع هذه الوثيقة من يده آثر أن يقترف جرماً ويقتل من

انتزع منه هذه الوثيقة ويلوذ بالفرار . .

ـ إنها قصة عجيبة حقاً ولكن ماذا كانت هذه الوثيقة؟

ـ تاج من الماس المصقول صنع لسيد التماسيح مقابل أن يفك سيد التماسيح أسري ويطلق سراحي بعد طوال العناء.

ـ تاج؟ . . من الماس المصقول . . لسيد التماسيح كلام غريب هذا الذي أسمعه!!

ـ ومن هذا القاتل؟.

ـ إنه القرد.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ـ القرد؟ . . . تاج من الماس المصقول؟ . . . سيد التماسيح؟

ولكن . . ثم صمت ملك الأفيال واستغرق في تفكير طويل ويبدو أنه كان يقابل بين ما سبق له أن سمعه وبين ما يسمعه الآن، وطال صمته ومدت عليه الحيرة فيما يقول، وقد أدرك هشام الحيرة في وجه ملك الأفيال وأحب أن يعرف ما يجول بخاطره فقال:

ـ إن كل ما يهمني أيها الملك الكريم أن أسلمه حقه، ذلك الماس الذي أتيت به أما محاسبته على ما فعل فليس من شأني، ولكنه شأن الملوك الذين يكون العدل أساس ملكهم؛ فهم وحدهم القادرون على تصحيح الأوضاع.

ـ يكون العدل أساس ملكهم؟ ثم استغرق الفيل في تفكيره وسأل بصوت ملؤه الاستغراب ولكنك . . ألا تعرف طافيل . . ؟

ـ طافيل بلى أعرفه معرفة جيدة ولكن ما علاقته بموضوعنا؟

ـ إن له أقوالاً غير ذلك.

ـ أقول . . أتعرف من يكون طافيل أيها الملك الكريم . . ؟

ـ سمعت عنه ثناء عاطراً وأن له حكماً وأقوالاً يقتدي بها الملوك.

ـ أيها الملك الكريم إن من حسن المصادفة أنه ليس منا ببعيد فهو يقطن منطقة الفولار وأرجو أن تعجل الآن ببعث من يأتيك بخبره اليقين.

فأثار هذا الكلام فضول الملك وأمر أحد الأفيال أن يتوجه إلى منطقة الفولار وأن يعود بخبر طافيل، ثم قال لهشام: أنت ضيفنا فاسترح في أي مكان شئت في مملكتنا حتى تأتينا أخبار طافيل وعندئذ نواصل الحديث.

فشكره هشام وانصرف يتجول في مملكة الأفيال، وقد أعلن أن هشاماً ضيفاً للملك فأخذت الأفيال ترحب به وتحييه أينما ذهب وحيثما حل، وبعد ثلاثة أيام استدعاه ملك الأفيال وكان رسوله قد عاد من منطقة الفولار، وجلس بالقرب من الملك حينما سأل الملك الفيل عن أخبار طافيل. قال الفيل:

مولاي: ذهبت إلى منقطة الفولار وهي تبعد عنا مسيرة يوم وليلة وأخذت أسأل عن طافيل وكلما سألت أحداً نظر إلي شذراً واحتقاراً وأشار إلى حيث يقطن طافيل وهو يسد أنفه حتى وصلت إليه فإذا بي أجد خنزيراً غارقاً لأذنيه في بركة من روث البهائم وبولها وهو سعيد بالحالة التي هو عليها . . فسألته:

هل أنت طافيل؟

ـ طافيل معلم الدنيا . .

قلت له: ولماذا تعيش هكذا . .

ـ حتى أكون لكم قدوة فتأتون إلى هنا وتعيشون فيما أعيش فيه.

ـ أليس من الأفضل أن تتخير الأماكن النظيفة حتى تكون قدوة

حسنة يسهل اتباعك؟

- إن أفكاري العظيمة ألهمها في هذا المستنقع هلموا هلموا أعلمكم الحكمة . .

ثم سألته: هل أنت وحدك الذي تدعى طافيل أم هناك طافيل غيرك . . قال أنا وحدي طافيل، ولا يشاركني هذا الاسم إلا من شاركني هذه المعيشة في المستنقع وآمن بما أعتقده وأدعو إليه.

- وإلى أي شيء تدعو؟ . .

- لقد عاشت الدنيا في نظام فمللنا هذا النظام، وأدعو إلى الإيمان بالفوضى، الفوضى المطلقة التي لا يحدها شيء، فتنقلب الحقائق في أنظار المخلوقات. فيكفي أن تؤمن بأني مثلاً أعيش في بركة من العطر الطيب، ويثبت هذا الإيمان في نفسك فتشاركني الإحساس بأنك تعيش معي في بركة من العطر، وتعجب عندئذ لماذا لا يحس الغير بهذا الإحساس الجميل ألا ما أجمل الفوضى.

إن ما أدعو إليه هي ألا يتقيد أحد بشيء، فإن القيود هي قوانين النظام أو نظام القوانين وقد مللناها.

وما عليكم إلا أن تتبعوا تعاليمي ففيها الإحساس بالخلد والراحة والنعيم فليكن الليل نهاراً والنهار ليلاً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، والصدق كذباً والكذب صدقاً، وافعل ما يحلو لك، ليس هناك ذنب أو خطيئة كلها أوهام يحرمنا متعة الحياة. عيشوا معي هنا حتى تفهموا معنى هذا الكلام ويأتيكم الإلهام إيه يأتيكم الإلهام . .

قال ملك الأفيال : كفى، كفى . . ثم استطرد قائلاً: كان يخدعني ولقد أسرفت في الإنصات إليه وائتمانه على أسراري ولكنني الآن أريد أن أستوثق !!

ـ أما وقد جاءكم فكل الذي أرجوه ألا يكون قد أسرف في خداعكم كما أسرف في خداع الكثيرين.

ـ لو صح ما قلته فسيكون عقابه شديداً . .

ـ أو يحتاج ما قلته إلى بينة تدعمه؟.

ـ كل شيء بعد الذي كان يحتاج إلى بينة . .

ـ نعم ما ترى . . والحق أبلج، أما ما كان بينك وبينه فأنت وحدك القادر على تبينه، وأما قتله تمساحاً قبل هروبه فاختر من شئت ممن تثق في نقله وتعتمد على رجاحة عقله فليذهب إلى التماسيح يسمع ما قالته الشهود، ويكشفون عن المقتول ليتبين أنه قتل برمي أحجار كبيرة على رأسه وجدت إلى جواره كما وجدت آثار أقدام القرد وعلامات أصابعه الوحلة على الأحجار التي استعملها في القتل.

ـ لا، لا أفعل هذا، ولكن نسأله عند حضوره . .

ـ لو علم بوجودنا هنا لفر ولما أمكننا إقامة العدالة . . ويلزم أن تضعوا أيديكم عليه أولاً ثم تسالوه عما كان من أعماله . .

ـ نضع أيدينا عليه . . هذا أمر هام.

ـ ولكن ليعلم الملك الكريم أن براعة القرد في الإفلات من الحصار كبيرة وإذا أفلت هذه المرة فالعثور عليه بعد ذلك عسير.

ـ وماذا عندك من رأي؟ . .

أرى أن نصنع قفصاً كبيراً محكماً ونضعه فيه فور حضوره ثم نحاسبه وهو على هذه الصورة.

ـ أوافقك على هذا التدبير، غير أن وجودك عندنا قد يثير الكثير من التساؤلات والأفضل أن تعاود زيارتنا بعد عودته وسنرسل في طلبك . .

واطمأن هشام بعض الشيء لهذه النتيجة التي توصل إليها مع ملك

الأفيال، وقفل راجعاً إلى سيد التماسيح يخبره بهذه النتيجة ويقيم معهم حتى يتم البت في موضوع القرد. . الذي أخذ قافلة من عشرين فيلة وسار بهن يقطع المسافات الشاسعة إلى حيث يزمع أن يجد له عروساً. وكان القرد يفكر أن الأعمال والمهام التي أصبح يشرف عليها تحتاج إلى من يساعده وهي من نوع لا يمكن ائتمان من يراه من الحيوانات أمامه عليها.

وكان رأيه قد استقر ألاَّ حل لهذه المشكلة التي يواجهها إلا أن يكون له أبناء من جلدته ينشئهم تنشئة خاصة ويعتني بتربيتهم وتعويدهم على هذه الأعمال، ويهيئهم لوراثة هذا الجهد الضخم الذي انتوى بذله ثم الانتفاع بثماره وحده والاستئثار به. وكان بعد النجاح الذي أصابه بإقناع ملك الأفيال أن يتخذه مستشاراً خاصاً له قد ذهب بعيداً بخياله الواسع، ثم ما زال يسير والفيلات يتبعنه ويمتثلن لأوامره لا تستطيع واحدة منهن مخالفة ما يأمرها به، وقد بلغ بالفيلات الإعياء مبلغاً كبيراً، وبعد سفر مجهد يذهب الشحم واللحم وصل القرد إلى حيث أراد منطقة مليئة بالأشجار الوارفة الضخمة انتشرت بينها الصخور السوداء المتناثرة في مجاري الماء وعلى جوانبها، وأمر الفيلات أن يسترحن فاندفعن نحو الماء وقد علت أصواتهن من الفرح، يسبحن ويرتعن في الحشائش الخضراء التي تحيط بالمكان. . ونزل القرد يمشي الهوينا ووقع بصره على صخرة عالية تشرف على المكان كله فتسلقها، وجلس على قمتها مصعراً خده وقد انتفخ كبراً وامتلأ صلفاً . . ومرت لحظات وهو يسبح بعيداً نحو المستقبل الذي يخطط له . . وما زال على جلسته هذه حتى تجمع حوله في هذا المكان عدد كبير من القردة التي تقطن هذه المنطقة وتعيش فيها . . كلها الذكور والإناث

ينظرون إليه وهو صامت لا ينظر إليها ولا يحدثها. وقد بدا الفارق بينها وبينه كبيراً فهو يفضل جميع من وجد من القرود حجماً وقوة.

ويبدو أن التجارب الكثيرة التي مر بها قد أكسبته خبرة بمعرفة سلوكها وإدراك الطريقة التي يطوع بها القرود لأوامره.. وكان وجوده وظهوره مع الفيلات في هذه المنطقة أمراً يدعو إلى تزايد الفضول وحب الاستطلاع عند القردة كلها دون استثناء، وكان عددهم كبيراً وقد تزايدوا حوله وهو مصعر خده من الكبر لا ينظر إليها. ثم تكاثر الهمس بينها وزاد حتى علت الأصوات، ثم لما وقف ساد الصمت، ومن فوق الصخرة العالية أشار إلى إحدى الفيلات، وكانت ترعى بالقرب منه فجاءته بسرعة وأشار إليها أن تحييه فأخذت تقوم أمام القرد بحركات غريبة تحيي بها هذا القرد!، وتظهر له الاحترام البالغ.. فهي تجثو على ركبتيها الأماميتين ثم تقوم وترفع خرطومها إلى أعلى وتنشر أذنيها إلى الجانبين ثم تخفض خرطومها إلى أسفل، وتظل تخفضه وتخفض رأسها مع ثني ركبتيها حتى لتكاد رأسها تلامس الأرض .. ثم تهب واقفة وتتأخر إلى الوراء ثم تقوم بسرعة وتعاود ما بدأت وتظل على فعلها وحركاتها حتى يمتلىء القرد نشوة أمام باقي القرود، ثم يأمرها بالانصراف، وإرسال فيلة أخرى فتأتي وتظل تدنو منه حتى يهمس في أذنها، فتبدأ في سلسلة من التحية تختلف عما فعلته السابقة وتزيد عليها.

كل ذلك يجري بين تعجب القرود المتزايد مع هذه الحركات التي تؤديها الفيلات دليلاً على استسلامها وخضوعها، وبدأت نظرتهم لهذا القرد تتغير، فازدادوا له احتراماً، ومنه هيبة، وعلموا أن له شأناً كبيراً وإلا لما فعلت الفيلات أمامه هكذا .. ولم تدرك القردة أنه كان يسأل

كل فيلة على حدة ماذا ستفعله من تحية إذا هي استدعيت لمقابلة ملك الأفيال، فجاء فعلها مطابقاً لما كن سيفعلن أمام الملك. ولما اطمأن القرد إلى أن الهيبة والاحترام قد ملأت نفوس القردة جميعاً بعد الذي كان، أخذ يتجول بينها ويسألها في اقتضاب عن أحوالها.. وأقام عدة أيام وهذا العرض يتكرر أمام الجميع مرة في الصباح، وأخرى قبل الغروب.

وفي هذه الأيام كان رأيه قد استقر على اتخاذ تسعة عشر زوجة، انتقاهن انتقاء دقيقاً يصلحن معه لحضور اللقاءات الكبيرة.. وفاتحهن في رغبته ، ولم تمض أيام أخرى قليلة حتى أعلن بين القرود الفرح بهذا الزواج الكبير، وقد خصص لكل قردة منهن فيلة تحملها حيث أرادت وأبقى لنفسه كبرى الفيلات.

كان منظراً لم تعتده أعين الفيلات ولا القردة أن يرى الجميع تجوال الفيلات وفوق رأس كل واحدة منهن قردة توجهها حيث تشاء، وفضل القرد أن يقيم في هذا المكان مع زوجاته حتى ينجبن له أطفالاً ويعود بالجميع إلى مملكة الأفيال التي كان عقله منشغلاً بترتيب ما سيكون فيها وطال هناك مقامه وهو يؤدب زوجاته على السلوك الواجب اتخاذه إذا أجبرتهن المناسبات على حضور لقاء الملوك والكبار، وكانت كل واحدة منهن سعيدة بقربها من هذا القرد الذي كبر خطره وعظم شأنه، وسعيدة بالمزايا التي بدأت تحلم بتحقيقها والتي ظهرت بوادرها بركوبها رأس فيلة تأتمر بأمرها، وكانت بذور الغيرة بين زوجات القرد قد بدأت تنمو رويداً رويداً، وكانت تفعل فعلها في الخفاء بينهن ثم ما لبث أن ظهرت علانية وتجاهرن بما يضمرن في نفوسهن، فكان منظراً مألوفاً أن يشاهد بينهن صراخ تتشابك فيه الأيدي، وتتدافع فيه الأرجل وتنشب

فيه الأنياب ويعلو فيه الصراخ والعويل.. كان ذلك يجري في معظم الأحيان تحت سمعه وبصره، وكان هو لذلك يمتلىء نشوة ويسر أن يتصارع حول شخصه هذا العدد الكبير من الزوجات، ثم بعد ذلك لا يعنيه أمرهن في قليل أو كثير كل الذي كان يسعى إليه أن يكون له أبناء من جلدته ينشئهم على تحقيق أحلامه الواسعة.

ومضى الزمن الذي كان يتعجله وأنجبت زوجاته كلهن، وكن يختلفن في إحساسهن بالاعتزاز والتعالي بعضهن على بعض بقدر ما حدث بينهن من تفاوت في إنجاب الأبناء فهذه أنجبت واحداً فتراها كثيرة الغيرة والحقد على التي أنجبت اثنين، فهي دائماً لا تفكر إلا في أذاها والإيقاع بها وغمزها ولمزها، ولا يسلم بنوها من هذا الكيد فهم في ذلك وأمهم سواء.. والتي أنجبت اثنين كان شعورها التعالي والإغاظة والاحتقار للتي أنجبت واحداً أو واحدة، ثم هي تتجه بالحسد الأسود وكل ما يمليه من سولك نحو التي أنجبت ثلاثة، هي وبنوها في ذلك سواء..

وهكذا قام المجتمع الذي أراد أن يصحبه معه في رحلة العودة موحداً في فكر القرد وأحلامه التي يسعى لتحقيقها، وزوجاته من ورائه يرضعن أولادهن ثمار الغيرة والحسد والبغضاء والخلاف، وكان من العسير على اثنين من أبناء القرد ممن اختلفت رضاعتهما أن يلتقيا في أمر، وكان أثر الزوجات في هذا جد عميق يجاوز الشكل إلى التكوين الذي نشأ بحكم واقع الحياة التي عاشوها.

وسارت القافلة في طريق العودة يتقدمها القرد متربعاً على رأس كبرى الفيلات، وتتبعه زوجاته وقد تربعن على رؤوس باقي الفيلات، وأولادهن معهن،كان درب العودة إلى مملكة الأفيال طويلاً، ولكن

طريق الأحلام التي سيطرت على خيال القرد كان أطول من ذلك بكثير. ولما كان يشرف على مملكة الأفيال بقافلته جمع أولاده بمعزل عن الفيلات التي تركها ترعى بعيداً حتى لا تسمعه، ولما اطمئن لوجودهم جميعاً أخذ يعظهم فقال:

أبنائي، أنتم النخبة الممتازة بين سائر المخلوقات الأخرى التي تستوي جميعها في أنها بهائم سافلة، أحلت لكم دماؤها وأموالها وجهودها. وكل ما تنالونه منها مما يفيدكم أو يضرها ويؤذيها فهو حلال لكم، يرتفع قدركم بفعله وتعلو منزلتكم بالحرص على إتمامه.

ولكن كونوا على حذر من هذه البهائم؛ لأنها الآن أقوى منا عدة وأكثر منا عدداً، فافعلوا ما أحل لكم دون أن يفطنوا إلى ما تفعلون. ابتسموا لهم وأنتم تدسون السم في الطعام، وأظهروا لهم الإخلاص والولاء وأنتم تحفرون قبورهم، زينوا لهم الغش والزور حتى يروه حقيقة ناصعة، وليكن دأبكم أن تثيروا بينهم الفتن، حتى لا ينعموا بالهدوء، وأشعلوا بينهم نار الحروب حتى تطحنهم جميعاً وأنتم في مأمن، الشفقة مع البهائم رذيلة، وكل الخلق ما عداكم بهائم، فإياكم وهذه الرذيلة، عليكم برؤسائهم وكبرائهم أفسدوا عقولهم، فإذا فسدت عقول الكبار فسد لذلك أتباعهم ومن دونهم، احرصوا على نشر الفساد وسموه إصلاحاً، وليكن دأبكم نشر الفوضى في كل شيء وسموه غاية النظام. . واحرصوا دائماً على نشر سحب كثيفة من الأوهام والشائعات والحكم، حتى لا ترى البهائم شيئاً مما تفعلونه فيظلوا أبداً يعيشون في عماية من أمرهم، ولا يروا شيئاً، وأنى لهم أن يروا أو يدركوا شيئاً من أين تأتيهم الطعنات؟ وحطموا كل ما يقيم حياتهم، حتى لا يجتمع اثنان، وأفقروهم حتى يذلوا فيسهل قيادهم، وانتشروا في كل البلاد

حتى يسهل لكم إثارة بعضهم على بعض .. وأهم ما أوصيكم به هو أن تمتصوا دماءهم رويداً رويداً، وفي هدوء حتى لا يحسوا بما تفعلون فإذا فعلتم ذلك فستسقط هذه البهائم أخيراً وليس لها إلا السقوط، وهذا ما نريده حتى ننفرد بالنعيم الذي لم يجعل إلا لنا وحدنا نحن النخبة الممتازة.

ـ هل فهمتم ما قلته لكم ..؟

نعم فهمنا ..

ـ احرصوا على هذا الدرس جيداً ففيه سيادتكم وعزتكم، ولا تبوحوا بهذه الأسرار لأحد وتذاكروا هذه العظات بين لحظة وأخرى، حتى لا تنسوها ويجرفكم تيار البهائم الذي يحدثوه بكثرتهم هل فهمتم؟

ـ نعم فهمنا ..

ـ هلموا ثم تحرك القرد إلى مملكة الأفيال ولما بدا القرد لهم من بعيد، احتشدت الفيلة من كل مكان بسرعة كبيرة، وقد سره غاية السرور تجمع هذا العدد الضخم لاستقباله، واستقبال زوجاته وأولاده فجعل ينظر إلى زوجاته مظهراً لهن الفخر والزهو ببلوغه هذه المكانة العالية، وكان ذلك بينما يتقدم مقترباً نحو جمع الأفيال التي احتشدت له واستمر على هذا الإحساس حتى اخترق الجموع بقافلته وكان متوجهاً بها نحو ساحة واسعة. وفجأة حدث الذي لم يخطر له على بال، فقد اختطفه خرطوم فيل ضخم والتف حوله ممسكاً إياه بقوة ورفعه إلى أعلى حتى رآه الجميع والقرد يحسب أنهم يبالغون في الحفاوة به ويرفعونه فوق الرؤوس كما يرفع الزعماء فأخذ يقول للفيل:

ـ لا .. لا ليس هكذا .. احترم شخصي، أنا مستشار الملك، لا

أحب المزاح على هذا النحو..

وكان الفيل يتقدم به نحو قفص كبير أزيح عن بابه سيقان شجر ضخم، ثم قذفه بقوة داخل القفص وسد بابه فوراً بسيقان الأشجار وارتطم القرد بأرض القفص، ولم يكن حتى هذه اللحظة قد تبين الأمر.. وبدأ يفيق حينما أغلق عليه الباب بإحكام .. وبدأت بعض الفيلة التي تجمعت حول القفص تمد خراطيمها إلى جوفها وتملؤها بالماء وتضخه على القرد ضخاً شديداً جعله يترنح من كثر ما أصابه من ضخ من كل اتجاه، ولم تترك له فرصة لكلام أو حديث، وبقي في هذا القفص يعاني حرارة هذا الاستقبال العظيم، وهذه الحفاوة البالغة، بينما انهالت خراطيم أخرى كالسياط على زوجاته وأبنائه الذين راعهم هول المفاجأة، فأطلق كل منهم ساقيه للريح حتى ينجو بنفسه من هذا الهرج الذي حدث، والقردة سريعة في الإفلات بنفسها .. وهكذا لم يفكر أحد منها إلا في النجاة بنفسه . وما هي إلا لحظات حتى تشتت جمعهم في كل اتجاه .. وكان الهم الأكبر لكل واحد منها أن يبتعد مسرعاً لا يجرؤ على النظر لما يدور خلفه. ولكنه يجري هكذا على غير هدى طلباً للأمان .. كانت أحداث المفأجأة لهولها كبيرة وقد خيل لكل قرد أن فيلاً يطارده فيدفعه ذلك إلى المضي جرياً .. واستمر جريهم أياماً وأياماً حتى تشتتوا في الأرض ولم يعد لهم أمل في لقاء..

وهنا نترك القرد في قفصه محبوساً ليبعث ملك الأفيال في طلب هشام ونتابع الأمين مع دابورا ملك البوشال، وكان الأمين قد استأذن في الانصراف حتى لا يشاهد إعدام إنسان، وأذن له الملك الذي أعطى الإذن بالإعدام وهنا سمع الأمين صرخة عالية تناديه فارتجف جسده

رجفة قوية إذ أحس أن هذا الصوت لم يكن عليه غريباً فهو صوت عامر، والتفت ناحية الصوت فإذا به يرى أن الذي علق الحبل في رقبته هو صاحبه العزيز عامر . . وفي ومضة البرق الخاطف كان البتار يقطع الحبل والأمين فوق توتانه الذي انقض كالصاعقة على النصب الذي أعد لقتل صاحبه وكان سباقاً بين الأمين وبين لحظة، وشاءت قدرة الله أن يكون الأمين فوق التوتان عندما سمع استغاثة صديقه فكان بتاره أسرع من اللحظة الباقية وكتب الله له النجاة من موت محقق.

وذهل الحاضرون جميعاً فهبوا وقوفاً يستطلعون الأمر، وقد أخذوا بسرعة التوتان وومضة البتار وكانوا حريصين على إدراك السبب الذي دفع صديقهم الأمين على ما أقدم عليه، وسادهم جميعاً صمت له رهبة لم يألفوها من قبل، وكانت نظراتهم تتبع الأمين يرجع التوتان بعد أن اجتاز النصب لسرعة اندفاعه وقف التوتان وبنظرات المذهول وحركاته نزل الأمين في هدوء وبطء الذي لا يكاد يصدق ما ترى عيناه، وقد عقد الموقف لسانه فلم ينطق، وأقبل نحو صديقه الذي سقط على الأرض غائباً عن وعيه من فرط الإعياء، وهو يمد إليه يديه للمساعدة والترحيب، وما زال كذلك حتى وصل إليه وانكفأ فوقه يحتضنه وعيناه تفيضان بالدمع، ثم نهض وحمله بين ذراعيه حتى وضعه على التوتان وأمسك بمقوده يسير على قدميه في صمت، واتجه به خارجاً من الساحة نحو غرفته في قصر الملك، ولما وصلها حمل عامراً بين ذراعيه ودخل غرفته وأغلق دونه الباب، ثم وضعه على سريره وجلس بجواره على الأرض ينظر إليه وقد بقي على ذهوله ولزم الصمت فلم يتكلم.

وهناك في الساحة بقي القوم على حالهم . . واقفين صامتين،

مأخوذين مما حدث حتى بعد أن غاب الأمين بمن حمله توتانه عن أنظارهم، ولم يكن دابورا ملك البوشال بأقل من قومه تأثراً لما حدث .. ومضت فترة والسكون مطبق على القوم، ثم قام ملكهم من مجلسه منصرفاً وهو على حاله كذلك من الصمت، وعاد إلى قصره واتجه نحو غرفة الأمين، ودخلها بعد أن طرق الباب فألفى عامراً يرقد على السرير، وقد غاب عن وعيه، والأمين يجلس على الأرض بجواره وينظر إليه بعينين اغرورقتا بدموع الفرح والأسى مما لا يطال بعبارة أو ينال ببيان .. وسرى هذا التأثر الذي غمر الأمين إلى ملك البوشال دابورا إذ سأله بصوت هادىء...

ـ من يكون ؟

لم يزد الأمين أن أجاب.

ـ أخي .. قالها دون أن يرفع رأسه أو ينظر إلى الملك .. وكان لهذه الإجابة رجفة أصابت دابورا. لم يستطع معها إلا أن ينسحب خارجاً، متوجهاً نحو غرفته فدخلها طالباً من خدمه ألا يدخل عليه أحد .. وهناك على باب الأمين وقفت ملكة البوشال وحولها بعض جواريها ينظرون إلى الأمين ولا يجرؤن على الدخول أو الحديث معه، وقد هزهن مشهده وعيناه تذرفان الدمع بجوار هذا الذي يرقد في الفراش، وحز في أنفسهن ماذا يفعلن؟ والبوشال جمعيهم كبيرهم وصغيرهم رجالهم ونساؤهم يحترمون الأمين، ويجلونه ويكبرونه وينزلونه من قلوبهم منزلة عالية.

همت إحداهن بالدخول تمد إليه يد المساعدة.. ولكن الأمين أشار إليها بيده ألا تقترب فتراجعت إلى الوراء حتى أخلت الغرفة..

وهناك في الساحة الفسيحة حيث البوشال كانوا مجتمعين أخذوا

يتركون أماكنهم بعد مغادرة الملك وهم على صمتهم وانتظمتهم حلقات كثيرة يتهامسون فيما بينهم، يريدون أن يعرفوا ماذا وراء الأمر الذي حدث، ولم يكن الذين ذهبوا إليه في تفسيرهم لما تم صحيحاً، وأخذت الجموع تنصرف كل إلى داره وهم على قلقهم وحبهم لمعرفة الأمر، واستجلاء الحقيقة؛ وكان الأمين ما زال جالساً على الأرض وعيناه لا تفارق وجه عامر، وما زال الباب على حاله مفتوحاً وملكة البوشال ومن حولها من جواريها تركن الباب وأخذن يقطعن ردهات القصر جيئة وذهاباً، وهن يتداولن فيما بينهن، كيف يقدمن مساعدتهن، وكلما خطرت لهن فكرة عجلت إحداهن نحو باب الأمين كي تبادر بعرض المساعدة، وما أن تصل حتى يردها هيبة عن ولوج الغرفة أو الكلام فتعود خائبة الرجاء وما زلن على حالهن من التردد والحيرة شأن النساء في الملمات. وأخيراً فتح عامر عينيه وطافت لتفتحهما بسمة هادئة على ثغر الأمين وقال له:

- أنت بخير . . لله الحمد وحده والثناء.

- الأمين؟

- نعم بجوارك.

- ماء أريد ماء.

- وبرز الأمين من باب الغرفة وطلب الماء، فهرعت جميع النساء اللاتي كن ينتظرن في الخارج يحضرن الماء، واختلف تفسيرهن لطلب الماء حسبَ ما كن يقمن به من خدمات، وجرت بعضهن كي تعود كل واحدة حاملة كوباً من الماء للشراب وهي طامعة أن تحظى بشرف تقديم المساعدة، بينما عادت أخريات تحمل (طسوتاً) من النحاس وأباريق وكن يعتقدن بالحاجة إليها لغسيل الوجه والجراح، مد الأمين

يده وتناول أقرب الأكواب التي امتدت إليه، ودخل يمد يده يساعد عامراً على النهوض برأسه حتى يتمكن من الشراب، وامتص عامر بعضاً منه ثم اكتفى وقال الأمين بعد أن أعاده للرقاد:

ـ اطمئن . . أنت بخير.

ـ طالما التقينا فأنا بخير ولكن. .

ـ ماذا؟

ـ أحس آلاماً مبرحة.

وكان الأمين يرى آثار ما عليه من سياط، وكان يدرك أن الذي وقع لا حيلة له في دفعه، وأن لقياه ونجاته من الموت على النحو الذي حدث كانت منة من الله عليهما كبيرة وجراح السياط يطبها العلاج، وحالة عامر على ما هي عليه من معاناة لأوجاع جاوزتها كثيراً فرحة عمر قامت بلقائهما وأمل تحقق دونه كل ما لقياه.

ـ لا عليك بأس . . نصبر على علاجها، وغداً إن شاء الله تبرأ من هذه الآلام وتعود كما كنت قوياً معافى.

ـ أين هشام. .؟

ـ الذي جمعنا . . يجمعنا به إن شاء الله.

ـ أما لقيته. .؟

ـ كلا هذا أول لقاء بعد افتراقنا. .

حاول عامر أن يعتدل في فراشه ولكن غلبه الألم وتأوه، فنهض الأمين يساعده ولكنه لم يستطع فأعاده للرقاد مرة أخرى . . وكانت ملكة البوشال قد تركت جواريها يحضرن الماء الذي طلب، وذهبت لمقابلة دابورا، ولما دخلت عليه وجدته جالساً، وقد أطرق رأسه وأمسكها بكلتا يديه ولاحظت عليه كرباً شديداً . فسألته. .

ـ من يكون؟

ـ أجاب دابورا . . ما أنصفنا الأمين ولا كافأناه!! وما زالت يده علينا عالية أصلح شأننا وأعادكم من أسركم، وكنا نقابل معروفه الذي لزمنا ولزم أبناءنا وأحفادنا بقتل أخيه . .

ـ سألت الملكة متعجبة!!

ـ أأخوه هذا؟

ـ نعم . . ما أسوأ فعلنا وأقل شأننا.

وخرجت الملكة مهرولة نحو غرفة الأمين فأدركته وهو يساعده على الرقاد.

سألت ملكة البوشال.

ـ أوَ أخوك هذا؟

فنظر إليها الأمين وأومأ برأسه إيجاباً، ثم سكت وظل ينظر إلى عيني عامر، وطال بينهما الحديث صامتاً، وطلبت الملكة من جواريها إحضار أدوات العلاج، فهرعن يحضرن كل ما توفر عندهن وتولت بنفسها الإشراف على علاجه، تساعدها جواريها وتركهن الأمين يقمن بتطبيب صاحبه، وهو يقاسم الوقت بين الجلوس بجواره والنظر في عينيه وبين الوقوف خلف نافذة الغرفة يسبح بفكره بعيداً . .

واستمرت الملكة تشرف على علاج عامر، وتشترك فيه أحياناً بيديها . . وكان طعامه يأتيه في غرفته وطالت مدة العلاج . ودابورا يوصي زوجته بزيادة الرعاية حيث إنه عزم ألا يقابل الأمين حتى يبرأ أخوه تماماً ويعود كما كان سليماً معافى . .

وتسرب الخبر الذي عمي عن البوشال يفسر لهم ما غاب عنهم، نقلته الجواري كل منهن إلى عزيز لديها، وقد كان لتناقل الخبر فضل

في تصحيح ما شاع مما تكهن به أصحاب الفضول وذوي الصدارة في ادعاء المعرفة ببواطن الأمور، وسرعان ما ساد البوشال هم وحزن لا يقل عما أصاب دابورا ملكهم.

مضى شهران قبل أن يتمكن عامر من امتطاء صهوة فرسه الأشهب التي أحضروها له والتي كانت سرنا ملكة الرودام قد أهدتها له قبل رحيله عنهم، وكانت عافيته قد ملأته والبشر قد غمره يرى ذلك في ابتسامته التي لم تعد تفارقه، وحديثه الطويل المرح مع الأمين يقص عليه كل ما صادفه وشوقه الزائد لمعرفة ما كان الأمين يقص عليه. .

كان لعذوبة الحديث في سرد ما لقياه أثر كبير في سرعة استرداده لعافيته، فقد أحس بعظم الأمل في لقاء هشام، وكلما عظم الأمل دبت فيه العافية، وكان الأمين سعيداً بشفاء عامر وعادته إلى حالته الأولى. . وجاوزت أخباره قصر الملك إلى باقي البلدة فانزاح عنهم جميعاً هم جثم على أنفاسهم طوال مدة علاجه.

وكان دابورا يقول لزوجته ما طلب الأمين مني شيئاً بعد الذي قدم لنا إلا أجبته إليه، ولو شق علي، ثم لما علم بتمام شفاء عامر واطمأن إلى ذلك . . ودعا الأمين وعامراً إلى تناول العشاء معه في الحديقة في نفس المكان الذي جاءه فيه الأمين أول مرة وكان لقاءً حاراً بعد طول انقطاع، كانت نفس الأمين قد هدأت منذ زمن مما أصابها لآلام عامر.

وكان الملك على إحساس بالحياء، لكثرة ما أسدى إليهم الأمين من خدمات . ولشعوره بأنهم قد آذوا الأمين أخاه إيذاء شديداً، وتناولوا طعامهم وشربوا شرابهم وتسامروا فيما يتسامر فيه القوم حول الطعام. ثم قال الملك:

ـ مشيئة الله . . أن يكتب السلامة لأخيك وإلا ما كان أمامنا من

سبيل لتصحيح خطأ يمسك، وأفضالك على البوشال جعلت لك في قلوبهم منزلة كبيرة.. فالحمد لله الذي نجانا من ورطة ليس لها مخرج.

ـ إنه فضل الله .. ولكل أجل كتاب، وما حان الأجل بعد.

ـ إن ما فعله فينا بكثير حيله وعظيم دهائه كلفنا الكثير من الرجال وأعجزنا على النيل من الروادام.

ـ أيها الملك، لقد كانت بينكم حرب مشروعة والأشراف من الرجال إنما يكرمهم الرجال الأشراف فقد كان بالتكريم أولى.

ـ نعم .. لقد أدركت ذلك أخيراً، وكم كانت الخسارة فيه فادحة لو حدث الذي كان منا، حتى تخليصنا من هذه الورطة شاء الله أن تأتينا على يديك..

ـ هو الخير يسوقه الله للناس كلهم كي ينعموا به ولا فضل لأحد فيما تنعم به والفضل بيد الله وحده، وإن أجرى الله خيراً على يد أحد من عباده فهي منة من الله على العباد.

ـ لقد آليت على نفسي ألا تطلب مني أمراً إلا فعلته ولو شق، وما أخالك في حاجة إلى شيء، ولكن قيامنا ببعض ما تطلب يخفف عنا إحساس أعباء ثقال بمعروف لم نلقه بما يليق.

ـ أما الطلب فقائم .. وما أريد أن أشق عليك.

ـ هاته .. ولو لم يبق فينا إلا رجل واحد لبذل نفسه حتى يحققه.

ـ السلام..

ـ السلام؟ أو ما ترى السلام قائماً؟

ـ بينكم وبين الروادام..

ـ الروادام؟ .. لك ما أردت وأنا على يقين من أنك لا تفكر إلا في

الخير ومن لملكة الروادام بإقناعها بعد الذي كان؟.

قال عامر: أنا لها .. أنا أقنعها بذلك وما أخالها إلا على السلام حريصة.

ـ خيراً فعلتما ثم قام من مجلسه بعد أن أمر المنادي بأن يطوف البلدة يخبر البوشال بقيام الأفراح ثلاثة أيام ابتهاجاً بسلامة عامر ـ أخي الأمين ـ وابتهاجاً بتوديعهما إلى الروادام لإقرار السلام والأمن.

وبدت الأفراح مع شروق شمس الصباح أعظم مما كانت عليه يوم عاد الأمين بأسرى البوشال وفتح قصر الملك طوال أيام ثلاثة بلياليها، يستقبل الزوار ويلبي لهم ما يطلبون، وكالعادة مدت الموائد وتزاحم عليها المودعون ووزع الشراب على الداخلين والخارجين، وجاءت البوشال تهنىء الأمين على سلامة أخيه، ثم يسلمون على عامر ويهنئونه بالنجاة؟ وهم ينظرون إليه متفحصين، وكانوا حريصين على رؤية هذا الذي قاد الروادام ، وأجهدهم حتى اليأس في حربهم، ونال منهم منالاً عظيماً، وكان عجبهم منه قد زال لما علموا أنه أخو الأمين الذي رأوا منه الكثير وعاد لهم بأسراهم.

وفي اليوم الثالث كان الأمين على ظهر التوتان وعامر على صهوة فرسه الأشهب يلوحون بأيديهم إلى البوشال الذين تجمعوا لتوديعهم، وهم في طريقهم إلى مقابلة سرنا ملكة الروادام، وخرج معهم الملك ونفر من حاشيته على ظهور الخيل يودعونهم، وصاحبوهما حتى منتصف النهار ثم عادوا ومضى الأمين وعامر لأداء رسالتهما، ومضى وقت طويل وهما يتحادثان على البعد، حتى ألفت فرس عامر السير بالقرب من توتان الأمين، ونظر الأمين فإذا بالجنداب يحلق فوق رأسه فقال لعامر:

ـ ها هو الجنداب الذي حدثتك عنه.

ونظر إليه عامر متعجباً والجنداب يحط على رأس التوتان وهو يحمل إليه رسالة من ملك الدوشيم، جاء فيها: أن الأميرة تاتي أخذ القلق يساورها فطمئنا على سلامتك.. وابتسم الأمين وهو يكتب الرد ليطمئنهم وأخبر عامراً بما جاء في الرسالة . ومضى الاثنان في طريقهما، والأمين يستفيض في إعادة وصف الجنداب ونشاطه.. واستمرا سائرين في طريقهما يوماً وليلة قبل أن يظهر الجنداب مرة أخرى عائداً برسالة من الأميرة تاتي تعبر فيها عن ازدياد قلقها وتلح في أن يكتب لهم ما يطمئنهم..

وبدأ الأمين في كتابة رسالة مطولة يشرح فيها لقاءه مع عامر وخروجهما سوياً لخير يفعلانه قبل انطلاقهما للبحث عن صاحبهما هشام. وأضاف في الرسالة ما يزيدها وملك الدوشيم اطمئناناً على سلامته. وعاد الجنداب بالرسالة واستمرا يمضيان إلى الرودام.

عرض لهما في الطريق رجل عجوز يبكي وبجواره بغلة وكان بكاؤه يثير الشفقة فنزل إليه الأمين وحياه وسأله:

ـ ما بك؟

ـ دعني وشأني، وهل إذا شكوتك حاجتي تساعدني؟

ـ ولمَ لا أساعدك؟

ـ أبقي خير في الدنيا؟

ـ الخير باق، فما حاجتك؟..

ـ ولدي وقع في مأزق ولن يخرج منه إلا إذا افتديته بمالي، فجئت أخرج الصندوق من هذا الغار فما استطعت لثقله وضعفي، وفقدت مفتاحه ولست بقادر على فتحه لتفريغ ما فيه على بغلتي، وأخشى إن

تأخرت أن يصيب ولدي مكروه وليس لي في هذه الدنيا غيره..

كان الرجل العجوز يروي قصته ودموعه تنهمر وقد تأثر لقوله الأمين وعامر.. وطمأناه بأنهما سيساعداه وذهب الجميع إلى الغار وكان على بعد خطوات قليلة.. كان مدخله واسعاً وقد بدا في وسطه صندوق قديم ظهرت عليه آثار البلى، فدخل العجوز يمشي ويجر خلفه بغلته، ودلف الأمين إلى الغار وهو فوق التوتان وقال لعامر: انتظر هنا حتى نستجلي الأمر. ووقف عامر على مدخل الغار فوق فرسه، وهبت ريح على غير انتظار أسقطت شجرة قريبة وفي سقوطها وقعت على صخرة تعلو مدخل الغار فأزاحتها لتسد الغار كله. وكان عامر قد حرك فرسه بعيداً حتى لا تسقط عليه الشجرة، ولما عاد بعد استقرارها وجد مدخل الغار قد انسد، فارتاع لذلك ونزل محاولاً أن يجد فتحة لإنقاذ صاحبه ولكنه لم يجد إلا ثقباً صغيراً يمكنه من الحديث معه.

وكان العجوز والأمين داخل الغار، قد راعهما كذلك الأمر وأخذا يبذلان جهداً كبيراً في إيجاد منفذ ولكنهما لم يفلحا..

سأل الأمين عامراً من خلال الثقب..

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم بخير، وكذلك العجوز..

وظل الجميع يبذلون جهداً متواصلاً دون جدوى فأمامهم صخور ضخام وليس معهم من أدوات الحفر شيء، وبعد أن يئسوا من إيجاد منفذ قال العجوز للأمين:

ـ يا بني في آخر الغار طريق يؤدي إلى بلاد الرودام.. وهو مخرجنا الوحيد فهيا بنا نخرج من هنا..

وفرح الأمين عندما سمع قول العجوز وقال لعامر:

ـ يا عامر: العجوز يقول إن الطريق من نهاية الغار تؤدي إلى بلاد الروادام.

ـ أحقاً؟

ـ هذا قول العجوز.

ـ وفرح عامر وقال للأمين: إذن تعجل أنت السير، وسأسرع من هنا ونلتقي هناك، وإن لم نفلح أتيتك بالروادام يزيحون هذا الصخر..

واتفقا على ذلك.. وسار الأمين فوق التوتان في الطريق الذي أرشده إليه العجوز، وسار العجوز خلفه على بغلته، وكان العجوز يتحدث إلى الأمين ثم سكت وطال سكوته، فالتفت الأمين خلفه فلم يجد الرجل العجوز، وعاد مسرعاً يتفقده ولكنه لم يعثر على أثر، وظل يناديه حتى عاد إلى الغار.. ولشد ما كانت دهشته حين لم يجد الصندوق ووجد صمتاً كاملاً يخيم على المكان..

وكان عامر قد أطلق العنان لفرسه فمشى يطوي الأرض في سرعة بالغة، وما هي إلا ساعات حتى أشرف على حصن الروادام، وأبصر الروادام عامراً يأتيهم على فرسه الأشهب في سرعة كبيرة، فتصايحوا يرحبون به، وقبل أن يصل إلى البوابة الكبيرة كان الخبر قد سرى بينهم في سرعة مذهلة.

وعلمت سارنا فطار عقلها من الفرح واندفعت تستقبله.. وفتحوا له البوابة الكبيرة فدلف مسرعاً، واجتاز الممر بين البوابتين فيها ثم توجه إلى سارنا، فحياها وأظهرت له ترحاباً عظيماً وهو يتعجلها ويقول لها: أخي.. أخي..

ـ ما الخبر؟..

ـ أعندكم طريق تحت الأرض تؤدي إلى غار في هذه الناحية؟

ـ لا ندري.. تحت الأرض لا يوجد إلا نفق قديم يصل السجن بخارج المدينة من خلفها هربت منه أسرى البوشال.

وسألت سارنا: ما الخبر؟ ما الذي حدث؟

ـ أخي أغلق عليه غار في هذه الناحية، ومعه رجل عجوز يقول إنه يؤدي إلى هنا.

ـ أي عجوز؟

ـ رجل صادفنا في الطريق ثم طلب أن يتجهز بعض الرجال بأدوات الحفر كي يعودوا معه لإنقاذ صاحبه.. وما هي إلا لحظات حتى كان خمسون من الرودام يتبعونه على خيولهم ومعهم كل أدوات الحفر .. وساروا خلف عامر ينهبون الأرض نهباً .. حتى أوقفهم عامر .. وظل ينظر وهو على ظهر الفرس .. إلى موقع الغار..

ـ نعم هذا هو الطريق..

ـ وهذه هي الشجرات العالية التي وقعت إحداها.

وذلك هو التل الذي كان يواجهه.

وأخذ يمشي الهوينا بفرسه يتفحص المكان .. إنه هو .. لا شك في ذلك وعامر على يقين..

ولكن أين الغار؟ .. وأين الشجرة الكبيرة.. طال بحثه وطال تدقيقه، لم يجد أي أثر لما حدث، لا الغار ولا الشجرة الكبيرة التي سقطت..

وطلب من الرودام أن يبحثوا عن شجرة كبيرة سقطت تسد مدخل الغار .. فانتشروا في المكان يفحصونه شبراً شبراً، ولكنهم نظروا إلى عامر ساهمين وقد قال له بعضهم:

ـ لعلك أخطأت المكان..

ـ كان عامر ساهماً وهو يجيب بصوت خفيض:
ـ كلا .. لم أخطىء المكان هذا هو ..
ـ ولكن أين الشجرة الكبيرة؟..
ـ سكت عامر وظل ساهماً شارد الفكر وهو يردد في نفسه .. كلا لم أخطىء المكان هذا هو ...

ثم حرك فرسه إلى الناحية التي كان هو والأمين قادمين منها، وأخذ يراجع ذاكرته وكلما قرب من النقطة التي توقف عندها.. ردد في نفسه:

«كلا .. لم أخطىء المكان، هذا هو ».

ثم طلب من الرودام أن يعودوا للبحث عن غار انسد بابه.. دون أن تكون عليه شجرة.. ولكنهم بعد بحث طويل ظلوا صامتين .. فلا شجرة ولا غار، وكانت الشمس قد غابت، وبدأ الظلام يرخي سدوله رويداً رويداً.. فقال لهم عامر:

ـ لن أبرح المكان حتى الصباح، ومن شاء منكم العودة فليعد..

ولكن الرودام لزموا أماكنهم وما أحب واحد منهم أن يفارقه، ولكنهم بعثوا لملكتهم بأنهم سوف يبقون حتى الصباح..

وبقي عامر ساهماً، شارداً لم يغمض له جفن طوال الليل وهو يردد في نفسه من حين لآخر .. كلا لم أخطىء المكان هذا هو ..

ومع تحلق الصبح قام يراجع ذاكرته وظل يمشي خطوة خطوة دون أن يجد معلماً كما كان، فيزيده الأمر شروداً، ولحقت به ملكة الرودام يتبعها غالب قومها حتى جاءت إلى جواره وسألته.

ـ هل وجدتموه؟.

ـ كلا .. لم أخطىء المكان، كان الغار الذي سد عليه في هذه

المنطقة وكانت عليه شجرة سقطت فما وجدت الغار وما وجدت الشجرة!.

ـ أمرت الملكة قومها بأن يبدأوا الحفر في المنقطة التي رجح فيها عامر وجود الغار فشرعوا من فورهم في الحفر..

كان عددهم كبيراً وهمتهم عظيمة، وما أن انتصف النهار حتى كانوا قد قلبوا باطن الأرض فما وجدوا بصيصاً من أمل في وجود غار أو طريق تحت الأرض..

وفجأة جاء أحد الروادم من بعيد مسرعاً وهو يقول وجدتها، وجدتها، وهب الجميع يتطلعون إليه واندفع نحوه عامر على فرسه سائلاً إياه:

ـ ما هي؟..

ـ الشجرة..

ـ أين ؟

ـ اتبعني .. وجرى الاثنان إلى حيث كان الأمين وعامر يقتربان نحو مملكة الروادم..

وجاوزا هذا المكان بمسافة كبيرة حتى أشار لعامر ها هي ..

ونظر عامر .. فإذا جذع شجرة قديمة ترقد على جانب الطريق كان قد مر بها هو والأمين.. ووقف فوقها صامتاً لا يتكلم ثم عاد وهو على حاله ساهماً . ويردد في نفسه : كلا لم أخطىء المكان هذا هو .

انتهى النهار ولم يعد هناك في المنطقة شبر لم يقلبوه، وأخيراً قالت سارنا:

ـ أواثق أنت من المكان؟

- أيتها الملكة الكريمة لقد أجهدتكم معي كثيراً.. فارحلوا عائدين حتى يستريح القوم.
- وأنت ؟
- سأبقى هنا .. لم أخطىء المكان..
- وما وراء مقامك وقد قلبت الأرض كلها؟..
- لست أدري، ولكني سأبقى هنا .. كان الأمين معي .. جئنا سوياً من عند دابورا ملك البوشال، جئناك بالسلام الدائم كي تنعموا به مع البوشال طوال العمر .. وكان اقتراح الأمين .. وقد قدم معي .. وهنا في هذا المكان قابلنا العجوز .. وقد خلا الغار وانسد عليهما .. وكنت أحدثه من ثقب صغير أكلمه ويكلمني وقال العجوز بوجود طريق إلى الرودام وتواعدنا على اللقاء عندكم .. أو العودة بمن يزيح الصخرة عن الباب.. والصخرة دفعتها الشجرة والشجرة أسقطتها الريح.. كل هذا حدث ولم أتوهم ولم أخطىء المكان.
- هون عليك الأمر .. وما دام قد ذكر لك بأنه سيأتينا فلا بد أن يكون في طريقه إلينا وقد تكون طريقه طويلة..
- إن أحداثاً غريبة جرت أمام عيني وهي التي تزيد ارتيابي، لقد سقطت الشجرة هنا وكان الكهف هنا .. أين أثرهما؟..
- أو تحسب أن طول انتظارك سيظهرهما؟..
- لا أعرف، ولكن الأمين لا بد أن يكون في مكان ما قريباً من هنا، تحت هذه الأرض..
- ولم لا يكون في طريقه إلينا؟..
- لا أدري .. ما الذي أخفى الشجرة؟
- هيا ننتظره عندنا وإذا لم يأتنا عدنا لمواصلة البحث..

ـ كلا، لن أغادر المكان.. سأظل أبحث عنه غداً، وإذا يئست جئت أنتظره.. فمري قومك بالعودة كي يستريحوا..

ـ بل نبقى معك نشاركك البحث غداً، فإن وجدناه فخير، وإن لم نجده عدنا جميعاً.

بدأ الرودام في صباح اليوم التالي جهودهم في البحث وضاعفوها .. وما زاد عامر على أن كان يقترب من نفس المكان قبل أن يقابل العجوز هو والأمين .. ثم يقف حيث دار حوارهما مع العجوز.. ومضت سحابة النهار وهم على كدهم وجهدهم .. وكانت سارنا تطوف بين قومها تستحثهم على العمل، ثم تعود إلى عامر فتجده على حاله ساهماً شارداً، يتردد حول المكان الذي أشار إليه في بطء وهدوء شديدين.

سألها عامر: أما وجدتم شيئاً؟

ـ كلام، لم نجد .. إلا صندوقاً قديماً..

صاح عامر: تقولين صندوق..

ـ نعم..

ـ أين؟

ـ هناك..

واندفع عامر كالمجنون، وهو على فرسه الأشهب يتبع ملكة الرودام!، حتى وصلا إلى حيث عثر على الصندوق.. ونزل عامر صائحاً.. إنه هو نفس الصندوق الذي كان في الغار كان الصندوق مفتوحاً وخالياً ليس فيه شيء واستطرد عامر: إنه مفتوح !!

ـ لقد أخذوا ما كان فيه .. لا بد أنهم ذهبوا ..

ـ أين وجدتموه؟

ـ فأشار إلى حفرة صغيرة كان الصندوق مطموراً فيها . .

ـ كلا . . لقد كان في الغار . . لقد رأيته في الغار، احفروا هنا . .

وسرعان ما تدفق عدد كبير من الروادام يحفرون حول هذه الحفرة في سرعة يحدوهم الأمل في العثور على الغار . . واستمروا حتى دنت الشمس من المغيب، دون أن تظفر جهدوهم بشيء.

وكان عامر يجلس بجوار الصندوق يفحصه وقد زادت حيرته. . فقد كان الصندوق سليماً غير مكسور فكيف فتح إذاً؟ كان العجوز قد قال إنه فقد المفتاح . . وما الذي أحضر الصندوق إلى هنا وطمره في التراب . . هل يكونا قد أخذا ما فيه وانطلقا إلى الروادام . . غير معقول . . هل خرجا من الغار . . وكيف خرجا؟ فأين هو الغار؟ . .

ولم يزد العثور على الصندوق عامراً إلا حيرة. . وقد رأى القوم قد بذلوا أقصى غاية الجهد، حتى بلغوا اليأس معه فلا جدوى مما يفعلون، قام عامر محطماً وقال للملكة بصوت اليائس:

ـ نعود. وعاد الروادام، ومعهم عامر. وما كانت له قدرة على فراق صاحبه بعد لقائمها. . فما أن وصل حتى لزم فراشه مريضاً شارد الفكر طول وقته لا يشتهي طعاماً أو شراباً. وحزنت سارنا كثيراً للحالة التي آل إليها عامر بفقدان صاحبه، وقد كانا يحملان إليها أسعد الأخبار، أخبار السلام بينها وبين البوشال، وعنّ لها أن تكتب لدابورا ملك البوشال بما كان فبعثت إليه رسالة تنبئه فيها بموافقتها على ما حمله إليها عامر، وإن ذلك قد سرها كثيراً بقدر ما أساءها ما حدث للأمين في الطريق قبل أن يصل إليها، مما جعل عامراً يعجل بطلب المساعدة منها، ولكنها رغم ما بذلته هي وقومها لم توفق في العثور عليه، وطلبت منه في آخر الرسالة أن يمد إليها يد العون أو يسعفها بالرأي،

للبحث عن الأمين المفقود. وما أن وصلت الرسالة دابورا حتى تحرك من فوره ومعه أعداد هائلة من البوشال إلى أن وصل .. وبدت أمام عينيه مملكة الرودام التي تركت في ذاكرته أحداثاً لا تنسى . ها هي الأسوار العالية التي أعيت حيله، وها هي بوابة الموت التي هلك دونها جموع كثيرة .. ووقف دابورا .. خلفه البوشال .. وقد جاؤوا هذه المرة مسالمين، وكان الرودام يقفون كعادتهم فوق الأسوار .. وفتحوا الباب الكبير .. وكان دابورا ما زال واقفاً أمام قومه، وخرجت له سارنا على حصانها تستقبله وتدعوه للدخول.. وكان يتبعها اثنان من الرودام .. ولما دنت منه حيته ورحبت به، وأعربت عن سعادتها بإقرار السلام .. ورد عليها دابورا التحية قبل أن يتبعها هو واثنان من البوشال، وقد أمر بقية قومه أن يبقوا خارج البلدة .. وكان حصانه يمشي على مهل، ولما دنا من البوابة وقف يتفحصها، وقد أخذه العجب، ثم دلف إلى الممر الداخلي وهو ينظر إليه كيف أعد على هذا النحو، وأرض الممر الخشبية التي تغطي خندقاً كبيراً مليء بالماء، وكانت الرغبة كبيرة في معرفة أسرار هذا المدخل الذي ابتلع الكثير من مقاتليه، ومرت أمام مخيلته صورة ما كان .. ولكنه نظر إلى سارنا قائلاً:

ـ ولكن السلام أفضل.

وكانت سارنا قد أدركت ما كان يفكر فيه فقالت:

ـ لعل جهودنا معاً تؤدي إلى خير كثير..

ـ أين عامر؟

ـ يرقد في الفراش..

ومر في طريقه إليه بالرودام، وقد اصطفوا لتحيته وأخذوا ينشدون

بأصواتهم العذبة.. دخل دابورا غرفة عامر، فألفاه يرقد في الفراش عليلاً ساهماً شارد الفكر .. وما زال به يحدثه ويشجعه حتى أعاد إليه الأمل بإمكان العثور على أخيه المفقود، وأمضى البوشال ثلاثة أيام في ضيافة الرودام قدم لهم فيها كل ما يشتهون مما لذ وطاب ومما لا يتوفر لديهم .. ووزعت عليهم الهدايا بمناسبة السلام بين البلدين ، وتمكن عامر من مصاحبه دابورا إلى حيث فقد الأمين في اليوم الرابع، وكانت سارنا تصحبهم وما زالوا سائرين حتى وصلوا يتبعهم البوشال والرودام، وعاود الجميع البحث مرة أخرى ولكنهم باءوا بالفشل في العثور على ما يريدون ، ودارت بين الجميع أحاديث طويلة أيقنوا بعدها بقلة الرجاء مما يفعلون..

وأخيراً عاد البوشال يتقدمهم دابورا آسفاً على ما أصاب الأمين .. ولم تتمكن سارنا من إقناع عامر بالعودة مع الرودام وأصر على المضي للبحث عن صاحبيه، وزودته سارنا بكل ما يحتاج إليه من زاد.. وتفرق الجمع، عاد الرودام إلى طريقهم .. وودعهم عامر ومضى في طريق آخر، آملاً أن يكون فيه ما يدله على صاحبيه..

وسار عامر وكان سيره بطيئاً يكثر التلفت حوله عسى أن يقع نظره على ما يساعده أو يرشده ولم يهتم لحصر الأيام والليالي التي ولت وهو يمضي على غير هدى.

جلس يستريح ذات مرة، ويعد بعض طعامه الذي حواه الزاد فسمع صوتاً يقول له:

ـ أهلاً بعامر.

فانتفض واقفاً ينظر حوله يميناً وشمالاً ، ولكنه لم ير أحداً، وأخذ يقلب كفيه متعجباً، وظن أن هاجساً قد طاف عليه، وأنه الوهم لفرط

استغراقه في التفكير في صاحبيه، ثم انكب على زاده يعاود تحضير طعامه فما لبث أن سمع الصوت مرة أخرى يقول:

ـ مرحباً بك يا عامر..

وظن أنه الهاجس قد طرأ عليه مرة أخرى، ولكنه أدار وجهه بهدوء ينظر حوله دون أن يرى شيئاً واستمر في تحضير الطعام .. ولكنه سمع للمرة الثالثة الصوت يقول:

أحييك يا عامر ولا ترد التحية..

فانتفض واقفاً وصاح من ؟ من الذي يناديني؟

انظر إلي .. أنا هنا .. فوقك !!

ـ ونظر عامر فوقه فأبصر ديكاً فوق الشجرة..

قال عامر: غريب ما أسمع .. أنت الذي تناديني..؟

ـ أحييك وما الغرابة في ذلك..؟

ـ حياك الله . الغرابة أنك تعرفني ولم نلتق من قبل.

ـ الطيور تعلم الكثير ولا غرابة فاسترح لعل السفر أجهدك.

ـ كلا ليس السفر هو الذي أجهدني؟

ـ أعلم وما أحببت أن أثير فيك شجوناً ثم سكت برهة وقال: أوَ حزين أنت؟

ـ نعم.

ـ وفيم الحزن؟

ـ الذي أعلمك به لعله قد أخبرك بدوافع أحزاني.

ـ أو ما تكون قد أخطأت تقديراً وأنت تترك الحزن يستبد بك ولم لا تفرح؟..

ـ أفرح؟ أو في فراق الأحبة والصحاب وفقدانهم ما يفرح؟ والحزن

والفرح شعور يداهمنا لا دخل لنا فيه.
ـ عجباً عامر، أُذناً بغير سمع وقلباً بغير فهم وعيناً بغير رؤية.
ـ كيف؟
ـ تسلم نفسك لسطح الشيء ولا تجهدها لنظر عميق وفهم دقيق، فتغرق في حس من المشاعر تستبد بك، وتلعب بعقلك فيزوغ منك الرشد والإدراك.
ـ هذا لم يكن . . ولكني فقدت صاحبي فأعياني البحث عنه ولهذا حزنت. .
ـ أو ما قلت لك إنك أخطأت التقدير. . ؟
ـ كيف؟
ـ حتى تفهم . . دعني أسالك.
ـ من الذي فرق بينكما؟
ـ كنت مع صاحبي ونزل الغار يبتغي مساعدة العجوز فانسد الغار.
ـ هذا الذي حدث ورأته عيناك ولكن من الذي أسقط الشجرة على صخرة الغار فسدته وحالت بينك وبين صاحبك. . ؟
ـ فكر عامر ملياً وطال تفكيره ثم رد بصوت هادىء.
ـ قدرة الله. .
ـ قدرة الله . . أمعها الحكمة؟
ـ الحكمة كلها. .
ـ فإن كان الفراق فيه الحكمة كلها فعلام حزنك؟.
أطرق عامر يفكر ثم قال:
ـ إنها الوحشة.
ـ دعني أزيدك، إن قيل لك: إن صاحبك ذهب لخير كبير يجنيه

فيزيده من الله تقرباً أكان ذلك يحزنك؟

ـ كلا.

وإن قيل لك إن الله سيجري خيراً على يد صاحبك في أرض نائية أكنت تحول بينه وبين السفر لإتمام هذا الخير؟

ـ كلا ولكني أساعده..

ـ أو كنت تترك نفسك عندئذ يستبد بها الحزن؟

ـ كلا.

ـ ولم؟

ـ لأني علمت سبب الفراق.

ـ وإن كان الله قدر الفراق بينكما ولم يقل لك ولم يطلعك على الغيب!!

ـ فسكت عامر واستغرق في تفكير طويل ثم قال:

ـ أقبل والحمد لله..

ـ أتقبل من الله ونفسك راضية مطمئنة؟ فصمت عامر فاستطرد الديك قائلاً:

اعلم إن حظيت براحة النفس واطمئنان القلب لأمر الله فهذه هي نعمة الإسلام.. ويستوي بعدها ان كان الذي يفرق بينكما حصان يبعد بصاحبك أو غار تسده صخرة.

ـ أثلجت صدري وأزلت عني غمة مظلمة وأزحت عني كابوساً ثقيلاً، لعمري من علمك هذا؟

ـ معلم الديكة..

ـ أو للديكة معلم..؟

ـ نعم..

ـ أين هو . . ؟

ـ إنه لا يظهر إلا للديكة وحدها، نحبه كثيراً ونتعلق به لكثرة ما يفعل من خير . .

ـ أين هو . . ؟

ـ إنه طواف لا تستقر به قدم ولا تمضي لحظة إلا ويفعل فيها خيراً يكاد لسرعة طوفانه أن يكون في كل الأرض، وأحب الأوقات إليه أن يدور مع الفجر فيسبق خيره بدء النهار .

عجيب هذا المعلم، ومن يكون . . ؟

ـ اسمه كوكو جاوزت شهرته الآفاق . .

ـ كوكو؟

ـ نعم هذا الذي تسمعونا نناديه بصوت عال إذا أقبل الفجر كلما رأيناه ناديناه وألححنا في النداء قائلين كوكو كوكو فيمر بنا للسلام ونظل بسلامه في سعادة طول النهار .

. . لقد شوقتني كثيراً لرؤيته وحببتني فيه، كم أود أن يكون لي معلم مثله أحبه وأتعلم الحكمة على يديه .

ـ أوَ ليس لك معلم؟

ـ كلا ليس لي معلم . .

ـ عجبت لأمرك يا عامر . .

لم العجب؟

ـ أترى الشمس تملأ هذه الدنيا نوراً وتغمرها ضياء؟

ـ نعم . .

ـ لقد أصبحت أشك أنك ترى بعينيك ما يغمره الضياء .

ـ ولم؟

ـ لأنك ترجو ما عندي وأنا أغبطك على ما عندك.
ـ ما رجوت منك إلا الخير، أن أتعلم الحكمة على يد معلم مثل كوكو ولست واجداً من يعلمني إياها.
ـ ألا ما أكثر العيون التي لا ترى والآذان التي لا تسمع والقلوب التي لا تعي.
ـ لم؟
ـ تسألني عن كوكو وعندك معلم الدنيا كلها؟
ـ عندي معلم الدنيا .. من؟
ـ محمد نبي الهدى ورسول الرحمة، ولكم فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم والآخرة..
ـ عليه الصلاة والسلام .. أو تعرف أنت محمداً..؟
ـ ليس الغريب أن أعرفه، إنما الغريب ألا تعرفه أنت.
ـ ألا أعرفه أنا؟
ـ فاستطرد الديك، ثم ترضى به بديلاً، وتبحث عمن يعلمك الحكمة ويدلك على الرشد، وليس في هذا الكون من حجر أو شجر أو حيوان ونبات وجن وطير ورياح وسحاب وأنهار وبحار، إلا وتغبط الإنسان على محمد، فما لكم كيف تبصرون..

وقف عامر أمام الديك كالتلميذ الذي ساءه تقصيره أمام أقرانه وغمره حياء جعل عرقه يتصبب من شدة الخجل، ولم يدر ما يقوله ولما رفع رأسه لينظر إلى الديك وجده يمط رقبته ويرقب الأفق البعيد ويتهيأ للصياح فأدرك أن كوكو قريباً فأخذ هو الآخر يتطلع لعله يبصر شيئاً .. ثم صاح الديك كوكو كوكو كوكو وبعد برهة قال لعامر:

ـ استودعك الله يا عامر فإني مشغول، وقال بصوت عال وهو يبتعد من شجرة لأخرى: عليك بفعل المعروف ابتغاء مرضاة الله، واصبر تلق صاحبيك فناداه عامر ولكن الديك كان قد ابتعد واختفى عن الأنظار . .

وترك عامراً يفكر في أمر نفسه ويستصغر شأنها أمام هذا الدرس البليغ الذي علمه له الديك، لم يمض على لقائهما إلا دقائق معدودة، تبدلت فيها نظرة عامر للديكة كلها بعد هذا اللقاء، كان بالأمس يحقر شأنها ولا يحفل بها فأصبح بعد الدرس يستصغر نفسه إلى جوارها ويتمنى صحبتها ويحب حديثها، حتى ليكاد يصيح كوكو كوكو لولا خشية أن يرمى بالمس والجنون وقال في نفسه:

ـ أبلغت بي الغفلة إلى هذا الحد الذي يلفت فيه الديك نظري إلى من يجب أن آخذ عنه الحكمة والهداية والرشد. كيف غاب عني هذا الأمر؟ وإن كان هذا الديك بلغ هذه المنزلة العالية من الفهم والإدراك والفصاحة على يد معلم الديكة كوكو، فأي منزلة يبلغها الإنسان إذا هو أخذها عن الرسول ﷺ؟ لقد فاتني الكثير بإغفالي التعلم وما ينبغي أن تنقضي ساعة من عمري دون استزادة، في تعلم الحكمة وفعل الخير.

ثم مضى عامر وهو يقول في نفسه:

من لي بمن يعلمني هدى الرسول؟ وطال مشيه وانقضت ليالي وأيام لا يلتقي بأحد، ولا تقع عيناه على ما يؤنس وحشته، والأرض أمامه ممتدة بما يغطيها من أعشاب شحب لونها لقلة الماء، وخلت الناحية التي وصلها من الأشجار الوارفة التي كان يستظل بها كلما نزل للراحة، وبدت الأرض أمامه بعد قليل فلاة موحشة لا عهد له باجتيازها.

كانت الأشجار والأعشاب مأوى للعصافير تملأ الدنيا بزقزقتها،

فتدخل عليه بعضاً من الإحساس بالأنس وكانت هذه طبيعة الرحلة التي قطعها حتى هذه اللحظة. . أما الآن فقد اختلفت معالم الأرض ووقف متردداً؛ أيدخل الصحراء ويجازف بقطعها أم يغير طريقه . . .؟

وأخذ يمشي الهوينا بفرسه محاذياً لنهاية العشب وعزمه يتردد بين الإقدام والإحجام، وأرسل بصره إلى الصحراء تظللها سماء صافية وتتهدل عليها شعور الأصيل تنعكس في أعماق النفس إحساساً غريباً لا يعرفه إلا من عاش فيها، انشرحت نفسه لها ثم أقدم على تهيب ودخلها يتأنى في خطوه ويقاربه وينظر حوله وكأن كل شيء على عميق صمته يحدثه ويقول له: يا عامر الزم الهدوء، عليك بالتأمل، عليك بطول التفكر.

وقع بصره على الصخور الصلداء والحصباء المتناثرة هنا وهناك، وحبات الرمل مازجتها صفرة الشمس، فبدت الأرض على اتساعها موشاة بنسيج الذهب، والتلال الممتدة التي ينقطع اتصالها هنا ليعاوده هناك، وكثبان الرمل يرتطم بها قدم فرسه، وظلال الأحجار التي استطالت فخدعت العيون في تقدير حقيقتها. . كل ما وقع عليه بصره على اختلاف ما بينه اتحد في إعطائه هذا المعنى. قال عامر في نفسه: ويحي !! أيكون الصمت بليغاً إلى هذا الحد وكل شيء حولي ساكن هادىء لا يحرك النفس ويثير كوامنها؟ ألا ما أصدق الطبيعة في تعبيرها!! وكم أرى الصحراء صادقة فيما توحيه للنفس، فيبقى أثرها كالنقش الحلو الجميل الذي لا تزيله الأيام والسنون.

وكلما زاد عامر استجابة لما توحيه إليه الطبيعة من حوله كلما زاد صدره انشراحاً ونفسه ارتياحاً ، وانسلت منه الهيبة رويداً رويداً حتى ولت . . وأسرع الخطو كأنه يريد أن ينظر جميع الأرض في وقت

واحد، وما هي الا لحظات حتى كانت الفرس تطوي به الصحراء طي الرياح وملأته نشوة حلوة كأنه يخوض في بحر أمواجه اتصلت بنبع السعادة ومصدر الفرح، وظل على انطلاقه تلاطفه نسمات باردة ينشقها ويعبها في صدره عباً، حتى غابت الشمس وزالت صفرة السحاب وحمرته، وتدثرت الأرض حوله بأغطية الليل، ولمعت نجوم السماء فبدت دراً منثوراً على صفحتها الرحيبة الواسعة، وتعلق بصره بالسماء وأمسى مشدوداً إليها، يحاول النوم للراحة ولكنها سلبته بسحرها مجامع حواسه، وبقي وهو يغالب الكرى مغالبة العناد يفكر في هذه النجوم وكيف تسبح في هذا الفضاء البعيد، وما الفضاء الذي يحويها أين يبدأ وأين ينتهي؟ حتى غلب على أمره أخيراً واستسلم للنوم وراح في سبات عميق، ليستيقظ في الصباح قوياً نشيطاً يواصل سيره وتأملاته فيما حوله.

ومضت سبعة أيام كاملة، والطبيعة حوله واحدة، ولكنها توحي إليه بأحاسيس شتى، ثم هبت عاصفة شديدة تغطي بتراب الأرض شمس الظهيرة، فتحجبها عن العيون، والرمال تحملها الرياح في هبوبها الشديدة فتلسع عامراً في وجهه وأطرافه لسع الإبر وتملأ أنفه وفمه وعينيه وفمه حتى حلقومه رغم غطائه، وأظلمت الدنيا من أمواج الغبار الصاعد مع الرياح الهوج، وما عاد في الجو هواء ينشقه فكل ما في الجو تراب فوقه تراب، واشتدت وطأة الريح عليه اشتداداً عظيماً فكور عامر نفسه يقي بعض جسمه ببعض، ويختلس شم الهواء اختلاساً من تحت الغطاء، وكانت اللحظة تمر به في هذا الجو كأنها دهر، من كثرة ما يعاني، وأمضى باقي يومه وغالب ليله يحتال بأطراف ثيابه وغطائه على دفع الأذى عن نفسه، فيفلح أحياناً ويخفق أخرى، وأمسى متحيراً

بين الاختناق تحت غطائه أو معاناة التراب والريح ولسع الرمال، وما كانت له قدرة على اختيار؛ إذ بقي بين الحالين متردداً حتى هدأت الريح ثم سكنت مع الفجر، وقام ينفض التراب عن ثوبه وغطائه ، ويمسح وجهه وعينيه بيديه وينثر التراب الذي دخل أنفه، وبينما هو بنفسه مشغول يزيح التراب قدر استطاعته تذكر فرسه فجأة ودار سريعاً يبحث حوله ولكنه لم يلحظها، وعجل بالصعود فوق مرتفع صغير، ولكنها كانت قد اختفت تماماً، ولم يظهر لها على الأرض آثاراً، كما لم يتذكر عامر متى ترك مقودها من يده، وكانت الصدمة عليه شديدة ولا حيلة له وحده وسط الفلاة، وبعد هذه العاصفة الهوجاء، كان جل همه أن يعجل بالخروج من هذه الصحراء خشية عاصفة أخرى، واستمر سائراً على قدميه في نفس اتجاهه الأول لا زاد يحمله ولا ماء يشربه ولكنه أمام فقدانه الظهر والماء والزاد، شدد العزم على التحمل والمضي، ما أكثر ما تردد في اختيار الدروب، وما أكثر ما أمل نفسه أن يجد معلماً لحياة بعد كل مرتفع يرقاه، وهو يقول في نفسه بعد هذا، وعندما يعلوه لا يرى إلا امتداداً لصحراء بتلالها ووديانها، وبدأ العطش يلح عليه بعد كل خطوة يخطوها، وهو يصرف انتباهه بعيداً للنجاة بنفسه، وتثاقلت قدماه ثم ما لبث أن جرهما جراً راجياً أن يمكناه من أعلى التل الذي يراه أمامه، وعند سفحه سقط ولم تسعفه قدماه على حمله وأخذ ينشب أصابعه في الحصباء والصخور، ويدفع نفسه دفعاً، وبدت قمة التل أمام عينيه كأنها جاوزت السحاب، وهبط الضعف بقواه فأخذ كلما قدر على استجماع بعض قوته يدفع نفسه ذراعاً أو بعض ذراع، ثم ما لبث الذراع أن صار قدماً أو على قدم، ثم صار الشبر عنده يدنيه على قمة التل أملاً يرجوه، كلما جدت له قوة أو

طاف به بعض عزم، حتى وصل ثم رفع رأسه لينظر ما وراءه فما لبث المسكين أن ذهب في غيبوبة طويلة وسقط رأسه على الحصى والرمال.

كانت الغيبوبة التي أصابته رحمة من الله فقد تبعها نوم عميق كان في أمس الحاجة إليه، وأخذ جسمه قسطاً من الراحة وافراً على شديد عطشه وبالغ جوعه، وما كان يرجو إلا جرعة من ماء يبلل بها فمه وشفتيه، ولما أفاق كان الهدوء قد عم جسمه وأعضاءه بعد رجفة لزمتها، وتوتراً سيطر عليها وكالأمل المشرق كانت مشارف قرية قد لاحت أمام عينيه، شعر لرؤيتها بالرجاء الذي بذل دونه جهداً ما تخيل أن له قدرة على بذله، وفي مغالبة الموت عند اليائس تقف قواه عن العمل عندما تلوح أول بادرة لظهور الأمل، وهذا الذي حدث لعامر ثم ظل يرقب القرية من أعلى التل الذي رقيه، وقد غمره فرح أمده ببعض قوة أنهضته على قدميه وسهل عليه أن ينحدر مع التل نحو الوادي الممتد أمامه، والذي تنتهي بنهايته الصحراء وتبدأ الأرض في التغير، حيث تناثرت شجيرات خضراء توحي بالحياة، وهناك في نهاية الوادي تبدأ القرية، كل ما بدا له منها بيوت تناثرت بغير نظام، وكلما دنا زاد وضوحها فبدا أن أهلها بسطاء حيث إنهم صنعوا بيوتهم من أفرع الأشجار وغطوها بالأعشاب، وما زال عامر يجر رجليه حتى دخلها، وحمل نفسه حملاً للوصول إلى أول بيت يليه، وكان أشبه ما يكون بعشة لها مدخل لا يسده باب، وبجواره على الأرض جلس عامر مسنداً ظهره إلى جدارها، وأخذ ينادي صاحب البيت حتى يخرج له.. وطال نداؤه ولم يخرج له أحد .. ثم أطل برأسه داخل البيت فلم ير أحداً ولكنه لحظ أن البيت غير مسكون، فليس فيه متاع، وأرضه

وجدرانه من الداخل خربة، قد ملأها العنكبوت بنسيجه ولم يتبين عامر أن القرية كلها قد هجرها أهلها من زمن إلا بعد أن أنبأته بيوتها الخاوية التي طال عليها الهجر، ودله البلى الذي نحر جدرانها وهدم سقوفها على خفتها، كانت خيبة أمل تلك التي صادفته هناك، ولكن هذه القرية القديمة الخاوية أثر قد يدله على أخرى عامرة يجد فيها ما يحفظ له حياته ويدفع عنه هلاكاً يلاحقه، وأخذ يتلفت حوله فلا يرى ما يؤنس ولا يسمع إلا صفيراً للريح تمر داخل تلك الدور، من حين إلى حين، وحار المسكين وحق للغريب التائه أن يحار، وبخاصة عندما يكون معدوم الزاد والماء يسيطر عليه الخيبة والفشل، وافترش الأرض، وما درى إن كان الجدار الذي بجانبه هو الذي يسنده أم هو الذي يسند الجدار، وأخذت عيناه الغائرتان تنتقلان من شيء إلى شيء .. وكان يحاول من لحظة إلى أخرى استجماع قواه علها ترشده لطريقة تنقذه من هلاك يتراقص أمام خياله، وعادت به ذاكرته سريعاً إلى الأمين فوق توتانه ينقذه في اللحظة الأخيرة، ثم استرجع الأحداث التي مرت به بعد ذلك حدثاً حدثاً.. وما زال ينتقل بذاكرته مع رحلته القاسية حتى أسلم نفسه للأرض في مكانه، ثم نهض بجسمه فجأة وأخذ ينظر بعيداً فقد تذكر أنه كان منشغلاً بالتفكير فيما مضى عليه من أحداث ، بينما كان حمار محمل بالحطب يمر أمامه، وقد أتى من الناحية اليسرى واستمر حتى غاب عن نظره تماماً، ولم يفطن إلا بعد أن انتهى في متابعته للأحداث إلى آخر شيء رآه، وقد أسف لأنه لم يفطن للأمر إلا بعد فوات الأوان، ولكن داخله قدر من الاطمئنان حيث أيقن أن حياة لقوم لا بد أن تكون قريبة، وأن حطاباً لا بد أن يكون في ناحية ما، يحمل الحمار ويتركه وحده يروح ويغدو، وهذه عادة أهل الريف

والقرى في نقل أحمالهم ومتاعهم ، ولا بد لهذا الحطاب أن يعود من نفس الطريق قبيل الغروب، حتى يصل إلى قريته، ثم ما لبث أن ظهر أمامه حمار ثان محمل بالحطب، يتابع الطريق الذي سلكه الحمار الأول، وكأن جهداً في هذه اللحظة لم ينل من عامر شيئاً، ودفعه حب الحياة إلى استجماع قوته والنهوض، فالجري خلف الحمار ثم ركوبه فوق الحطب واستمر الحمار في طريقه يكابد وطأة الثقل فقلت سرعته ولكنه ظل سائراً حتى دخل القرية.

وقف الفران أمام فرنه ينظر إلى هذا المتطفل الذي ركب حماره المحمل فأنهكه، وقد زاد غضبه إصرار هذا الراكب على البقاء فوق الحمار على نحو لم يألفه من قبل، وأعمته شدة الغضب عن تبين حالة القادم، ولم يكن يهمه ولا يعنيه إلا نفسه، فما أن وقف الحمار أمامه حتى انهال الفران على هذا المتطفل ضرباً بعود تناولها من حمل الحطب، وعامر غير عابىء بما ناله حيث اندفع إلى جرة كبيرة مكسورة بها ماء متسخ وضعت بجوار مدخل الفرن اعتاد الفران أن يغمس فيها بعض أدواته التي يستعملها، وأخذ يكرع منها الماء كرعاً والفران يرميه بألفاظ السباب والشتائم البذيئة، بينما كان يأخذ حمل الحطب ويرتبه في كومة قريبة من المدخل.

وبينما هم بدخول ساحة الفرن لمواصلة عمله لم يفته أن يركله بقدمه، وفم المسكين تجرع ماءه الآسن وقد شغلته دنياه التي وجدها بعد طول غياب، ثم استسلم بعد الري لنوم عميق ولم يكن قد أحس بما فعله الفران، وكان خيراً له ألا يحس وهو على حاله التي كان عليها. وطال نومه حتى أخذ باقي النهار والليل كله، وما أيقظه إلا رائحة الخبز تملأ أنفه، وتسري في رئتيه تثير جوع معدته، وما زال

التردد يحول بينه وبين طلب رغيف يسكن به إلحاح الجوع، ولكن الجوع لن يسكنه التردد إنما يسكنه رغيف من هذه الأرغفة الساخنة الشهية، والتي يلمحها تخرج من الفرن وتوضع على الألواح مرصوصة ولكن كيف يطلب خبزاً، دون ثمن ولم يفعل ذلك في حياته.

ولج الباب ثم سلم على الفران.

ـ نظر إليه الفران نظرة يتفحصه بها قبل أن يرد عليه السلام بطرف لسانه، وكان غضب الأمس قد ولى..

ـ أتبيعني رغيفاً؟

ـ فتناول الفران رغيفاً وأعطاه له.

وأمسك عامر الرغيف واحتار كيف يسترد ثمنه ولكنه سأل الفران..

ـ كم ثمنه؟

ـ درهم...

ـ سكت عامر وتظاهر بالبحث عن الدرهم في ثيابه وهو على يقين بأنها لا تحوي دراهم، وبعد طول البحث قال:

ـ لم أجد الدرهم.

فمد الفران يده بسرعة وخطف الرغيف وأعاده مكانه وهو يقول:

ـ عندما تأتي بالدرهم نعطيك الرغيف.

وساء عامراً خلق الرجل وسوء مقابلته لغريب يفد على قريتهم لا يطلب خبزاً إلا لضرورة وهم بالخروج، ولكن بطنه شدته ناحية الخبز وتثاقلت قدماه فالتفت للرجل وقال:

ـ ألا تعطيني الرغيف وتمهلني وأنا أسدد لك الدرهم؟

فنظر إليه الفران وقال وهو يواصل عمله:

ـ الدرهم أولاً..

خرج عامر وابتعد عدة خطوات لا يدري ماذا يفعل؟ ومن أين يأتي بدرهم وهو خاوي الوفاض، ثم وجد نفسه مرة أخرى يقف بباب الفران قائلاً:

ـ أعمل عندك بدرهم مقابل الرغيف.

ـ تأتيني بعشرة أحمال من الحطب...

ـ عشرة أحمال من الحطب مقابل الرغيف؟؟..

ـ فإذا أتيتني بها أعطيك الرغيف...

ودخل عليهما هذه اللحظة الحطاب وحياهما، وردا التحية ثم قال للفران:

ـ إني مسافر اليوم ولن أستطيع إحضار الحطب لك..

ـ كيف؟

ـ لقد أجهدت نفسي كثيراً في هذه القرية؟ وأفضل الرحيل عسى الله أن يوسع لي في الرزق..

ـ ولكن من يأتيني بالحطب؟ وكيف أعمل؟

ـ هذا شأنك وجئت أخبرك كي تدبر أمرك، ثم سلم وخرج.

قال الفران لعامر:

ـ اذهب أنت وأحضر الحطب...

ـ كلا، لا أريد عملاً..

ـ أزيدك في الأجر...

ـ كلا، اكتفيت بما كان ولا حاجة لي بعمل...

ـ خمسة دراهم في الأحمال...

قال عامر وهو يبتعد: شكراً...

وصاح الفران خلفه:

ـ درهم لكل حمل. . .

فأشار عامر بيده رافضاً وهو يقول: شكراً. . . .

وجلس الفران أمامه مهموماً لا يدري ماذا يفعل، ولم يجد من يحضر له حطباً، وكان من العسير عليه أن يوزع جهده بين جمع الحطب وبين تهيئة الخبز وكلاهما يحتاج جهداً كبيراً. ولم تمض عليه بعد ذلك بضعة أيام حتى عجز عن مواصلة عمله وأغلق الفرن الذي استمر يعمل سنوات طوالاً. . .

عندما انصرف عامراً مبتعد عن الفرن والفران ألفى نفسه يقف أمام دكان لنساج في نهاية القرية من الناحية الأخرى. ولم يدر ما الذي أوقفه وجعله يبتدر صاحبه بالسلام، وسمع صاحبه يرد عليه السلام رداً طيباً وهو ينظر إلى وجهه ويدعوه للدخول ، وقام الرجل يفرش حصيراً كانت مطوية في ركن قريب، وتردد عامر ثم دخل على مهل، والرجل يلح عليه في الجلوس، وما أن جلس حتى جاءه الرجل بإبريق به ماء وطشت، وأشار له بأن يغسل وجهه وأخذ الرجل يصب الماء على رأس عامر، وعامر يفرك التراب الذي تلبد به شعره، وبينما كان يجفف رأسه ووجهه بمنشفة ناولها له النساج كان الرجل يحضر له طاسة مملوءة بشراب الليمون شرب منها حتى اكتفى، وقد لحظ الرجل أن عامراً يضع في خنصره خاتماً ثميناً فأدرك أنه غريب من كرام الناس، لا بد أن يكون الطريق قد انقطع به، ولم يسأله عن شيء حتى لا يضايقه، ولكنه اكتفى بعبارات الترحاب يهديها لضيفه من حين إلى حين، وقد انصرف عنه ليتم ثوباً كان ينسج خيوطه الأخيرة عندما دخل عليه ضيفه. .

وجلس عامر على الحصير صامتاً يتأمل الرجل وقد عجب جداً لحسن

خلقه، وأخذ يقلب النظر في المكان فإذا به دكان بسيط تجمع في ركن من أركانه خيوط كثيرة مختلفة الألوان،وفي ركن آخر وضع الرجل الأثواب التي انتهى من نسجها بعضها فوق بعض، وفي وسط الدكان نصب النول عمده من خشب سميك، وقد أعجب عامر بسرعة الرجل في تحريك زورق الخيط من جانب لآخر بينما يدك النسيج دكاً قوياً بمشط معلق يتذبذب في يديه جيئة وذهاباً، وهو يحرك سدى الخيوط على التوالي برجليه إلى أعلى وإلى أسفل، و(نول) الرجل على بساطته زود عامراً بمتعة غريبة، وهو يرقب سرعة الحركة التي تحال لفورها ثوباً تداخلت ألوانه في رسم بديع.. وانتهى الرجل وأخذ يفك الثوب ويطويه بينما دخلت زوجته من الباب تحمل الطعام فوق رأسها وإبريقاً في يدها، وسلمت ، ثم وضعت الطعام على الحصير أمام الضيف، وهي ترحب به، وتركت الإبريق بجواره ودعت زوجها لطعامه ثم انصرفت، وأقبل الرجل يدعو ضيفه للأكل ويشاركه إياه، وتناول عامر الطعام وخيل إليه لفرط جوعه وحسن خلق الرجل وضيافته أن هذه الوجبة هي أشهى ما تناوله في حياته،وملأ النساج له كوباً من اللبن الساخن الذي حواه الإبريق وسرى الدفء في جسمه ، كل ذلك وهو يتأمل في صمت ولا يدري ما يقوله.

قال النساج: اليوم يوم السوق وقد اعتدت كل أسبوع أن أحمل الأثواب التي نسجتها لأبيعها هناك، ثم دعا عامراً لمصاحبته فوافق عامر، وما هي إلا ساعة حتى كان الاثنان على حماريهما وقد حملا الأثواب معهما، وسارا متجهين إلى السوق في البلدة الكبيرة المجاورة ، لم يطل بهما الطريق حتى دخلا البلدة، وقد لحظ عامر أن كثيراً من الناس يتجهون إلى السوق وهم يحملون بضاعتهم، كانت ساحة السوق

كبيرة والخلق كثيرون وقد ارتفعت أصواتهم للمناداة على بضائعهم وكثرت مجادلات البيع والشراء، وزاد ازدحام الناس فيهم الكبير والصغير والرجال والنساء، وكان اليوم يوم الثلاثاء، ويطرح في هذا السوق كل ما تريد شراءه من ألبسة وأغطية وبيوت الشعر إلى المأكولات بأنواعها والأبقار والأغنام والجمال وبضائع الجلود، وما من شيء يريد أهل هذه القرى الحصول عليه إلا ويجدونه في هذا السوق الكبير.

وصل النساج يصحبه عامر إلى حيث تعرض الأثواب المنسوجة وما هي إلا ساعة حتى باع الرجل ما حمل وكان ربحه في هذا اليوم طيباً، واستبشر بضيفه خيراً . . وكان كل مرة يأتي فيها إلى السوق يظل حتى آخر النهار حتى ينتهي من بيعها عنده، وقد يعود في بعض الأيام ومعه بعض من هذه الأثواب لم يبعها، أما اليوم فقد أنهى بيعه في ساعة أو بعضها كما زاد ربحه عما كان يأخذه عادة. . .

أحب عامر أن يتجول في هذا السوق الذي لم يشهد له مثيلاً من قبل، وقاده طريقه إلى سوق الحبوب. شاهد رجلاً يبيع الحنطة لامرأة عجوز ويكيلها بقدح دس في جوفها قطعة من الخشب ثبتت كي توفر له بعضاً من القمح، فلما نهاه عامر دفعه الرجل في صدره براحة يده ورفع عليه القدح يريد أن يضرب رأسه بها وهو يسبه ويلعنه . . ابتعد عامر وقد آلمه فعل الرجل معه، وقال في نفسه ما قلت له إلا ما يفيده، فكيف يقابلني بهذه الإساءة البالغة؟ استوقفه رجل رآه من قبل كان قد اشترى الثياب من النساج وهو يعرضها بدوره للبيع على رجلين آخرين وهو يقسم لهما الأيمان الغلاظ بأنه استغرق شهرين في صناعتها، ولا يوجد في السوق مثلها حيث لا يستطيع صناعتها

سواه.. فلما نهاه عامر عن الحلف الكذب لطمه الرجل على وجهه وأسمعه من السباب ما لم تسمعه أذناه من قبل...

وإلى هنا لم يتمكن من مواصلة تجواله، وآثر الخروج من زحمة السوق وابتعد عنه وجلس على ربوة مرتفعة تطل على مدخل السوق وحماره بجواره وظل ينتظر عودة النساج.

وأمام عينيه كان جمع من الناس كبير جاؤوا لقضاء منافعهم.. وهم يستعينون على ذلك بالغش والكذب والحلف الباطل، وكان عامر قد ساءه كثيراً خلق البائعين. أو يكون كل من في السوق على شاكلتهما؟ لقد جاء النساج معه وخبره في دكانه وفي بيعه فما رأى منه بادرة شر.. وقال في نفسه كيف يقابلني هذان الرجلان على هذا النحو المهين؟ وما أمرتهما بشر، ودارت في رأس عامر فكرة، وعندئذ كان النساج قد وصله وقد ابتاع بعض حوائجه فسأله:

ـ أليست عندكم سوق للسيوف؟

ـ بلى..

ـ دلني عليها.

فأشار له النساج إلى نهاية السوق من ناحية اليمين وقال له:

ـ إنها تلي سوق الأبقار والجمال والخيول.

ـ وسأل عامر: أين سوق الحلي؟ فأشار له ناحية أخرى.

نزل عامر مسرعاً إلى سوق الحلي وعرض الخاتم الذي أهدته له سارنا ملكة الرودام، فأخذ تجار الحلي يتبادلون فحصه الواحد بعد الآخر فسأله أحدهم كم تبيعه؟

ـ لا أعرضه للبيع.

قال آخر: وعلام عرضه علينا؟...

ـ جئت أرهنه. . .

سأل ثالث: كم تحتاج؟

ـ نصف ثمنه. .

سأل رابع : وكم اشتريته؟

ـ هو هدية ملوك، وما اشتريته. . .

قال أحدهم:

ـ وإن كنت لا تعرف ثمنه فماذا تطلب؟

قال آخر: نعطيك عشرة دنانير. . .

ـ إن هذا الخاتم يزيد ثمنه على الألف دينار. . .

فوجم الجميع ونظر بعضهم إلى بعض، وأومأ أحدهم تصديقاً لتقديره، واستطرد عامر وإني أرهنه بخمسمائة دينار لمدة شهرين فإن جئتكم بها استرددته وإن لم آتكم بها فالخاتم لكم، وأخذوا يتداولون ويتجادلون حتى جمعوا له أخيراً ثلاثمائة دينار حتى رضي بها لحاجته ثم سلمهم الخاتم، وأخذ المبلغ واستكتبهم بهذا، ثم انصرف إلى سوق السيوف وظل يتجول فيها ويفحصها حتى انتقى أحسنها وتمنطق بحزام يحمله ويحمل خنجراً، حتى بدا على هيئة يوم أن كان يحارب البوشال، وتوجه من فوره إلى الرجل الذي كان يبيع الحبوب، وفي طريقه إليه وقف مشدوهاً حيث وجد فرسه الأشهب يعرض للبيع كما هو بما حمل، واشتبك عامر مع البائع وأمسك بتلابيبه وقال له:

ـ أهذه فرسك حتى تعرضها للبيع؟

فصاح الرجل فرسي. . .

ـ إنها مسروقة . . .

وهاج الناس، وأصر عامر، وأصر الرجل وانتهى الأمر بالجميع إلى

حاكم البلدة.. وعنده وقف عامر والرجل ممسك بفرس لا تستقر قدمها ومعه ثلة من الرجال خلفه.

سال حاكم البلدة: ما خطبكم؟

قال الرجل: هذه فرسي جئت إلى السوق أبيعها فاشتبك معي هذا ـ وأشار إلى عامر ـ ومنعني بيعها.

سأل الحاكم عامراً:

ـ ما قصتك؟

ـ هذه فرسي فقدتها ووجدت هذا الرجل يعرضها في السوق للبيع ...

قال البائع : هذه فرسي وهي معي منذ سنتين ...

قال عامر : هذه فرسي...

قال الرجل: أيها الحاكم هؤلاء شهود من أهل البلدة...

وتقدم أربعة من الرجال إلى الحاكم كل منهم يقسم اليمين على أنها فرس صاحبهم...

قال الحاكم: لقد أقاموا عليك الدليل بالشهود .. فما عندك؟

ـ أيها الحاكم إنهم يكذبون وأقدم لك الآن ما يفضحهم ويفضح كذبهم...

ـ هات....

ـ سله أيها الحالكم عن محتويات السرج، ووصف السيف الذي حواه الغمد والمخلاتين.

فسأله الحاكم واضطربت أقوال الرجل وأعطى أوصافاً بعيدة عن الحقيقة؟ وسأله عامر عن أوصاف السيف فما كان وصفه للسيف إلا تأكيداً لكذبه...

قال عامر: أيها الحاكم إن اسمي عامر ومكتوب على نصل السيف قرب مقبضه من الناحبة اليمنى : «هدية ملكة الرودام إلى عامر». وجاؤوا بالسيف فإذا العبارة منقوشة كما دلهم عامر وزادهم: إن عباءة لونها داكن في المخلاة اليسرى فأخرجوها من المخلاة اليسرى، وقال عامر:

ـ إنها صنعت لي وحجمها صغير وقام يلبسها فإذا هي تناسبه تماماً، وزادهم بأن طرف ذيلها الأيمن نقشت عليه نفس العبارة ورفع الذيل وأراهم العبارة بيديه دون أن ينظر هو إليها إمعاناً في البرهان فوجدوها مطرزة بالخيوط في نفس المكان، واستطرد عامر قائلاً:

ـ ثم إن هذا الرجل يدعي أن هذه فرسه منذ سنتين فمره أن يقف في أقصى الساحة من هنا، وسأقف في أقصى الساحة من الناحية الأخرى، وليناد الفرس باسمها أو بما شاء، وسأناديها باسمها فإن ذهبت إليه فهي فرسه، وإن جاءتني فهي فرسي ففعلوا ذلك وظل الرجل ينادي: يا فرسي.. يا هو .. (زر) (شرو).. والفرس واقفة لا تتحرك، ولما أمر الحاكم أن يناديها عامر واجهها وصاح بصوت داو: (نورا)، فاندفعت نحوه في سرعة البرق فأعادها ثم كرر النداء فجاءته كالمرة الأولى ...

قال الحاكم: لعمري البراهين، ثم استطرد الحاكم قائلاً:

ـ ولكنك رجل غريب وهؤلاء أهل البلدة؟ ولعلك قد فقدت هذه الفرس وعثروا هم عليها فتكون لهم.

ـ لم أفهم؟ إذا ضاعت فرس وعثر عليها الغير تصبح له.

ـ عليك أن تعرف أن خذلان أهل البلدة عندنا أمر صعب علينا وعلى الجميع.

أتخذل الحق الواضح أم باطل هؤلاء؟

ـ وهنا دخل تجار الحلي وكانوا قد سمعوا بما دار وتقدموا للحاكم وشرحوا له ما كان بينهم وبين عامر وقالوا هذا الخاتم لنا وقد قبض ثمنه، وما نفرق بين البيع والرهن. .

قال الحاكم لعامر: ماذا تقول في هؤلاء؟

ـ أودعت عندهم هذا الخاتم لشهرين حتى أرد لهم مالهم فإن تأخرت فهو لهم.

ـ ولكن قولهم معقول. . .

وعندئذ أدرك عامر ألا فائدة من حديث أو برهان ولا ضرورة لإقامة الحجة فقال للحاكم:

ـ أيها الحاكم انتظرني ساعة وأنا آتيك بالبرهان الناصع. . .

ـ ننتظرك. وجلس الجميع حول الحاكم ينتظرون عامراً الذي مد يده في مخلاة الفرس، وأخرج عباءته وخرج متجهاً إلى السوق وأعاد السيف والخنجر الذي اشتراهما واسترد الثمن وأعطى للرجل العباءة فرق البيع والشراء واستكمل الثلاثمائة دينار وعاد للحاكم الذي قال له: أين البرهان الجديد؟

قال عامر: في الخاتم. . .

فجاؤوا بالخاتم، فأراه عامر إن اسم سارنا مكة الرودام قد نقش بداخله وقال له:

ـ أيها الحاكم إن هدايا الملوك لا تباع ولولا حاجتي لما أقدمت على رهنة بأقل من ثلث ثمنه . . .

ـ ولكن أين البرهان الناصع، فإن حجتهم حجة وحجة صاحب الفرس أقوى لأنهم أهل البلد!. .

ـ إن المبلغ الذي سلموني إياه ليس كاملاً . .

فنهضوا وصاحوا في صوت واحد بل كامل. . .

ـ إذن نعده. .

فأخذوا يعدونه فوجدوا المبلغ كاملاً فصاحوا في صوت واحد:

ـ المبلغ كامل . .

ـ أيها الحاكم البرهان الناصع هو أن المبلغ كان كاملاً في يد هذا الرجل وأعطاه لتاجر الحلي الذي تسلم منه المبلغ . . وكان الخاتم في إصبعي هكذا وتناول الخاتم بهدوء من يد الحاكم ووضعه في إصبعه ثم دار وصاح: (نورا) . . وجاءته الفرس مندفعة وفي لمح البرق كان يمتطي ظهرها وسل السيف ثم قال:

ـ لستم بأقوى من البوشال ولا بأغلظ من كودر ولا بأعتى من دابورا . . من كانت له حاجة عندي فليقم ويطالب بها. .

وجم الجميع أمام الغريب الذي كان وديعاً غاية في الوداعة منذ دقائق، ثم ظهر فجأة أنه فارس مقاتل يوجه إليهم التهديد والوعيد، بكلمات قليلة ولهجة تحمل التأكيد والقدرة على مواجهتهم ولو كان وحده. . .

توجه إليه أحدهم متحدياً، ويبدو أنه كان طالباً لشهرة أمام أهل البلدة في مناسبة تجعله على ألسنة مدحهم طوال العمر، وشهر سيفاً كان معه وكان الوحيد الذي يحمل بين الجميع سيفاً وتقدم نحو عامر الذي دنا منه بهدوء، ونظره على الجالسين والواقفين جميعاً ثم مال نحوه فجأة دون أن ينزل من فرسه وأطاح بسيفه بعيداً وأطار عمامته من فوق رأسه في سرعة خاطفة، فجرى الرجل عائداً إلى مكانه يتبعه عامر وهو يضربه بجانب نصل السيف إمعاناً في تحقيره وإظهاراً لهم لاستهتاره بهم مجتمعين. . .

وقد أثار هذا الفعل ضحكات البعض وخوف البعض الآخر . . بينما انسل الرجل الذي كان يدعي امتلاك الفرس من بين الواقفين ليقف خلفهم، وكذلك فعل تجار الحلي.

ولما لم يقف منهم أحد، ولم يسمع منهم من يعارض مواجهته لهم على هذا النحو، أدار وجه فرسه وتوجه به خارجاً في هدوء وبطء، وترك أهل البلدة الذين اجتمعوا عند حاكمها على حالهم من الوجوم وهم ينظرون بعضهم إلى بعض وحاكمهم بينهم كأنه أضعف منهم حيلة. . .

كان النساج على الربوة المرتفعة التي تشرف على السوق، ينتظر عامراً ومعه الحماران وقد دهش حينما رآه أمامه على الفرس الأشهب يحييه. فرد التحية وهنأه بشرائه. .

قال عامر: لم أشترها ولكنها كانت لي فقدتها في سفري وقد وجدتها في السوق تعرض للبيع فاسترددتها. .

ـ استرددتها؟ أفي هذه البلدة يسترد المفقود؟. .

ـ نعم يا صاحبي هناك طيور لا يؤكل لحمها. .

ـ فابتسم النساج وهو يركب حماره، وقد ربط إليه مقود الحمار الآخر ووكزها متوجهاً إلى بيته وهو يقول لعامر:

لقد منّ الله عليك اليوم بالفرس، ومنّ علي بالراحة من البيع والربح فالحمد لله. . .

ووجد عامر نفسه يعود مع النساج إلى بيته وقد أفادته زيارة السوق في معرفة أهلها، ومعرفة أخلاقهم التي يتعاملون بها فيما بينهم، وقد وجد أن هذا النساج بينهم غريب في خلقه فما أحب أن يترك البلدة ـ على كرهه لأهلها ـ قبل أن يسدي لهذا النساج معروفاً يقابل حسن

استضافته، كانا قد أمضيا في السوق سحابة النهار ولما عادا قدمت لهما امرأة النساج الطعام فطعما وحمدا الله، والرجل لا يسأل كثيراً عن عامر من أين جاء وإلى أين يذهب وكيف استرد فرسه في بلد لا تسترد فيه مفقودات؟ ولكنه كان منشغلاً في صمت يهيىء ما يريح ضيفه في داره الصغيرة، أعد له ما تيسر عنده من فراش بسيط حصير غطيت بفرو الغنم اعتنى الرجل بنظافته ، ثم وضع بجانبه عباءة كبيرة الحجم ثقيلة النسيج كي يستعملها في غطائه وقال لعامر:

ـ إذا أحببت النوم فهاك فراشك أرجو أن يريحك. . .

ـ وسع الله لك في الرزق وبارك لك في دارك وما بي الآن حاجة للنوم، فقد حيرتني أخلاق هذه البلدة وما حيرتي من حاكمهم بأقل من حيرتي منهم.

ـ يا بني : إن لي في هذه البلدة أربعين سنة أصابني عند قدومي ما صادفك عند قدومك، وانتهى بي الأمر كما ترى، إني أصادق هذا النول طوال وقتي ولا أختلط بهم إلا في السوق، وكما رأيتني لا ألح في جدل عند بيع أو شراء فإذا أعجبني ثمن ما أعرض رضيت وإلا سكت، .وإذا اشتريت فكذلك أفعل. . . والناس إذا هم ذهبت أخلاقهم فما لهم بعد ذهابها على سائر الحيوانات فضل.

ـ أو هكذا يرضى الناس لأنفسهم؟

ـ الناس إذا ضلوا يا بني تعمى أبصارهم فلا يرون ما هم فيه وإن كان واضحاً . فيستحسنون القبيح ويستقبحون الحسن. .

ـ وحاكمهم !! أو ما ينبغي أن يقوم اعوجاجهم ويرشدهم ويردهم إلى الطريق السوي فما باله لا يفعل هذا ويلين جانبه لباطلهم. . . ؟

ـ يا بني : أما علمت أنه كيفما تكونوا يول عليكم؟ وكيف يقيم

شأنهم وهو في حاجة إلى تقويم نفسه يا بني؟
هو يستميلهم بلين جانبه إلى ما يطلبونه، ولو كان باطلاً أو ضلالاً ويظن بذلك أنه يحكمهم وهم بذلك يحكِّمونه ويسيِّرونه.
- ولكن للضعفاء حقوقاً تضيعها هذه الأخلاق، فقد شاهدت رجلاً يبيع حنطة لامرأة عجوز، وقد دس قطعة من الخشب داخل الكيل يحرمها بعضاً من حقها والمسكينة لا تدري!!
- يا بني : دلني على الأرض التي فيها ضعفاء لا تضيع حقوقهم؟ لو كان الأمر فيما رأيت لهان، وما فائدة أن أعدد لك ما يدور ويحدث بينهم. يكفي أن تعلم أن الناس في ضلال إذا جاءهم من يرشد فهو ضعيف لا يقوى عليهم، وإذا جاءهم القوي فهو ضال مثلهم، والموعظة الحسنة وحدها لا تكفي في إصلاح الناس، وقد تكون موعظة العصا أشد تأثيراً وأبلغ بياناً.
- حقاً ما تمكنت من استعادة فرسي إلا بإشهار السيف.
- وما كان أمامي حيلة وقد قدمت من ناصع البراهين ما يجعل حقي واضحاً ولكنهم مالوا عن الحق ومال معهم حاكمهم.
- كما رأيت يا بني لولا سيفك ما تمكنت وسط هؤلاء القوم من استرداد الفرس، وما لانوا في التسليم بحقك إلا لأنهم لمسوا فيك قوة لا يقدرون عليها، وإلا فكل قوي في هذه البلدة يجور على حق من هو أضعف منه وذاك يجور على من هو أشد ضعفاً، وهم يحسبون أنهم بذلك يجنون خيراً، وما لهم بصيرة تعينهم على إدراك ما هو خير لهم وما هو شر...
- أذهب إلى السوق وأرشدهم قدر استطاعتي..
- لك في هذا من الله أجر ولكن هل لك القدرة على إرشادهم؟

ـ قدر علمي . . .

ـ يا بني: إنك في إرشادك الناس تتعرض لهم فإما إلى معروف تدعوهم إلى عمله أو إلى منكر تنهاهم عن فعله وإتيانه.

ـ هذا الذي أقصده من إرشادهم.

ـ أعلم أن هذا الذي تقصده وعليك أن تدرك أنك تصدم طبائعاً شقت على ما تفعله الآن، وهي لطول عهدها بما تفعله ثبت في روعها أنه حق لها وسيكون قولك على مسامعها غريباً وسوف تلقى منهم صنوفاً من الأذى قد لا تتحمله، فيدفعك هذا لعدوان يحول بينك وبين الإرشاد الذي تريد. . .

ـ لا أحب العدوان على أحد. . .

ـ إذن تحمل الأذى واصبر وفي كل هذا السوق على اتساعه وتزاحم الخلق فيه الآن إذا هدى الله بك فيه رجلاً واحداً لكان ذلك خيراً لك من الدنيا وما فيها. .

وأمضى عامر مع النساج سبعة أيام يساعده في نسج الأثواب وترتيب الخيوط، ومدها وتشبيكها في النول ولما جاء موعد السوق كان النساج قد زادت أثوابه التي أعدها هذا الأسبوع لمساعدة عامر له في العمل، وحملا الأثواب وذهبا إلى السوق، عامر على فرسه والرجل على حماره الذي يحمل بعض الأثواب وخلفه حمار آخر عليه حمل يماثل الأول، ولما وصلا ذهب النساج كعادته إلى حيث اعتاد أن يقف ويبيع بضاعته وأخذ عامر يتجول في السوق وهو على فرسه الأشهب، وكانت الحادثة التي حدثت أمام حاكم البلدة في الأسبوع السابق قد سرت بين الناس وعلم بها الكبير والصغير، ولم يجدوا في أنفسهم شجاعة على مواجهته وقد لحظ أن جميع الناس ينظرون إليه، وهم يتهامسون فيما

بينهم فعلم أن حادثة استرداد حقه أمام الحاكم قد علم بها الجميع، وقد رأى ذلك في نظراتهم وهمسهم، والقوم ذو خلق فيه مكر كثير.

وقف عامر أمام بائع يكثر الحلف ينهاه ويعظه فنظر إليه البائع ورأى فارساً بجواره سيفه فأومأ برأسه إيجاباً ثم أدار وجهه، واستمر يحلف بصوت منخفض كان عامر قد طلب منه خفض الصوت وظل ينتقل بين أولئك الذين يغشون بضائعهم ويخسرون الكيل والميزان وبعض ماكري البلدة يتبعونه خفية وينشرون بين البائعين ما يدور بين عامر وبين أقرانهم.. وظل عامر يتنقل حتى وقف أمام بائع يخسر الميزان اشتهر بين أهل البلدة بالمكر في الحديث وكانت قد وصلته أخبار ما يدور بين عامر وبين البائعين من أهل بلدته ولما بدأ عامر ينهاه عن خسران الميزان قال الرجل:

- لو كان لك عمل مثلنا لسمعنا منك ولكنك عاطل لا عمل لك تعيش على كد غيرك ثم تعظ الناس والأفضل أن تعظ نفسك.

وقع هذا الكلام على عامر وقع الحجر على رأسه، فعجز عن الجواب ولم يتمكن من الرد فقد ظهر في السوق بين الناس دون عمل فلا هو يبيع ولا يشتري ولا هو يصنع شيئاً منذ دخل السوق إلا أن يتنقل بين الناس يعظهم.. وما كان منه إلا أن أدار فرسه ومشى وئيداً يريد الخروج من السوق، فسمع رجلاً يصيح بصوت عال «عاطل» ثم ما لبث أن سمع ثانياً وثالثاً ورابعاً كلهم يصيح «عاطل عاطل» وما لبثت هذه الكلمة أن سرت على ألسنة أهل البلدة الذين حضروا السوق كلهم يصيحون في ترديد رتيب «عاطل عاطل» ثم ما لبث أن نفخ ماكر من أهل القرية في مزمار معه، عالي الصوت يساعد أهل السوق على تنظيم صياحهم، وعلت أصوات المزامير من كل مكان تصاحب الكلمة التي

يتصايحون بها، وهكذا خرج عامر وهم يشيعونه بالزمر والصياح بكلمة «عاطل» وما زال يبتعد خارجاً من السوق وهذه الكلمة تدوي في أذنه حتى وصل إلى بيت النساج وكأنهم خلفه يزفونه على هذا النحو، وبقي هناك ينتظر عودة النساج من السوق وقد غشيه من الهم ما غشيه.

وعاد النساج وكان قد فرغ من بيع ما لديه من أثواب، وابتاع ما يريد من خيوط الغزل ومن حوائج بيته، وكانت أذناه تسمعان ما يصيح به الماكرون والسفهاء وعيناه ترى ما حدث لصاحبه عامر، وهو صامت لا يتدخل فيما يدور. كل الذي صنعه أنه كان يردد الدعاء إلى الله قائلاً: «اللهم أفرغ عليه صبراً، اللهم أفرغ عليه صبراً» ولما دنا من باب الدار ألفى صاحبه ينتظره وقد بدا عليه الهم فابتدره بالسلام ورد عليه عامر، وكعادة النساج دخل البيت في هدوء ومعه ضيفه؟ وأخذ يهيء له الطعام والشراب ويؤنسه بكلمات طيبة نزلت على نفسه برداً وسلاماً، حتى أذهب عنه حدة الهم والكرب وأقبل على الطعام يتناوله، وكان له في جوار النساج راحة للنفس كبيرة، ولما فرغا من تناول طعامهما قال النساج:

ـ لقد زاد ربحنا اليوم وكان للجهد الذي بذلته معي طوال هذا الأسبوع الفضل في ذلك وهذا الدينار ـ وناول عامر ديناراً ـ هو نصيبك أجر ما قمت به من مساعدتي.

ـ ودار بين الاثنين حديث طويل وعامر يحاول عبثاً أن يرد الدينار إلى النساج، وهو يقول: إنه لم يقم بمجهود يستحق عليه أجراً ولكن النساج أقنعه في نهاية الحديث بأنه كان يساعده، وهذه المساعدة جهد كان له أثر في زيادة الأثواب التي حملها إلى السوق وزيادة الربح الذي عاد عليه مما لا بد أن يدفع عنه أجر...

ولما تناول عامر الدينار كان قد وضح له بأنه ليس عاطلاً كما كان يصفه ماكرو البلدة. وخطر له أن يتعلم صناعة النسيج وأن يتعاون مع النساج حتى يعاود الكرة إلى السوق مرة أخرى يؤدي ما عقد عليه العزم، وعرض هذه الفكرة على النساج الذي رحب بها، وأقبل عامر من غده يتعلم صناعة النسيج، ولزم النول شهرين كاملين أظهر فيهما من الهمة والنشاط ما جعله يتقن الصناعة، وكانت صيحة الماكرين له بكلمة عاطل لا تفارق أذنيه وكلما تخيل رنينها وما تركه صياح أهل السوق في نفسه من أثر كلما زاد همة وعزماً حتى حذق الصناعة، ولم يغادر النول إلى السوق طوال هذه المدة، ولكن النساج كان يذهب وحده كل أسبوع كما هي عادته، يبيع ما يصنعان من أثواب وتمكن عامر بما تجمع له من مال أن ينشىء نولاً ثانياً، ساعده مضيفه النساج على إنشائه ولما انتهى أسبوع من العمل الدائب على النول الجديد كان عامر يصاحب النساج حاملاً معه أثواباً نسجها بجهده على نوله الجديد، ودخل السوق هذه المرة صانعاً يعرض بضاعته، وواعظاً له رسالة في إرشاد الناس إلى القويم من الخلق.

وفوجىء أهل البلدة بظهور عامر بينهم مرة أخرى ولكنهم ألفوه هذه المرة يدخل السوق حاملاً معه أثواباً يعرضها للبيع ولا يتعرض لأحد بحديث ولا يوجه إليهم موعظة وباع ما حمله وقفل راجعاً إلى البيت مع النساج، وهكذا فعل الأسبوع التالي ولما كان الأسبوع الثالث عزم على التحدث إلى البائعين بعد أن يفرغ من بيع ما لديه من أثواب ويواصل وعظه وإرشاده لهم. وحقق ما عزم عليه فباع ما حمله ودار بين الناس الذين حضروا السوق يعظهم وقد زاد هذه المرة إصراراً على القيام برسالته وتأدية واجبه وكان أهل البلدة الذين ظنوا أول الأمر أنهم

قد أثنوه بمكرهم عن عزمه - قد فوجئوا بإصراره على إرشادهم ووعظهم وتقبلوا حديثه على مضض خائفين من مواجهته وسكتوا من يومهم هذا ولم يلق عامر منهم ما يسيء إليه وعاد آخر النهار مع النساج، وقد ملأه الأمل في إمكانية التأثير على أهل البلدة أو على الأقل إسماعهم، ما يجب أن يسمعوه، وعاد إلى السوق في الأسبوع الرابع ومعه أثوابه يعرضها للبيع، وهو على عزم بزيادة جهده في التحدث إلى أهل البلدة وإرشادهم، ومضت سحابة النهار وكان قد باع نصف ما حمل من أثواب حينما أمسك رجل بتلابيب رجل آخر، وقد ارتفع صوتهما في مشادة كلامية حادة تبين عامر من متابعة حديثهما، أن أحدهما مدين للآخر بمبلغ من المال يستمهله في رده والآخر يرفض مبيناً أنه تركه مدة طويلة ولا يستطيع أن يمهله أكثر من ذلك وتدخل عامر لفض الخلاف بينهما ولكنه لم يستطيع أن يقنع صاحب الحق بالتمهل لحظة واحدة والذي عليه الحق يستعطف عامراً في أن يضمنه عند خصمه حتى يتمكن من الوفاء بما عليه، وقبل عامر تحت إلحاح شديد وقال لصاحب الحق الذي تملكه الغضب أنا أضمنه حتى يوفي لك حقك:

قال الرجل : أتعرف كم عليه؟

- كم؟

- خمسة وأربعون ديناراً . .

- أكفل لك المبلغ حتى يوفيك.

فقال الذي عليه الحق آتيك به في الأسبوع القادم، ورد صاحب الحق قائلاً: بل أمهلك شهراً لا أزيد عليه ساعة واحدة.

قال عامر موجهاً كلامه لصاحب الحق: وأنا أكفل لك المبلغ بعد

هذا الشهر إن لم يأتك به دفعته لك، ورد صاحب الحق قائلاً: قبلت. ثم أطلق الرجل الذي كان ممسكاً به وصرفه إلى حال سبيله ثم التفت إلى عامر وقال له:

- إن ضمانتك يجب أن توثق عند حاكم البلدة..

- ولم ما دمت قد تعهدت لك بدفع حقك.؟

- أريد أن أشهد على تعهدك هذا الشهود أمام حاكم البلدة.

- لا غضاضة في هذا...

- وجمع عامر ما تبقى من ثياب لم يبعها وتوجه في صحبة الرجل يجر خلفه فرسه حتى وصلا إلى حاكم البلدة الذي ابتدر عامراً بالسؤال قائلاً:

أبعت ثوباً لهذا الرجل؟

- نعم.

وأراه الحاكم ثوباً مطوياً ثم سأله.

- أهذا هو الثوب الذي بعته إياه..

- نظر عامر إلى الثوب ثم قال:

- نعم.

- وصاح الرجل الذي كان قد أشار إلى عامر عند دخوله.. أنا بريء.. وهذا هو المسؤول عن الذي حدث.

- قال عامر ماذا حدث؟

- رد الحاكم: أنت بعت ثوباً معيباً إلى هذا الرجل وباعه بدوره إلى من باعه إلى ثالث..

- رد عامر: أنا لم أبع ثوباً معيباً...

- قال رجل يحمل الثوب بل الثوب مليء بالبقع السوداء.

قال عامر: لقد كان الثوب خالياً منها عندما بعته لهذا الرجل ولم تكن به هذه البقع السوداء، وقد نشرت له الثوب عند بيته وتفحصه جيداً قبل أخذه..

ـ قال الرجل الذي اشترى الثوب من الرجل الأول:

ـ الآن حلت المشكلة ما دمنا وجدنا البائع الأول وأرى أيها الحاكم أن يرد الثوب إلى صانعه، وأشار إلى عامر ونسترد منه ثمن الثوب..

ـ قال عامر : ولكني لم أبع الثوب بهذه البقع.. ليرد إلي بعد أن عابوه..؟

وعندئذ دخلت امرأة وهي تبكي وقد علا نحيبها ... سألها الحاكم:

ـ ما خطبك ..؟

ـ أجابت المرأة وهي تبكي .. أشكو لك زوجي..

ـ ما الذي حدث.؟

ـ ضربني أيها الحاكم وبالغ في إهانتي أمام الناس، وما زال يركلني بقدمه ويوسعني ضرباً أمامهم حتى حالوا بينه وبيني.

وعندئذ دخل زوجها وكان قد علم بذهابها إلى الحاكم ولما رآها تقف أمامه أيقن بأنها جاءت تشكوه فعلاه الغضب وسأله حاكم البلدة..

ما خطبك؟

قال: هذه زوجتي وجئت.. وقبل أن يتم حديثه قال له حاكم البلدة:

ولم ضربتها..؟

ـ سيدي لقد أرهقتني بأفعالها، وما من مرة تذهب إلى السوق

تشتري حوائجنا إلا وتدفع فيها أغلى ثمن وتحضر لنا أردأ ما يعرض في السوق، وهي تبدد بذلك مالنا وكثيراً ما أرشدتها وعلمتها فلا هي تتعلم ولا هي توفر المال.

ـ قالت المرأة: أيها الحاكم ما أحضرت له إلا أحسن الأشياء، ولكن ما حدث اليوم لا علم لي به.

ـ قال الحاكم : ما الذي حدث؟

قال زوج المرأة: أرسلتها تشتري لي ثوباً فجاءتني بهذا الثوب ونشر زوجها ثوباً مليئاً ببقع الصبغ الأسود.

وما أن نشره حتى صاح الحاضرون. .

قال الحاكم للمرأة: ممن اشتريت هذا الثوب أيتها المرأة؟

ـ اشتريته من بائع جديد ما رأيته قبل اليوم.

ـ قال الحاكم: ولِمَ لمْ تفحصي الثوب عند شرائه. .؟

ـ ما تنبهت أيها الحاكم وما أحسب أن به مثل هذه البقع.

ـ هل تعرفين الذي باع لك الثوب إذا رأيته . .؟

ـ قالت: نعم أعرفه. .

ـ انظري بين الواقفين. .

ـ فنظرت المرأة ووقعت عيناها على عامر وقالت مشيرة إليه هذا هو . . .

ـ قال الحاكم موجهاً كلامه لعامر: ما رأيك في قول المرأة؟

ـ قال عامر: بعتها ثوباً ولكن لم يكن الثوب به مثل هذه البقع، وأثوابي كلها جديدة وما من شار إلا وأنشر أمامه الثوب الذي يجب أن يشتريه ويفحصه جيداً قبل دفع الثمن.

ـ قال أحد الجالسين بجوار الحاكم:

ـ الرأي عندي أن تفحص أثواب هذا البائع فإن كانت بها العيوب رددنا إليه الأثواب واسترجعنا الثمن، وإن كانت خالية من هذه العيوب فيكون قد صدقنا ويكون هؤلاء قد أهملوا في حفظ ما لديهم.

ـ قال الحاكم نعم الفكرة.

ـ وعندئذ مد عامر يده إلى الأثواب التي كان يحملها معه .. ونشرها على الحاضرين ولشد ما كانت دهشته حين وجدها مليئة ببقع الصمغ الأسود ولم تظهر واحدة منها نظيفة .. وكانت مفاجأة أذهلت عامراً فارتج عليه ولم يعد بقادر على البيان...

[خاتمة]

وهنا توقف المؤلف عن الكتابة ليمضي في موكب الشهداء.

كان الشهيد صلاح حسن ونفر من إخوته يدركون أنه لا بد من صياغة جديدة لهذه الأمة، صياغة تجعلها خير أمة أخرجت للناس حقاً وصدقاً. صياغة تجعلها الأمة التي تحمل تبعة أمانة تبليغ رسالة الله إلى الناس، وتأخذ بيد الناس من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ولن تكون هذه الصياغة إلا على النهج الذي رسمه الله تعالى لهذه الأمة منذ نشأتها وهو الجهاد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

[سورة التوبة، الآية: ٣٨ ـ ٣٩].

واتحدت إرادة فئة من المؤمنين على السير على هذا النهج القويم مهما كان شاقاً. واستقر يقينهم على أن الخطوة الأولى لبعث المسلمين هي خطوة الجهاد.

وكانت محاولة جديدة لاستئناف مسيرة العزة والمنعة. وجاءت الفرصة لأخذ زمام المبادرة. ونزل صلاح حسن إلى ميدان الجهاد في فلسطين بكل ما أوتيه من قوة ونزل معه النفر القليل الذي كان يؤمن بما يؤمن به.

وهذه قصة استشهاده يرويها أحد رفاقه في الميدان.

بدأ تحركنا مع غروب شمس يوم ٢٧/٨/٧٠ نحمل ما شاء الله أن نحمل من معدات وأدوات وتوكلنا على الله إلى نهر الأردن.

الظلام دامس .. والأصوات هادئة بل معدومة بعدما ترك معظم السكان قراهم فهي خاوية لم تسكن من بعدهم. واخترقنا هذه القرى المهجورة وخرجنا إلى الحقول والمراعي والبساتين. والركب الصغير يغذ السير إلى هدفه ووصلنا بعد حوالي ساعتين من السير الحثيث إلى شاطىء النهر.

وتوقفنا عن السير فترة قصيرة ـ حوالي نصف ساعة ـ إلى أن ارتاحت قليلاً الأجسام المنهكة من ثقل ما حملت. كان لساننا دائماً يلهج بالاستغفار والذكر. وكانت تخطر دائماً على أفكارنا كثير من الآيات وصيغ الاستغفار. وتدور حول أذهاننا وفي عقولنا أشرطة معينة لمواقف معينة. منها ما يضحك .. ومنها ما يبكي .. ومنها ما يملأ النفس حماسة ومنها ما ييئس .. وهكذا أشياء لا ندري كيف تخطر على ذهن الإنسان في ثوان معدودة بدون رابط بينها. ولكنها تشبه شريطاً من الأخبار الخاصة تعرض على ذهنك وكأن لا شأن لك بها.

بدأنا بحذر شديد في ترتيب عبور النهر. وأخذنا وضعاً مناسباً للقتال تحسباً لأية مفاجئة وقامت مجموعة صغيرة بعبور النهر والتمركز في الضفة الأخرى ثم بعد قليل بدأت المجموعة الأخرى في العبور وهكذا إلى أن انتهينا جميعاً من العبور ثم أخذنا نقطع النهر ذهاباً وإياباً إلى أن

قمنا بنقل كل المعدات وبدأنا في الاستعداد ولكنا شعرنا أن الوقت قد غلبنا ولم يبق على الفجر إلا القليل . ومع بعض الحسابات الخفيفة أدركنا أنه من الصعب أن يسعفنا الوقت في عمل كل التجهيزات فقررنا تأجيل موعد التنفيذ لليوم الثاني وكان لا بد من العودة قبل طلوع النهار.

قمنا بعبور النهر إلى الضفة الشرقية واسترحنا قليلاً بعد أن أرسلنا أحدنا لإخبار مجموعة «التغطية» بتأجيل العملية لليوم الثاني وأثناء الانتظار ألح النوم على جفوننا وكنت ضمن مجموعة كتب الله الشهادة لمعظم أفرادها.

وقعت عيني على أبي عمرو (أي الشهيد صلاح) وهو يغط في نوم عميق وكأنه ينام في بيته. وظللت أنقل عيني بين رجلين سعيد زهرو وصلاح حسن وهما يغطان في النوم وعيناي تراقب الطريق. وما لبث أن عاد محمود برقاوي يخبرنا بنبأ التقائه بمجموعة التغطية وإبلاغها بتأجيل العملية. وبدأنا سيرنا في طريق العودة.

لم نتكلم كثيراً. لم نكن نعرف أن أبواب الجنة قد فتحت استعداداً لاستقبال شهداء سوف ينتقلون بعد لحظات وأننا كلما قطعنا خطوة إلى الأمام كلما قطعنا خطوة إلى الجنة. ووقفت أنادي محمود برقاوي الذي كان سريعاً سريعاً في خطوة. يا محمود لا تسرع حتى لا تختفي عن أعيننا في الظلام الحالك. وللمرة الثانية، حدث أن توقفنا وتكرر النداء لمحمود أن يبطىء في سيره. وبدأ محمود يبطىء فعلاً في سيره. ولكن كانت مرحلة الصعود (أي صعود الشهداء) قد بدأت وكان أبو عمرو يسير خلفي وكذلك شرحبيل (سعيد زهرو). وانتقلت من جانب

الطريق الأيمن إلى الجانب الأيسر حتى أظل ملاحقاً لمحمود أثناء سيره. وفجأة رأيت ناراً حامية تخرج من الأرض في اتجاه محمود برقاوي وذلك من بعد حوالي خمسة عشر متراً. وتابعت النار الحامية وهـي تصيـب محمـوداً وأدركـت فـي الحـال أن محمـوداً كـان أول الصاعدين .. وهوى الجسد الطاهر على الأرض وصعدت الروح الكريمة إلى بارئها .. هوت المادة إلى المادة .. إلى أصلها وصعد السر الذي هو من علم ربه إلى خالقه .. وظلت المدافع تقصف في اتجاه محمود قصفاً عنيفاً متواصلاً. وأخذنا وضع الاستعداد للالتحام. ولم يخطر ببالنا أن إخلاء الأهالي لقراهم يمكن أن يغري اليهود بالتعمق إلى هذا الحد داخل أرض الضفة الشرقية وكأنها بدون صاحب. فصحت بأعلى صوتي: انتبه ..ماذا تفعل؟ وذلك ظناً مني أنها مجموعة من الفدائيين حسبتنا يهوداً ففتحت نيرانها علينا. ولكن بضع كلمات عبرية بلغت آذاننا جعلتنا ندرك الوضع تماماً. . أنه كمين يهودي . وأنه لا يقل عن فصيلة كاملة..

ولكن من أدرى اليهود أننا سوف نعود من هذه الطريق ؟ هل هي «إخبارية» من بعض عيونهم . هل المسألة صدفة؟ لا نستطيع الجزم وإن كانت الشواهد تنبيء أن لليهود في هذه المنطقة بعض العيون التي تنبئهم بالتحركات في المنطقة.. ظللت حوالي ثلاث دقائق وأنا أراقب الموقف للتصرف حسب التقدير السليم.

نظرت خلفي نظرة خاطفة فوجدت أبا عمرو قد جلس القرفصاء وأخذ وضع الاستعداد . ولم نحاول الالتحام أو الرد حتى نخفي

مواقعنا، ونخفي أيضاً عددنا بفضل الظلام الدامس.. وظل اليهود يضربون على غير هدى . وقررنا الانتقال من مكاننا إلى أماكن أكثر أمناً. ومع الانتقال بدأت القنابل اليهودية تنهال علينا من اليهود. كل هذا ونحن ساكتون تماماً. ثم بدأ اليهود إرسال طلقات كاشفة من مدفع هاون لمحاولة معرفة مكاننا وأثناء انتقال أبي عمرو وسعيد زهرو من مكان إلى مكان أصيب أحدهما في قدمه ووقف الآخر لمساعدته وظلا في مكانهما إلى أن أراد اليهود أن يأخذوهما فأمسك كل منهما بسلاحه وكانت مواجهة عنيفة بين المجاهدين وبين اليهود وكانت كارثة مفاجئة لليهود فقد سقط في الحال أكثر من ثلاثة عشر قتيلاً غير الجرحى مما حمل اليهود على الانسحاب بسرعة، هذا مقابل استشهاد البطلين صلاح وسعيد. ومع الانسحاب السريع ترك اليهود خلفهم أحد الجرحى مات في اليوم الثاني وتركوا خلفهم كثيراً من المخلفات الهامة والقنابل اليدوية وغيرها. ثم بدأت بعد انسحابهم عملية تمشيط المنطقة بقنابل الهاون ١٢٠ مم. وطلع النهار ولم نستطع سحب جثث الشهداء ذلك اليوم وانتظرنا إلى أن جاء الليل ومع أول الليل نزلنا بسرعة لإحباط أي مكيدة للعدو أن يدبرها وبدأنا في سحب جثث الشهداء، ولكن العدو شعر بنا فأضاء أحد كشافاته القوية وأغرق المنطقة في نور كالنهار وكانت الجثث الطاهرة قد اختفت من مكانها وجن جنونه إذ أدرك أننا مازلنا في المنطقة واستطعنا سحب الجثث، وأخذت مدفعيته تضرب بجنون وظللنا أكثر من أربع ساعات ونحن نسحب الجثث تحت الضرب ولم تقع أية إصابة لأحد منا وهكذا غاب عنا أبو عمرو

ومحمود برقاوي وسعيد زهرو. دفن الشهيد محمود برقاوي في بلدة النواجع في الأردن ودفن سعيد زهرو في حماه في سوريا. ودفن أبو عمرو في أرض الكويت.

ترى . كم من المسلمين يحسن أن يموت هذه الميتة..

بل كم من المسلمين يستطيع أن يحيا هذه الحياة..

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٥٤]

صدق الله العظيم

«اللهم إنا نسألك شهادة تحيينا بها في جنتك • واجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمتك»

اللهم آمين.